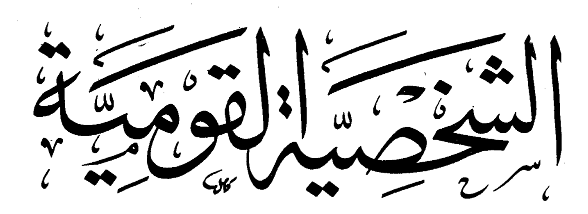
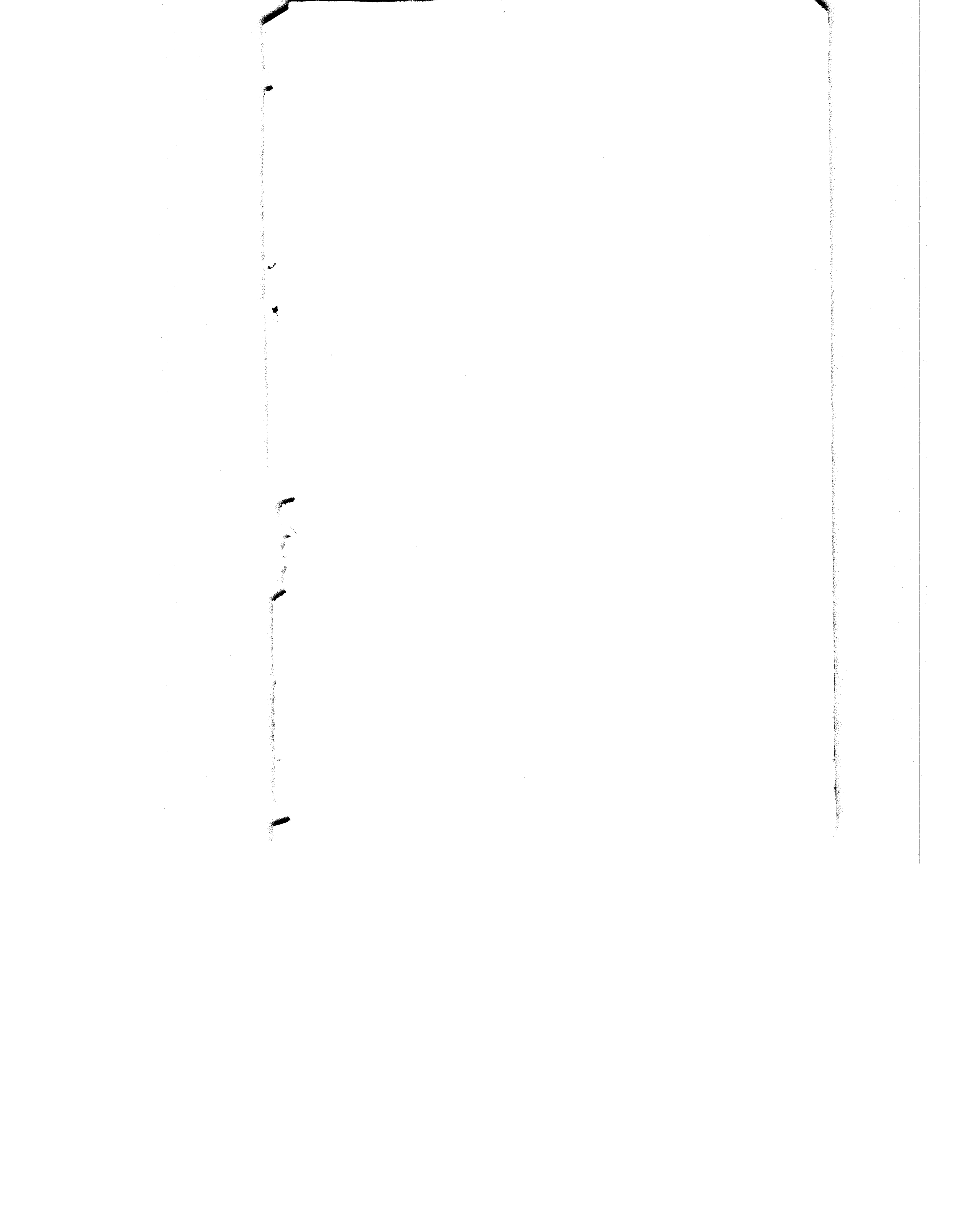


الشخصية القومية

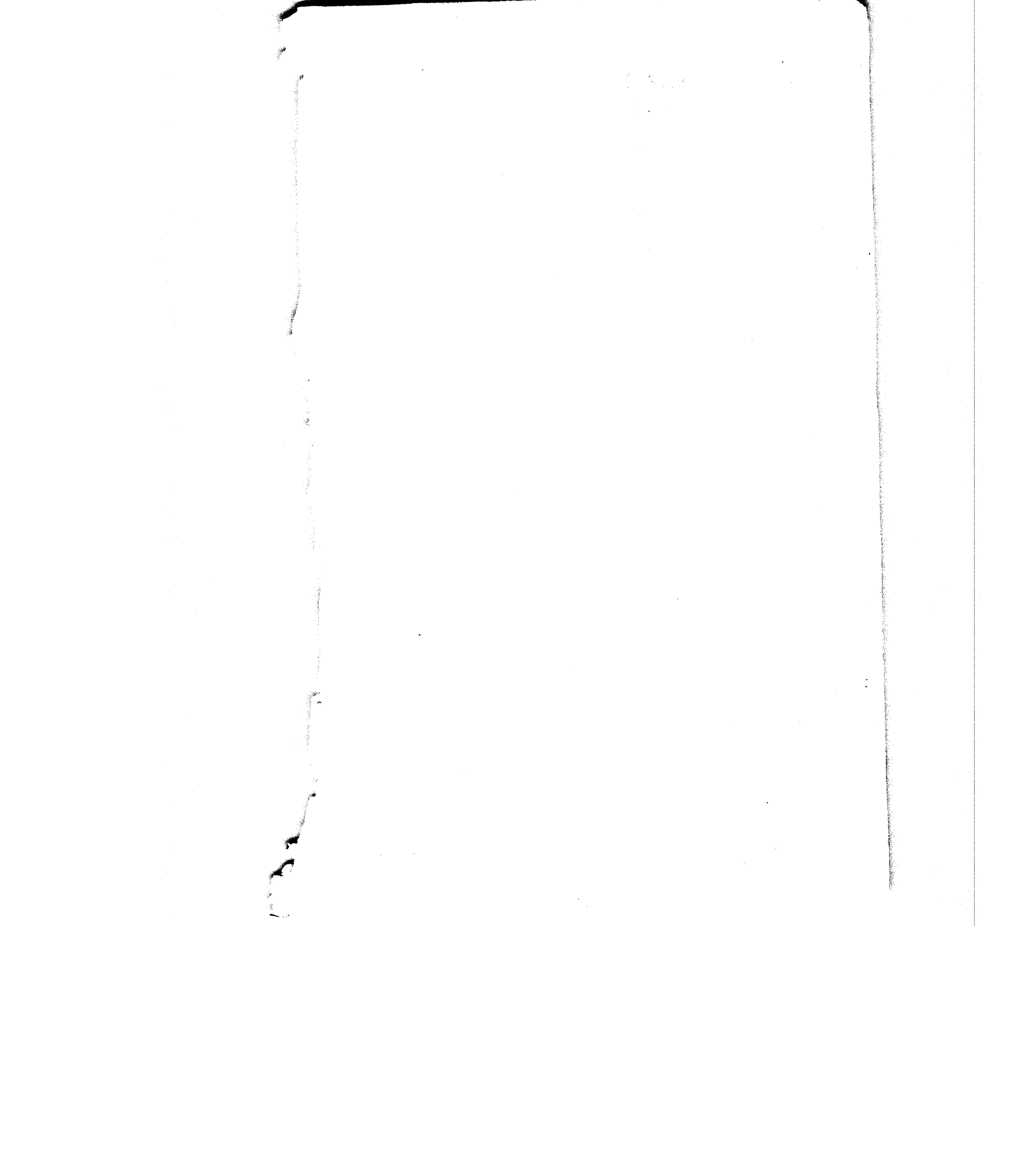
موقف العلوم السلوكية من الشخصية - تكوين الشخصية
وأثر الصفوة عليها - تغير الشخصية من الاستقرار
إلى البلبلة الاجتماعية

دكتور
محمد سعيد فرج
أستاذ مساعد علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة طنطا

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه



أ.د محمد سعيد فرج
استاذ علم الاجتماع



الاهـــــداء

الـــى

أســــتاذى

الدكتور

السيد محمد بــدوى

اعترافا بفضله

المقـــدمة

تعد دراسات الشخصية القومية مجالا جديدا فـى أبحاث العلوم السلوكية وتعبر عن اتجاه حديث النشأة يهتـم اهتماما أساسيا بالافعـال القومية ، سواء فى فترات الحـرب أو السلام كما يـدل على اهتمام لا يتوقف عند الانسان بالبحث عن القوى التى تشكل طبيعته · ولقد زاد الاهتمام بدراســة الافعال القومية عندما زاد الوعى بالشخصية القومية ولمواجهة التحديات العالمية والداخلية ·

ولم يعد الاهتمام بدراسة الشخصية القومية أو الاجتماعية قاصرا على الدراسات الانطباعية سواء أكانت هذه الدراسات عن بعد أو عن قرب ، اذ اعتمد الباحثون فى الخصائص القومية والاجتماعية على قواعد المنهج العلمى لدراسة الافعال والافكار القوميـة ، أو استقصاء العناصر الاجتماعية التى تكون شخصية اجتماعية معينة عند أعضاء مجتمع معين · والشخصية القومية مثل الشخصية الاجتماعية ليست ثابتة جامدة بل متغـيرة · اذ أن هناك بعض الاوضاع الاجتماعية التى تؤثر فى تشكيل المجتمع أكثر من غيرها · كما أن درجة توحد وتقبل الاشخاص للمعتقدات والقيم والافكار ليست سواء · اذ نجد بعض الاشخاص يتوحدون بهذه المعتقدات والقيم أكثر من غيرهـم · واذا كانت الشخصية القوميـة أو الاجتماعية تتكون من الاتجاهات والقيم والافكار والخرافات المشتركة ، سواء على مستوى الدولة كما فى حال الشخصية القومية أو على مستوى جماعية معينة كما فى حال الشخصية الاجتماعية فان هذه العناصر التى تكون الشخصية تنعكس خلال الانشطة اليومية وتؤثر على سلوك الناس وأفكارهم ·

واذا ما سلمنا بأن موضوع الشخصية القومية موضوع جديد ، فان أهميته تبدو واضحة فى أيام الحرب اذ يساعدنا على فهم أعدائنا ، كما أن أهميته تبدو جلية أثناء السلم اذ يساعدنا على ادراك وفهم ومواجهة أوجه

القصور والصعوبات التى تعترض طريق التنمية الاجتماعية والاقتصادية ويساعدنا على مواجهة الواقع الذى نعيش فيه مواجهة علمية ، وأن نبذل الجهد لنزيل القشور من حول الحبة أو نمحو الشوائب من حول الجوهر ، لنزيل العناصر السلبية المعوقة للانطلاق وندعم العناصر الايجابية ٠

ولهذه الاسباب فكرت فى الالمام بالتراث العلمى المكتوب عن الشخصية القومية ، كخطوة لفهم الشخصية المصرية وفق قواعد المنهج العلمى بلا انفعال ولا عقل مقفول ايمانا منى بأن علماء الاجتماع مواطنون ملتزمون ، يتأثرون ويرتبطون بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تحيط بهم والتى تغذيها قوى داخلية وخارجية قد لا تخفى عن الانسان العادى مقاصدها ٠ وهذا العمل محاولة متواضعة ، وقد يشوبها الكثير من أوجه القصور ـ تدعو للبدأ فى فهم صورتنا الاجتماعية وطبيعتنا المصرية والخصائص القومية التى تميز المصريين عن غيرهم ، وتعبر عن تجانسهم أو تدعو الى تنافرهم ، ونفهم العناصر الايجابية فيما متعمقا للتغلب على القوى التى تحيط بنا وتحاول اجهاضنا، ولنواجه ولنستغل فكرنا والمصادر الاقتصادية فى مجتمعنا أفضل استغلال لبناء مجتمع أفضل ، ولمعرفة العناصر السلبية التى تعوق انطلاقتنا فنستأصلها أو نخفف من آثارها ٠

وهذه الدراسات التى تضمها دفتا هذا الكتاب ، ليست الا دراسات نظرية ، تعبر عن جهد فردى ٠ ولم تسبقها أو تعقبها دراسات استطلاعية أو استكشافية للخصائص القومية المصرية أو أنماط التفكير والسلوك عند جماعة معينة ٠ ولكنها لا تعدو الا أن تكون تمهيدا لدراسات تالية ٠ وتهدف الفصول الثلاثة الاولى من الكتاب عرض جهود وآراء علماء الاجتماع والمشتغلين بعلم النفس والانثروبولوجيا فى دراسة هذا الموضوع ٠ بينما أولت الفصول الثلاثة الاخيرة اهتمامها بالشخصية

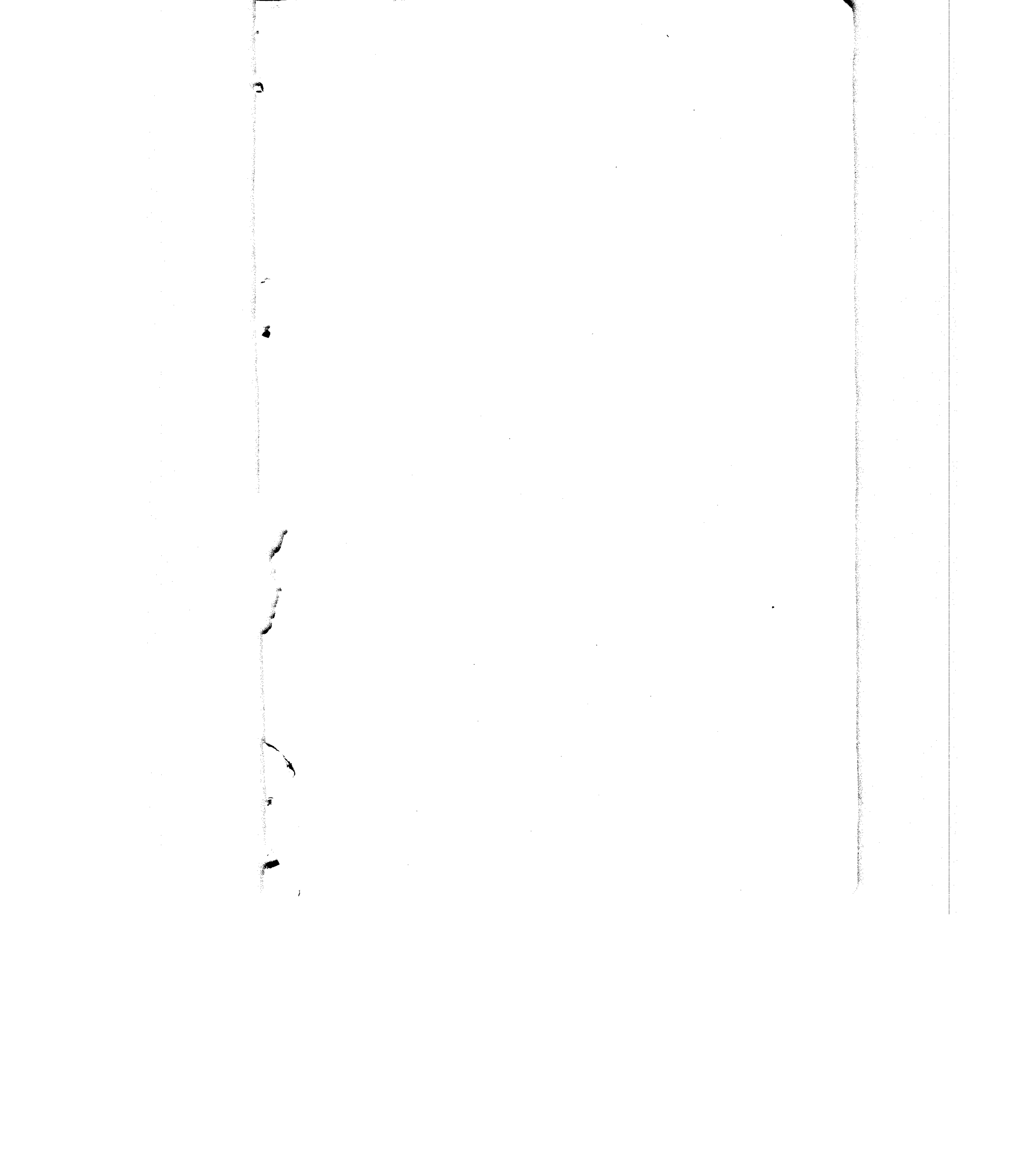
المصرية ، فدرس الفصل الرابع أثر الصفوة المصرية على الشخصية المصرية ، ثم درس الفصل الخامس عملية تكوين الشخصية المصرية مؤكدا على أساليب التنشئة الاجتماعية فى الاسرة المصرية ، ثم عرض الفصل السادس لعملية تحول الشخصية المصرية من مرحلة التماسك والتجانس الى مرحلة البلبلة الاجتماعية · ولقد اعتمدنا فى الفصلين الرابع والسادس على تحليل أعمال الادباء والمفكرين المصريين · ولسنا أصحاب بدعة فى هذا الاتجاه · ولكننا اقتدينا بأعمال بعض علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الذين رأوا أن الاعمال الادبية والفنية والامثال الشعبية تعكس الشخصية القومية · كما يرجع اعتمادنا على أعمال المفكرين والادباء المصريين الى افتقادنا الى الدراسات المصرية التجريبية عن الصفوة المصرية ، واتجاهات وقيم الشباب فى بلدنا والدراسات التى تهتم بأساليب التعلم والعمل اليدوى والعمل الفكرى ·

والحقيقة أن دراسة الشخصية القومية المصرية حظيت ببعض الاهتمام من الجغرافيين والمؤرخين وعلماء النفس فى مصر ، وهؤلاء حاولوا ــ كل حسب جهده ــ تفسير وتحليل الشخصية المصرية من مدخل محدد · فكلها دراسات تعبر عن جهود فردية ، ولذا تعد كل هذه الدراسات ناقصة ، اذ أن دراسة الشخصية القومية تقتضى عمل فريق البحث الذى يضم كل التخصصات لكى نفهم هذه الشخصية القومية أفضل فهم ·

وأخيرا أتوجه بالشكر والعرفان الى كل من ساهم برأيه أو جهده لاخراج هذا العمل الى الوجود ·

الاسكندرية ــ سان استفانو ·

مايو ١٩٨١ ·



الفصل الأول

القضية والمفهومات

- المشكلة .
- ارهاصات عن الخصائص القوميه العربية والمصرية .
- المفهومات .
- الشخصية القومية .
- الشخصية المنوالية .
- بناء الشخصية الاساسية .
- الشخصية الاجتماعية .
- الشخصية القومية هى العقلية القومية .
- الشخصية القومية حقيقة أم وهم .

الفصل الأول

القضية والمفهومات

● المشكلة

من المسلم به أن يختلف الناس فى سلوكهم وطباعهم وخصائصهم . ولذا فمن الظواهر المألوفة أن توصف شعوب بالرقى والتقدم ، وتوصف أخرى بالتخلف والجهالة والتبعية ، وثمة شعوب يعرف عنها الرغبة فى التجديد والابتكار والانجاز ، كما عرفت شعوب أخرى بأنها محافظة متمسكة بالتقاليد والتراث • وثمة شعوب يولع أفرادها بسماع الموسيقى وحب الفنون ، بينما شعوب أخرى ينصرف أهلها عن الفنون الى أشياء أخرى • وتشتهر بعض الشعوب بالعنف والصراعات بين أفرادها ، بينما اشتهرت شعوب أخرى بأنها محبة للسلام ومتماسكة ؛ وبينما يعرف عن بعض الشعوب أنها محبة للهجرة سعيا وراء الرزق ، وصف المصريون فى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين بأنهم بيتيون ، وثمة شعوب تؤمن بالعلم التجريبى وقطعت شوطا كبيرا فى استخدام الآلة والتكنولوجيا ، بينما فى الطرف الآخر شعوب وصفت بأنها لا تواكب هذا التقدم التكنولوجى ، وعرفت بأنها شعوب متخلفة ، ينخفض فيها مستوى معيشة أفرادها ، كما أثبتت الدراسات الحديثة تباين حدة معاناة القلق من شعب لآخر ، وعرف عن بعض الشعوب أنها أكثر معاناة للقلق من غيرها • ووصفت بعض الشعوب بأنها متدينة شديدة التعصب، ووصفت شعوب أخرى بالنزعة العلمانية وأنها لا تقحم الدين فى المسائل العامة. وعرفت عن بعض الشعوب بأنها تواكلية واتكالية ، بينما عرفت شعوب أخرى بحب التجديد والنظرة المستقبلية والايمان بأهمية الوقت وتحديده • وبينما اشتهرت بعض الشعوب بالتكاسل يعد العمل شرط الحياة عند شعوب أخرى ، حتى أن توفير الطعام لا يعد مشكلة عندهم ، بينما عرف أن الطعام يعد أهم المشكلات عند الشعوب الاخرى •

بعض هذه الخصائص التى اتسمت بها بعض الشعوب صادقة ، وبعضها قد يكون مغرضا ، بعضها كتبه بعض الادباء والرحالة فى كتبهم بعد زياراتهم لبعض البلدان ، وهى مجرد أوصاف انطباعية ، وبعضها كانت دراسات انثروبولوجية عن بعد ، ونتيجة دراسات كلفت بها مكاتب المخابرات العسكرية بعض الانثروبولوجيين مثل روث بندكيت وجورر ومرجريت ميد أثناء الحرب العالمية الثانية ٠ والحقيقة أن الاهتمام بالخصائص القومية لبعض الشعوب وبالتالى دراسات الشخصية القومية بدأ أثناء الحرب العالمية الثانية ، عندما عمل بعض الانثروبولوجيين فى مكاتب المخابرات العسكرية (١) ٠ وحاولوا تعريف الشخصية القومية فى بلدان مختلفة مثل اليابان وتايلاند ورومانيا ، ولما كان من المستحيل السفر الى بعض البلدان أثناء الحرب ، بقى هؤلاء الباحثون فى مكاتبهم ٠ ولم يرحلوا الى مناطق الدراسة ، وخير مثال على هذا النمط من الدراسات كتاب جورر ، « أبحاث عن الثقافة اليابانية » وكان كل ما فعله هو مقابلة بعض اليابانيين الذين يعيشون فى الولايات المتحدة وقراءة الكتب والمجلات اليابانية وتحليلها ، ومشاهدة الافلام اليابانية كما درس تاريخ اليابان ، وحاول رؤية العالم كما يراه اليابانيون ٠ وقد بين فريق البحث الذى قاده جورر اهتمام اليابانيين بالطقوس والترتيب Tidiness والدقة والنظام ، وقارن بين سلوكهم والسلوك القهرى عند بعض الافراد فى العالم الغربى ، وقد اعتمد الباحث على نظرية فرويد التقليدية عن التعود على الاخراج – التبرز – باعتباره مبدأ لتفسير سلوك اليابانيين ٠ وقد رد الباحث خصائص اليابانيين الى التدريب القاسى على عملية التبرز أثناء طور الطفولة الاولى ، ولما كانت دراسة اليابانيين تعتبر دراسة عن بعد ، لم يعتمد فيها الباحث على الملاحظة فقد كانت دراسته موضع شك ٠

---

(1) Barnouw Victor : Culture & Personality. The Dorsey press, Homewood, illinois 1963. pp. 120 - 128.

ومثلما درس جورر الشخصية اليابانية عن بعد ، درس الشخصية الروسية ، بتكليف من المخابرات الامريكية ودرس فريق البحث أكثر من نمط من أنماط التفاعل متأثرين بنظرية فرويد عن القماط ، فهم درسوا تفاعل الذكر بالانثى ، وتفاعل الطفل بوالديه ، ولاحظوا أنماط التكامل ودرسوا مظاهر التسلط والخضوع والاعتماد والكف ٠

ولقد زاد الاهتمام بالشخصية القومية فى السنوات الاخيرة لاسباب سياسية وعسكرية وتنموية من جهة وأسباب أكاديمية من جهة أخرى ٠ فهذا البحث يؤكد ارتباط النظرية والبحث فى الانثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع ، وتلاحم هذه العلوم ، هذا من جهة ومن جهة أخرى يؤكد مبحث الشخصية القومية انعكاس التأثيرات الثقافية والاجتماعية على شخصية الفرد ، كما يدرس مدى التناسق والتفكك فى شخصية المواطنين فى مجتمعات معينة ، ويهتم بعدد العوامل العلية التى تفسر اضطراد السلوك (٢) ٠ ويعنى فى الوقت نفسه القبول المتزايد لمفاهيم وآراء فرويد فى الدراسات السلوكية وظهور المناهج والاختبارات الاسقاطية عند دراسة الشخصية والتأكيد على دراسة التكيف الاجتماعى٠

أما الاسباب السياسية والعسكرية فعديدة ، أهمها دراسة الخصائص السلوكية للشعوب قبل غزوها أو تدعيم الحرب الباردة ضد الاعداء من أجل التنبؤ بسلوكهم والتأثير عليهم مثل الدراسات التى أجريت عن الشخصية اليابانية أو الروسية ، أو دراسة الشخصية القومية للمجتمع الذى ينتمى اليه الباحث لمعرفة الخصائص السلوكية السلبية والايجابية من أجل احداث عمليات التنمية الاجتماعية ٠

---

(2) Inkles Alex : Social change and sicial character. In, Personality and social systems. Edaited by. Neil smelser. N.Y. Johm wiley. 1963. pp. 357 - 365.

والحقيقة أن الاهتمام بالخصائص القومية لـدى الشعوب اهتمـام قديم بدأ منذ هيرودوت ، ونال اهتمام الرحالة الذين يصفون المجتمعات التى يشاهدونها · وكانت الخصائص القومية مثل الشجاعة والصبر والكرم والبخل والولاء والولع بالفنون موضع اهتمام هؤلاء الرحالة ·

وفى العصر الحديث فثمـة فـرق بين الدراسـات التى اهتمت بالخصائص القومية عند الشعوب فيما قبل الحرب وبعدها ، كذلك تتميز الدراسات التى أنجزت قبـل ١٩٥٥ عن الدراسـات التى تمت بعـد ١٩٥٥ (٣) ، فالدراسات الاولى كانت دراسات وصفية تتـم عن بعد ، بينما الدراسات الاخرى كانت دراسات حقلية · ورغم وجود فروق كثيرة وهامة بين الدراسات الرئيسية التى كانت تهتم بالشخصية القومية قبل ١٩٥٥ وبعده فانها تشترك جميعا فى تماثلات هامة معينة ، لانها تبحث عن النمط الشائع للشخصية عند جماعة كبيرة · كما كانت مهمتها وصفية أكثر منها تحليلية · وكانت الجماعة التى يدرسها الباحث ، لا تدرس لاختبار نظرية معينة · ولكن لمـا لهذه الجماعة فى ذاتها من أهمية لدى بعض الحكومات ، أو لانها تشغل وتحتل منطقـة استراتيجية هامـة ، وكانت المقاييس التى تستخدم عادة تضم مجموعة متنوعة من الاختبارات الاسقاطية وكانت النتائج تخلط بين المعلومات بعضها وبعض · وتخضع لتفسـير معقد واكلينيكى عن النمط الشائع للشخصية القومية ·

وكانت هذه الدراسات تفتقـد المقارنـة بين شخصيات الشعوب المختلفة ، وتحاول فى الوقت نفسـه ربط وتفسـير الشخصية موضع الدراسة بالثقافة ككل ، أو بمجموعة متنوعة من السمات ، وتتجـاهل تفسير هذه الشخصية فى علاقاتها ببنـاء فرعـى خـاص مثـل النسق السياسى ·

(3) Inkles Alex. : National character and Modern political systems. In francais Hsu. Psychological Anthropology. New edition. Cambridge. Schenkman pub. 1972. .p. 222.

أما الدراسات التى بدأت بعد ١٩٦٠ (٤) ، فاتخذت اتجاها مغايرا وشكلا جديدا ، وبدلا من أن تبحث عن صورة عامة للشخصية ، اهتمت بدراسة نمط سلوك معين يتميز بأنه فريد فى نوعه ومعقد فى الوقت نفسه ، وتجنبت هذه الدراسات الاعتماد على الانطباعات الشخصية والملاحظات الشكلية لصالح الاختبارات المنهاجية واستبدلت بتحليل آراء الرأى العام الاختبارات الاسقاطية النفسية ، ولم تحصر هذه الدراسات نفسها حول شعب واحد أو جماعة معينة ، بل اهتمت بمجموعة من الشعوب بغية اجراء دراسة مقارنة بين شخصيات الشعوب المختلفة فى فترة زمانية محددة • وقد حلت العينات الكبيرة الممثلة للشعب كله محل العينات الصغيرة الخاصة غير الممثلة والمستعملة من قبل ، وبدلا من ربط الاكتشافات بين أنماط الشخصية والثقافة أو المجتمع ككل فان الباحثين الجدد حددوا دراساتهم بجزء محدد من البناء الاجتماعى أو مجموعة خاصة من الادوار ، بل أحيانا اكتفوا بدراسة مركز واحد مثل مركز رجل الاعمال ، أما دراسة شخصية الجماعة كلها كما أشار لافين (٥) فان الاتجاه الجديد فى دراستها فقد اعتبرها مقولة متخلفة ، وأثرا من آثار الماضى ، فالدراسات الجديدة تهتم بالعلاقة بين الشخصية وبعض المتغيرات الاخرى ، بدلا من محاولة وصف خصائص شخصية الجماعة نفسها • ومن أمثال الدراسات الجديدة الاهتمام بالثقافة السياسية للتمييز بين الاتجاهات السياسية وغير السياسية •

● ارهاصات عن الخصائص القومية العربية والمصرية

ومثلما درست الخصائص القومية للشعوب اليابانية والروسية والامريكية نالت دراسة الخصائص القومية للشعوب العربية عامة ومصر

(4) Ibid : pp. 223 - 224.
(5) Ibid : pp. 223 - 224.

خاصة اهتمام بعض الباحثين الا أن افتقاد الدراسات العلمية التى تساعد على تفسير الخصائص القومية للشعوب العربية ، والنمو البطىء للعلوم الاجتماعية فى هذه البلدان ، شجع كل مغرض وأصحاب النيـة الطيبة على الكتابة عن طباع هذه الشعوب .

وكان الشعب العربى عامة والمصرى خاصة محور اهتمام دراسات كثيرة، بعضها كانت دراسات انطباعية وبعضها كانت دراسات عن بعد ، ومن الدراسات الهامة التى أدلت بدلوها فى الطباع القوميـة للشعوب العربية دراسة سنية حمدى (٦) . وسنية حمدى مثال لبعض العرب الذين يرتدون ثوب العلماء ويكتبون عن خصائص مجتمعهم بما يرضى غرور الاوربيين والامريكان ، وقد أدعت سنية حمدى أنها اعتمدت فى دراستها على ما تتذكره عن طفولتها ، وعما كتبه بعض الادباء والكتاب العرب عن طباع شعوبهم ، وقد ادعت سنية أنها كانت تنظر وتبحث عن مضمون ثقافة العرب ، وتعريف الطابع العـام لثقافتهم ، زاعمة أنهـا فى كل ذلك اتخذت موقف الحياد العلمـى ، وقد حـاولت سنية أن تبرر الفروق القومية بين مختلف الشعوب العربية ، وجعلت سكان الحضر المصريين يتميزون بالمرح وروح الدعابة ، وهاتان الخاصيتان تشـترك فيهما مع المصريين باقى الشعوب العربية ، ولكن ثمة سمات مشتركة بين العرب جميعـا ، بما فـى ذلك المصريون ، باستثناء بعض الشواذ من المثقفين ، وهى ترى أن بعض هـذه السمات العامـة جـامدة وراسـخة ومستقرة ، وبعضها فى طور التغيير وبعضها أخذ فى الاختفاء ، وبعضها فى طور التكوين . وقد وصفت سنية الشعوب العربية بأنهـا تتميـز بالتناقض الوجدانى ، والانفعالات الشديدة ، والغضب الانفعالى والنزعة

---

(6) Hamedy, Senia : Temperament and the character of the Arabs. Desseration from The Departement of social studies the university of Chicago. 1956.

العدوانية ، وطابع الحزن والحب والخوف ، والشعور بالدونية والغطرسة والتفاخر والاهتمام بالمظهر والشكليات ، والادب الجم المفرط والانصياع للقادة، وانعدام الوعى الاجتماعى • ويتركز انتماء العربى فى العائلة أو القبيلة ، ولا يوجد شعور بالتضامن الحضرى • ويبدو افتقاد أخلاق المدينة جليا ، ورغم ذلك تظهر النزعة الفردية الذاتية فى علاقات كل عربى بالناس ، والشعور نحو السلطة متقلب ، يتفاوت ما بين خضوع ومداره لها وسخرية وثورة عليها فى المجالس الخاصة ، والعربى لا يحترم القانون ، فالقانون شكلى ، وان كان يخشاه عندما يطبق عليه •

والعرب قوم مؤمنون ، تسيطر عليهم نزعة الدين والايمان بالسحر، وتسيطر عليهم أيضا الخرافات ، ويسلمون أمرهم للمجهول فى قدرية عمياء ، وهم يتحملون المكاره فى سبيل حفظ الذات ، والرجل المثالى رجل عاجز قد صاغته مجموعة من المعتقدات الخرافية ، والبعد عن الواقع ، وتعوق أساليب الفكر السائدة عند العرب من تقدمهم ، وتعطل من مصالحهم ، وتؤدى الى تأخرهم عن ركب العالم المتقدم ، وهم يعيشون فى الماضى ، ويؤمنون به ، ويتفاخرون بالسلف ، ولا يتكالبون على العمل ، بل هم قوم متكاسلون• ومن بقايا الايمان بالماضى حسن الضيافة والكرم والادب الزائد ، وطاعة الابناء للآباء أمر غيرمستقر، فهى مصدر لمشاكل عديدة ، بين أنصار النزعات الحديثة المعاصرة ، وأنصار الخضوع للتقاليد والدين، الذين يرددون « وبالوالدين احسانا » • وبالرغم من الايمان بالفردية وبالفرد فى علاقته بالمجتمع ، فالعربى لا يؤمن بالفرد فى حد ذاته • بل يؤمن بالجماعة ، ولكن ذلك ليس وعيا اجتماعيا متقدما ، بل وعى قاصر ، والانتماء لا يقتصر على الانتماء الى الاسرة أو العصبية • بل قد يمتد الى الولاء للقبائل ، مقرونا فى الوقت نفسه بالعجز عن تحمل المسئولية ، وبينما يريد العربى أن يكون غيره أمينا ، فان معاملته للغير تعكس سوء الظن ، ولقد بدأت تظهر بوادر ضعف التماسك الاسرى

الاقتصادي العربي

بعد ١٩٩٠ والتفكك الاجتماعي ، واذا كان العرب متعصبين الى قبائلهم وعائلاتهم فالمجتمع العربي ككل يفتقد التعاون بين أفراده ٠

ومن حيث نظرة العربي الى الحياة ، فهذه الباحثة ترى أن العرب يقدسون الموتى في الادب والتقاليد ، وأنهم يحيون حياة تنبثق عن تقاليد قديمة مستمدة من الدين ويحاولون أن يغلبوا الروح السلفية في المعاملات ، والدين هو المحرك الاساسي لكل أنماط السلوك عند العرب ، وهو منبع كافة المظاهر الثقافية عندهم ، ومنظم العلاقات بين الافراد ٠ والفكر العربي وظيفته تحقيق الخير بالمعنى الديني ٠ وفي المجتمعات العربية تصطبغ التقاليد بالصبغة الدينية ٠ والعربي لا يبدأ شيئا الا مفتتحا باسم الله ، وان شاء الله ٠ والجلد والصبر عند العربي مبعثه ايمان قوي أصيل بالقدرية ٠ ويظهر هذا الايمان في التقاليد والقيم الدينية ٠ أما الرضا عن النفس أو ما يقولون الرضا بما قسم فيرجع الى الايمان بالقضاء والقدر ٠ مما يولد عند العربي روح الاستسلام والسلبية ، ذلك لان العربي يعتقد أن النتائج حتمية لا دخل له فيها ٠

أما عن تكوين العقل العربي فترى سنية حمدي أن العرب شعب يجنح الى الكلام لا العمل ، وعقله جامد لا يقبل التجديد ، فالشعب العربي شعب اعتقادي متناقض في أحكامه ٠ ولا يرى نسبية في الحكم ٠ فالحكم الصادر من العربي دائما حكم مطلق ، كذلك فهو لا يستطيع أن يتمثل الافكار المجردة ، فهو انسان حسي ٠ ومن ثم فالفكر العربي غامض مشوه ، لا يستطيع أن يعبر عن صورة حسية تعبيرا دقيقا بصيغة لغوية ، فألفاظه وكلماته تشير دائما الى أشياء ملموسة ولا تستطيع أن تنقل الافكار المجردة ٠وينقص التفكير العربي النظرة الكلية الشمولية ٠ وعدم القدرة على التعميم ومن ثم يلجأ الى المبالغة والمغالاة في وصف التفاصيل ٠ ووصفت سنية النزعة العقلية عند العرب بأنها نزعة متكاسلة لا تعي العدالة الاجتماعية ، وتقبل الواقع ، وترضى بالتفاوت بين الطبقات ،

والذى تفرضه الظروف الاقتصادية فى سلبيةمطلقة ولا مبالاة · ويتجلى القصور العقلى فى عدم وجود قيم للعمل عند العرب · وقد وصلت سنية الى نتيجة مؤداها أن العربى لا يدرك العلم الحديث فهو انسان لا يهتم بمعرفة الاسباب والمسببات والقوى الدافعة وراء البحث أى عن اجابة للسؤال المبتدأ بحرف الاستفهام لماذا ؟ والمجتمع العربى مجتمع تقاليد يسلم بالواقع ، ولا يحاول الفكر العربى أن يدرس تطور الانسان العربى دراسة تمكنه من الاستفادة من امكانياته ، فهو راض بما قسم له ، وأدى به تكاسله الى لبس لباس الزاهد المتقشف ، ومن ثم فهو انسان مستسلم خانع ، مسالم لانتفاء الطموح الذاتى لديه ، ولا يريد أن يتحمل مسئوليته عن عمله ، فكل شىء بيد الله ،

تلك الخصائص التى تنسبها باحثة عربية مقيمة فى الولايات المتحدة ، الى الشعب العربى ، لا تختلف كثيرا عن دراسات الاوربيين الذين يلبسون رداء العلم ، ولا يخرجون عن كونهم دعاة الاستعمار الجديد ، وأنصار العنصرية · ويرى هارير دكمجيان (٧) · ان سكان وادى النيل قد عانوا أطول فترات العبودية المستمرة التى خضعوا خلالها لحكام أجانب ، ولكن عندما ظهرت اشراقة النزعة الوطنية ـ كما يرى الباحث ـ ظهرت أزمة طويلة بين الشخصية القومية والشخصية الفردية لم تحل بعد ، وكان حتما أن تخلف هذه التجارب آثارها على نفسية المصريين المحدثين وسلوكهم ، وتشكل أنماطهم الثقافية ، وتحدد شخصيتهم القومية ، ويرى الباحث ـ وهو مغرض فى هذا ـ ، ان المصريين يعانون من عقدتى الخزى والعار · اللذين ولدتهما الهزائم المتكررة · وخضوعهم للسيطرة البريطانية · وقد أدت السيطرة البريطانية ـ كما يرى الباحث المتجرد من كل الموضوعية ـ الى

(7) Harir Dekmejian : Egypt under Nasser. N.Y. Ehate. Uni of N.Y. 1971.

طمس الوضوح الفكرى لدى الصفوة ، واختلاط أحكامهم، ولم يغير جلاء الانجليز من هذا الواقع . فلم يمح شعور المصريين بالخزى والعار ، لان المصريين يعتقدون أن الجلاء الاجنبى قد تحقق من جراء مفاوضات دبلوماسية ولم يحققه نصر عسكرى ، ثم ازداد احساس المصريين بالخزى والعار بعد الهزائم العسكرية المتواصلة من اسرائيل (**) ، ويعطى الباحث لنفسه الحق أن يحدد بعض الملامح والخصائص الاساسية للشخصية العربية بوجه عام والشيخصية المصرية بوجه خاص ، ومن هذه الخصائص النزعة الى المبالغة والانهماك فى الخطب والبيانات بدلا من العمل ، وثمة سمة أخرى هى ظاهرة الارتياب المتبادل ، فكل مصرى يشعر بارتياب من أخيه ويحقد عليه ، ويناصبه العداء ، وكانت النتيجة الحتمية لهاتين السمتين أن فقد الافراد رؤية الواقع ، وشوهت آراؤهم دائما بالمبالغة المستمرة ، وشعورهم بعداء الآخرين ، مما يحطم أية محاولة لخلق روح التضامن والتماسك والكفاءة التنظيمية عند الجماعة . وبذلك تظهر نزعة الانعزال والبحث عن المصالح الذاتية ، وهو ما يصدق حقا على فلاح مصر .

ويرى باحث ثالث هو فير Feur (٨) ، أن القدرية تسيطر سيطرة كاملة على المجتمعات التقليدية ، فالقدرية ظاهرة مشتركة فى جميع المجتمعات القروية سواء أكان هذا المجتمع مصريا أو مكسيكيا أو أندونيسيا . ويتجلى فى الامثال الشعبية الاستسلام للاوضاع الاجتماعية ونكران الذات كما هو الحال فى جميع المجتمعات التقليدية . وتعكس هذه الظاهرة الامثال المصرية القائلة بأن « الصبر طيب » ، « تجرى جرى الوحوش غير رزقك لن تحوش » ، « الله جاب الله خذ » ، « الله يسد

(**) كتب هذا البحث قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

(8) Feur Lewis : The Conflict of Generation. N.Y. Basic Book. 1969 p. 174.

باب ويفتح أبواب » ، « حكم العباد فيما أراد » ، « اللى فيه الخير يقدمه ربنا » ، « اللى ما تقدرش عليه حيل ربنا عليه » ، « اللى ما يخاف من الله خاف منه » ، « اللى يحبه ربه يجيب له حاجته لحده » ، « اللى يجمعه ربنا ما يقدرش يفرقه انسان » ، « اللى يخذله الرب ما ينصروش انسان » ، « المتغطى بالايام عريان » ، « الخيره فيما اختاره الله » ، « العبد فى التفكير والرب فى التدبير » ، « من قال الحمد لله شبع » ، « من يوم ليوم يأتى الله بالفرج القريب » ، « يوضع سره فى أضعف خلقه » ، « المكتوب ما منوش مهروب » ، « الارزاق على الخلاق » ، « الحذر ما يمنعش من قدر » . وهم يعيشون فى خوف ويحكم العلاقات بينهم التدرج الطبقى ، كما يخشى كل منهم الآخر (٩) . وهم يؤمنون بالتواكلية والقناعة والرضا بأوضاعهم الطبقية . وعبرت الامثال عن ذلك « الفقر حشمه » « الجوع كافر » ، « العين بصيرة واليد قصيرة » ، « ما غنى الا الله » ، « تروح فين يا صعلوك بين الملوك » ، « غنى مات جروا الخبر ، فقير مات ما فيش خبر » ، « على قد لحافك مد رجليك » ، « هين قرشك ولا تهين نفسك » (**) .

ولقد وصف جان كوكتو الاديب الفرنسى الشعب المصرى فى الاربعينات بأنه شعب تغلب علية سمة الفوضى ، ويعيش فى مجتمع يعلوه الصياح ويسوده الزحام . والتناقض سمة ثانية من سمات المجتمع المصرى ، فبجانب السيارات الفارهة ، هناك العربات التى تجرها الحيوانات ، ويسير بينها الحفاة . وهناك الترف الممزوج بالبؤس واذا كان الترف يخلو من الاناقة ، فان البؤس يعلن عن نفسه فى كل مكان ، وشعب مصر يحكمه التفاوت الطبقى الشاسع، فهناك طبقة عليا وطبقة دنيا وهى الاكثرية ، ولا توجد بينهما طبقة وسطى ، ان مشكلة مصر الحقيقية

---

(9) Ibid.

(**) هذه الامثال كلها جمعها الباحث ليؤكد ويشرح رأى فير .

هى مشكلة الفوارق الطبقية ، ورغم مشكلة الفقر فالمصريون كرماء ٠

ويصف كوكتو الشعب المصرى بأنه شعب كسول ، يدمن المكيفات ويقول عنه انه خلق للكسل والموت ، ولـذا اختـرع المصريون الموالد والاعياد لئلا يعملوا ٠٠٠٠ والذكاء ليس من حظ الذين يعرفون القراءة والكتابة ، وهناك اللامبـالاة والسلبية ، فالشعب المصرى ليس له رأى سياسى ، وهو يفرق بين سكان القاهرة والاسكندرية ٠ فالقاهرة مدينة الشوارع كل شىء يحدث فى الشوارع أما الاسكندرية فمدينة المنازل فكل شىء يتم فى المنازل ٠

ولكن هل الخصائص والسمات التى أسقطها كوكتو التى تعكس انطباعاته منذ ٣٠ سنة ابتداء من الفوضوية الى التناقض مرورا بالكرم الى السلبية وانتهاء بالكسل وافتقاد الذكاء ، لا زالت هى خصائص المصريين ؟ ٠

وقد وصف الصياد نفسية الشعب المصرى عام ١٩٤٥ (١٠) بأنه شعب مغرم بالغنـاء ، وأغانيه الشعبية تصور ضيـاع هـذا الشعب ، فأغانيه تعبر عن شدة الارتباط بالارض والتعاون والهدوء والاستقرار ، وعدم معرفة الحب الصريح والايمان بالقضاء والقدر ٠

وزعم حامد عمار (١١) أن الشخصية الفهلوية (**) ، هـى نمط

---

(١٠) محمد محمود الصياد : نفسية الشعب المصرى من اغانيه ٠ مجلة علم النفس ، العدد الاول جزء ٢ يونية ١٩٤٥ ٠

(١١) حامد عمار : فى بناء البشر دراسات فى التغير الحضارى والفكرى التربوى ٠ الطبعة الثانية ، القاهرة ٠ دار المعرفة ١٩٦٨ ٠

(**) وصف الدكتور فؤاد زكريا شخصية الفهلـوى أنهـا تحمل معنى مزدوجا ، ففيها معنى الذكاء وسعة الحيلة ، ولكن فيها أيضا معنى =

الشخصية الاجتماعية المصرية التى تألفت عوامل الزمان والمكان وأوضاع الحياة على تشكيلة ، كما أن هناك عوامل تاريخية واقتصادية واجتماعية جعلت من هذه الشخصية رمزا للتكيف السوى الناجح لمواجهة ظروف الحيـاة المصريـة لمختلف المواقف ، وادراك مـا تتطلبه من استجابات مرغوبة والتصرف وفقـا لمقتضياتها الى الحد الذى يراه مناسبا ٠ وسرعة المصرى على التكيف السريع تتميز بجانبين متلازمين ، أحدهما المرونـة والفطنة والقابلية للهضم والتمثيل الجيد ، والجانب الآخر هو المسايرة والسطحية والمجاملة العابرة ، وتتميز هذه الشخصية الفهلوية ، بالنكتة والسخرية وتأكيد الذات والاحساس المفرط بالكرامة والتهكم وتجريح الغـير ، وهى الوجه الآخر للبراعة والحذق ٠ وتبدو مظاهر كل منهما حسب طبيعة المواقف الاجتماعية ٠

ومن وجهة نظر عمار فالشخصية الفهلوية وبالتالى الشخصية المصرية لا تنظر الى السلطة و الرئاسة على أنهـا ضرورة من ضرورات التنظيم يتطلبها توزيع المسئوليات وتحمـل الاعبـاء فـى التنظيم الاجتماعـى والادارى ، بل ينظر اليها باعتبارها قوة قاهرة يخضع لهـا المرء خضوعا مطلقا خوفا ورهبة ، والمودة بينه وبينها أمر مفقود ٠

والفهلوى كما يتخيله حامد عمار انسان قـادر على الهـروب من المسئولية والقـاء تبعاتها على الآخرين وتزداد الفهلوة بازدياد القدرة على الهروب من المسئولية واسقاط المسئولية على الآخرين ٠ وهو يسعى فى عمله دائما الى الثواب والمكافأة أو لغرض نفعى لا حبـا فى العمل ٠

= المخادعة والبحث عن حلول للمشاكل بأسهل الطرق الممكنة ٠ فمن طبيعة الفهلوى أنه غير مكافح لا يبـذل جهدا ويلجـأ الى التحايل والاساليب الماكرة ٠ بدلا من أن يلجأ الى طرق شريفة ٠٠٠ ولا شك ان الاعجاب بهذه الشخصية علامـة من علامات الاختلال فى المجتمع وشكل من أشكال رد الفعل السلبى ٠ الاهرام ١٩٨١/٢/٢١ ٠

وهو أبعد الناس عن العمل الجماعى ، فهو يؤمن بالعمل الفردى وكل ما هو فردى • وهو يؤمن بالوصـول الى الهـدف بأسرع وأقصر وسيلة ، « والغاية تبررها الوسيلة عنده » • وفى سبيل ذلك قد يقدم على الامور الصعبة • ويستهين بالعقبات ويتخطى الحواجز • ورغم ذلك فالفلاح غير صبور وغير مثابر ، وغير قـادر على تحمل المعانـاة ولذا شـاع بين المصريين « علشان قرش ملح بوظ الطبخـة » •

وقد كتب بيير الباحث اليهودى (١٢) بروح أقرب الى الموضوعية مقاله « الخضوع والثورة عند الفلاح » محاولا أن يبين أنه من الخطأ أن نعمم أن الفلاح المصرى انسـان خنـوع مستسلم ، رافضـا رأى بعض الباحثين أن خضوع الفلاح المصرى يعد أحد الظواهر الاجتماعية الاساسية فى مصر ، وان تلك السمة النفسية يعكسها خضوع الفـلاح للقـدر ، وتواضعه أمام الذين يمسكون بزمام السلطة ، وضعف روح التمـرد عنـده ، وكانت كتابات بيير رد فعـل لكتابات كثيرة وصفت الفـلاح المصرى بالسلبية والخضوع • وقد ادعى بيوت بيك مثلا فى تقريره أن عادة الخضوع عند الفلاح المصرى ، عميقـة الجذور ، وهو يفضل الموت على الثورة • ولقد صنعت مئات السنين من الاضطهاد والظلم والمعاناة من الفلاح المصرى انسانا مرتابا فاقد الثقـة ، كما جعلت الخضوع جـزءا من طبيعته •

وكان الاب عيروط قد وصف الفلاح المصرى (١٣) •• فى كتابه مؤكدا أن الشعب المصرى شعب انفعالى دؤوب ، ويعمل طوال العـام لا يتعطل عن العمل• ولكنه فى الوقت نفسه كسول وسلبى • والارض هى

(12) Baer Gabriel : Studies in the social History of Modern Egypt : chicago. The Uni of chicago press 1969.

(١٣) عيروط اليسوعى : الفلاحون • ترجمة محمد غـلاب • القاهرة مطبعة كوثر ١٩٤٣ •

التى تملك الرجل وهى التى تطعمه وتأويه ، والفلاح المصرى محافظ بجامد يحيا نفس الحياة التى كان يحياها أجداده منذ مئات السنين ، ويسكن نفس المسكن الذى كان يسكنه الاجداد الاولون وهذا الفلاح لا يبتكر ولا يخترع ولا يبدع والتغييرات التى طرأت على الآلة ليست من صنعه ولا من اعتمال ذهنه بل فرضت عليه ٠ وزعم الاب عيروط أن الفلاحين شعب ضمر ذكائه ولا يجيد الا التقليد والمحاكاة ٠ ووصف الفلاح المصرى بأنه واسع الحيلة قادر على الخداع كتوم يعرف كيف يخفى أفراحه وأحزانه ، ويعيش لحظته ويفتقد النظرة المستقبلية ولا يبالى بالعواقب ولا يفكر فى الغد ، بل أن الحاضر شغله الشاغل وكل سعادته وقتية ٠

وقد فسر الاب عيروط روح التعاون بين الفلاحين التى تتجلى فى المناسبات الاجتماعية والعمل فى الحقول ، بأنها ترجع الى قصور امكانيات الفلاحين ، وما التعاون الا مظهر للتغلب على الامكانيات المحدودة ٠

والفلاح المصرى صبور ، وصبره من نوع فريد ، والامثال العامية الشائعة تؤيد هذه الخاصية عند المصريين مثل « طول البال تهد الجبال » ، هو صبور ومستسلم ولكثرة ما اعتاد على الخضوع يرتكز صبره على الايمان المطلق بالله ٠

رفض بيير (١٤) هذه الخصائص القومية السلبية التى تسقط الفلاح المصرى ، وقال انه بقدر معلوماتنا فاننا لا نملك الدليل على الدعوى القائلة « بأن سمة أى شعب باكمله أوسمة طبقة بعينها ، يمكن أن تتوارث من جيل الى آخر » ٠ كما يمكن أن نبرهن بطبيعة الحال على أن

(14) Baer, Gabriel. Studies in the social History of Modern Egypt. op, cit.

أحوال مصر الاساسية قد أعادت خلق نفس السمة عنـد الفـلاح أثناء مجرى التاريخ · والمشكلة الاساسية الوحيدة على اقامة هذه الدعوى ، هى أن الوقائع أثبتت العكس · حقيقة أن الاوضاع السائدة فى مصر مثل الارض المسطحة ، والسهولة النسبية للاتصال ، واعتمـاد الفـلاح على الحكومة المركزية قد جعلت من العسير على الفـلاح أن يثور ، ولكن لنفس الاسباب ، فان ثورة عدد صغير من الفلاحين وان فشلت ، لدليل قاطع على نفى هذه السمة ، وان الخضوع ليس سمة طبيعية متجسدة فى التكوين النفسى للفلاح المصرى ، وبذلك فهو انسان قادر على التمرد ، ولـما كان عدد مرات التمرد ليس صغيرا على الاطلاق فانه يبدو أن النظرية القائلة بخضوع الفلاح المصرى لا تقوم على أى أساس · وقد أشار بيـير الى عدد من الوقائع تؤكد أن التاريخ المصرى مملوء بالاحداث التى تكشف عن تمـرد الفلاحين خلال قرنين من الزمان ·

وقد ضرب بيـير أمثلة لثورات الشعب المصرى وثورات وانتفاضات الفلاحين وأرجعها الى نظام القرعة العسكرية وجبى الضرائب ، ومصادرة الارض والحيوان ، وخفض الاجـور ورفع الايجـارات ، وبعض هـذه الثورات أخمدتها الحكومة مستعينة بقوة الجيش ، وأكثرها حدث فى مصر العليا بعيدا عن العاصمة، وبعض الثورات كانت بالقرب من العاصمة فى الجيزة والمنوفية والشرقية ·

وكانت ثورات الفلاحين محلية ذات طابع اقليمـى ومطلب طبقى باستثناء ثورة ١٩ ، ولا يرجع هذا الى الخصائص النفسية للفلاح ، بل الى الطبيعة الانعزالية للريف المصرى ، وقلة الاتصال بين القرويين ·

وبعـد أن عـرض بيـير لنماذج تؤكد لثورات الفلاح ، حاول أن يبرر فى الوقت نفسه لـماذا يتهم الفلاح المصرى بأنه خنـوع ومستسلم ويخضع دائمـا للسلطة ، يرى بيـير أن الفلاح المصرى ، مثل أى فلاح فى جميع أنحـاء العالم ــ باعتبار أن القروية ظاهرة عالمية ــ ، لا يعيش فى حالة

ثورة مستمرة ، فهناك فترات طويلة فى التاريخ ، تظهر استسلام الفلاحين لاوضاعهم ، كما أن وصف الفلاح بالخنوع والاستسلام يعبر عن انطباعات سريعة الزوال ، قد تصدق فى اللحظة التى صدرت فيها ، وتعكس انطباعات ذاتية ، اذ لم يبين لنا أى باحث كيف قاس سمة من هذا النوع ، ومدى الشعور بالذل والمهانة والظلم فى ظل الظروف الموضوعية التى يعيشها المجتمع المصرى ، وما الذى يجعل الفلاح مستسلما ؟

ولقد سبق لويس عوض بيير فى عرض تاريخ الانفجارات القوية فى مصر واليه يرجع الفضل فى شجب وصف المصريين بالخنوع والاستسلام ، عندما بين أن ثورات المصريين كانت لا تنقطع فى فترات عديدة (١٥) ، وأن العصر المملوكى لم يكن عصر خمول بل كان مملوءا بالانفجارات والانتفاضات القومية ، ولكن ثورات الفلاحين غير ثورات أهل المدن · وتلك حالة طبيعية فى مجتمع ينعزل فيه الريف عن الحضر ، وكانت ثورات الفلاحين خالية من الايديولوجية الدينية ـ ولقد استشهد لويس بما كتبه الجبرتى عن أحداث الشغب والاضطرابات التى حدثت أيام الحملةالفرنسية، اما بسبب قطع رواتبهمأو بسببقتل بعضالمواطنين من أهل البلد بيد الجنود الفرنسيين · وكانت هذه الاضطرابات محدودة الحجم والنتائج · وقد بين لويس عوض أن الازهر كان طوال هذه الفترة هو ملاذ المظلومين ونقطة تجمع أكثر حركات الاحتجاج على الظلم (١٦) ·

تبين لنا كتابات بيير ولويس عوض أن الاستسلام والاستكانة والهدوء ليسوا من طباع المصريين ، واذا كان هناك هدوء فهو الهدوء الذى يسبق العاصفة، وأن تاريخ مصر مملوء بالانتفاضات وكبواتها وهذه

---

(١٥) لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، دار الهلال · كتاب الهلال ١٩٦٩ ، ص ١٠ ·

(١٦) نفس المرجع ، ص ٦٣ ·

الكبوات ترجع الى خلو هذه الثورات من المضمون الفكرى لا الى استسلام الشعب ٠

خاصية أخرى أكدها فريق بحث اعادة بناء الانسان المصرى ، هى أن الشعب المصرى شعب صبور ، فالصبر نمط سلوك يتكرر فى الحياة الاجتماعية وسمة أساسية تشكل الشخصية المصرية ، وهو أشد القيم رسوخا فى تكوين ضمير الانسان المصرى وأكثر القيم تأثيرا على حياة المصريين ، وتوجيها لسلوكهم وعلاقاتهم وتصرفاتهم ٠ والصبر كقيمة اجتماعية يعمل على تجانس الشعب المصرى حتى تصبح الحياة مقبولة ومحتملة (١٧) ٠ ويعمل فى الوقت نفسه كوسيلة للتكيف وأسلوب لتحقيق الهدف ، وعنصر من عناصر الضبط الاجتماعى ليضمن استقرار المجتمع ، وهو نمط لسلوك مقبول اجتماعيا عند المصريين ٠ والصبر محصلة تاريخ مصر الطويل الغنى بالازمات والمحن ، التى سببها الموقع وطبيعة الارض ، كما أنه يعكس حال مجتمع يعتمد فى قوت يومه على الزراعة ٠

والصبر قيمة اجتماعية مقبولة ومرغوبة عند أغلبية المصريين ، والتراث الشعبى والادب الشعبى مملوء بالامثال التى تبين أن أكثر المصريين يؤمنون بالصبر ، مثل « الصبر خير » ، « والصبر طيب بس اللى يرضى به » ، « الصبر مفتاح الفرج » ، « وصبرى على خلى ولا عدمه » ، « وصبرى على نفسى ولا صبر الناس على » (١٨) ، « ان صبرتم نلتم وأمر الله نافذ » ٠

---

(١٧) جامعة الاسكندرية : أبحاث اعادة بناء الانسان المصرى ٠ « التقرير الثالث » ٠

(١٨) أحمد تيمور : الامثال العامية ٠ الطبعة الثالثة ٠ القاهرة ٠ حرف الصادر ص ٥١ ٠

وترتبط هذا الامثال مع أمثال أخرى كثيرة بعدد من القيم والمعايير الاجتماعية مثل التحكم والمثابرة وضبط النفس والحلم والشجاعة عدم التواكل والرضا والتسامح. والصبر يلعب دورا كبير فى شبكة العلاقات الاجتماعية ، ويمثل قيمة بنائية أساسية ويلعب دورا فى تأكيد وتدعيم العلاقات الاجتماعية فى كافة مجالات النشاط ابتداء من الاسرة مرورا بالجيرة والعمل ٠ وانتهاء بعلاقة الانسان بالخالق ، باعتبار أن كل شىء منظم ومدبر فى الكون ، وان هناك قوى غير منظورة تعمل من أجل صالحه٠

فالصبر خاصية من الخصائص القومية عند المصريين يقوم بوظيفة اجتماعية من خلال معناه الدينى ، لان الدين حض على الصبر ، (وبشر الصابرين) ، (واستعينوا بالصبر والصلاة) ٠ والانسان الصابر مؤمن بربه ، يلجأ اليه اذا ابتلى بفاجعة أو مصيبة مستعينا به ٠

وترتبط قيمة الصبر بتصور المجتمع المصرى لنموذج الانسان المصرى الصابر ، فالصبر يعمل على تجانس الافراد ، ويحدد ما يجب أن يكون عليه سلوك الفرد وسلوك الجماعة فى المواقف التى تتصف بالتوتر والخطر ٠

وبعد أن استعرضنا هذه الخصائص التى يوصف بها المصريون ، نجد أنها متناقضة وتفتقد أى تفسير متكامل عن المصريين ، ولا تعطى صورة متكاملة ، فالدارسون والادباء قد خلعوا على المصريين سمات متباينة متناقضة لا تعدو الا أن تكون فروضا قال بها أفراد ، وهى فروض تتطلب الترجمة ، أى التحول من الرأى النظرى الانطباعى الى التجريب والاختبار ، وهذه الدراسات التى اهتمت بالخصائص القومية المصرية مثلها مثل دراسات كثيرة أجريت فى مناطق عديدة فى العالم عن الخصائص القومية لا تعدو الا أن تكون انطباعات ذاتية أو تأملات مكتبية تعكس آراء أصحابها ، ولا تزيد عن كونها مجرد دراسات نظرية تأملية لا

لا تستند على قواعد المنهج العلمى ، وتفتقد التحليلات الكمية والكيفية التى تستند الى مؤشرات واضحة بينة موثوق فيها ٠

ولكن تلك مرحلة مضت ، اذ ما أن أرسيت قواعد المنهج العلمى حتى أدرك الباحثون فى الفروق القومية بين صور الشخصيات أهمية اتباع خطوات المنهج العلمى الدقيق فى الدراسة ، وضرورة تقصى الاسباب التى تؤدى الى التباين والتضاد فى الخصائص القومية والاجتماعية ، وهل ترجع الفروق التى تحدد الطابع القومى للشخصية الى العوامل البيئية الاجتماعية وحدها ، أم الى العوامل الجغرافية وحدها أم الى الخصائص النفسية والدافعية وحدها أم الى خصائص فيزيقية فطرية ٠ أم الى كل هذه العوامل مجتمعة ٠

المفهـــــومات :

ولكن ما الشخصية القومية ؟ وكيف نعرفها ؟ وهل هى مجرد تراكمات قومية متوارثة ؟ وهل هى جامدة أم متغيرة ؟ هناك عدة تعريفات تعبر عن المداخل المختلفة فى دراسة الشخصية القومية ، ولا يعنى تعدد التعريفات أنها جميعا تافهة ،عديمة القيمة ، بقدر ما يعنى أن كل تعريف يعبر عن طبيعة مجال هذه الظاهرة التى تدرس فى محتوى اجتماعى معين ، ومن منظور خاص ٠

وسنعرض لمجموعة من الآراء السائدة حول تعريف مفهوم الشخصية القومية ؟ ولقد أدلى كثيرون بتعريفات عديدة فى هذا الموضوع ، ويعد المنشور منها بالمئات وكل باحث له تعريفه الخاص كما يكشف ذلك مراجعة تلك التعريفات باستمرار ، ولا ريب أن كل تعريف من هذه التعريفات لا يعرف الا أن يكون تعريفا مقبولا وملائما لمنهج الدراسة عند بعض الباحثين ، بيد أن هذا لا يحدو بنا الى انكار أهمية التعريف فى البحث الاجتماعى ، فالتعريف أداة فى البحث الاجتماعى ذات أهمية لنا ،

لانه يحدد طبيعة الظواهر التى ندرسها وموضوعها كما يحدد منهاج البحث ، وسعيا وراء تحديد الاتجاهات الرئيسية لهذه التعريفات وتفسيرها ، نقدم لعينات ممثلة من التعريفات السائدة ، وما قد يوجه اليها من نقد ، وبهذا نعرض ونحلل من خلالها المدارس الرئيسية التى تهتم بهذا الموضوع •

١ - تشير الشخصية القومية الى سمات وخصائص نفسية معينة تميز المواطن فى شعب معين (١٩) •

يعنى الالتزام بهذا التعريف مثلا وصف الشعب العربى بالكرم والمسالمة ووصف الشعب الجزائرى بالثورية واليهود بالبخل ، ووصف الشعب الانجليزى بالبرود، ويتضمن هذا التعريف الافتراضات التالية ، ان كل الناس الذين ينتمون الى دولة معينة متماثلون فيما بينهم فى بعض المظاهر الثانوية ، وبذلك يتميزون عن غيرهم باعتبارهم أعضاء مجتمع معين •

وهذا التعريف النفسى البسيط يعكس المفهوم الشائع العامى والساذج عن الشخصية القومية ، وهو تعبير شائع فى المقالات الادبية فى العصور الحديثة والقديمة • بيد أنه من العدل أن نقول أنه تعريف كان مقبولا قبل تقدم العلوم الاجتماعية الحديثة عامة ، وقبل التطورات التى طرأت على علم الاجتماع والانثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس ، اذ كنا نفتقد التعريفات التصورية الملائمة لوصف الفروق فى السلوك والاتجاهات بين الشعوب التى ينبهر بها الملاحظ الدقيق ، فحتى وقت حديث نسبيا ، كان على الرحالة والمؤرخين والادباء أن يسجلوا ملاحظاتهم بقدر ما يستطيعون دون الاعتماد على أية نظرية علمية •

(19) Duijnker, H. C. : National character and National Stereotypes : B. Y. H. C. Duijnker and N. H. Frijda. North Holand pub. Amesterdem. 1960 p. 12.

ومن ثم فمن المقبول أن يكون هذا التعريف العامى البسيط عن الشخصية القومية هوأقدم التعريفات بل يستمد رسوخه من قدمه ونحن لا نستطيع أن ننكر أن هذا التعريف على مستوى معين من البصيرة والصدق ، ولكن أساسه المنهجى واه ، كما أن علم النفس الحديث يرى أن هذا المفهوم يعبر عن قضايا أو فروض لا عن أحكام يقينية ، حقا ان هذا التعريف يصير هدفا سهلا للنقد بما تضمن من تعدد السمات والاستخدام غير المحدد للمفهومات التى على درجات مختلفة من التجريد ، وعدم الاعتماد اعتمادا كافيا على أساس تجريبى والتعميم المطلق بلا حذر • ولقد كشف لنا تطبيق اختبارات الشخصية داخل كل شعب وجود فروق بين الافراد قابلة للقياس فى كل جانب من جوانب الحياة ، فى حين أن الكثير من هذه الدراسات التى قامت على هذا التعريف تظهر تماثلا ازاء الانماط الجامدة السائدة • فالمفردات اللغوية المستخدمة محدودة وتتضمن أحكاما للقيمة من أنواع مختلفة ، وهذا يجعلنا على حذر منها • كما أن ما يشاهده الباحث ويستحق منه التسجيل ، انما يحدده اطار مرجع الباحث نفسه ، الذى يتأثر بتاريخه الشخصى وبيئته الاصلية الثقافية •

مقابل هذا التعريف الذى يسقط الخصائص النفسية على الشخصية القومية حدد لنا انكلز المعانى المختلفة للشخصية القومية (٢٠) ، فهى تشير مرة الى مجموعة الخصائص وأنماط الشخصية الثابتة والشائعة والظاهرة بين أعضاء المجتمع من الكبار ، ومرة ثانية تدل على طباع الشعب ومرة ثالثة على تقاليد الشعب ، ومرة رابعة تدل على نفسية الشعوب • كما تدرس الشخصية القومية باعتبارها المجموعة الكلية

(20) Inkles, Alex. : National character and Modern political systems. In Hsu : psychological Anthropology. New edition Camridge Massachusets, Schenk man. pub. 1972. p. 203.

للقيم والنظم والتقاليد الثقافية وأساليب الفعل التى تعبر عن تاريخ الشعوب ٠

كذلك صنف لنا كلينهرج وهرز أنواع التعريفات الاساسية للشخصية القومية على النحو الآتى (٢١) :

التعريف الاول : الشخصية القومية نمط تنظيم

وهذا التعريف أكثر شيوعا بين علماء السياسة ، وتعكس الشخصية القومية النظم القومية السائدة أو الشائعة أو الممثلة وخاصة تلك التى تهتم بالسياسة والاقتصاد ٠ بيد أن الاختيار بين النظم السائدة فى مقابل النظم الشائعة أو الممثلة كأساس لتحديد الدولة أمر صعب ٠ مما أدى الى خلط كبير فى تلك الدراسات التى لم تحدد تحديدا قاطعا أو تقتدى بهذا التحديد ٠

التعريف الثانى : الشخصية القومية موضوع ثقافى :

ويعطى هذا التعريف تأكيدا أساسيا الى الاسرة والصداقة والمجتمع المحلى والقيم والاتجاهات وفلسفة الحياة والدين مغفلا النظم السياسية والاقتصادية ٠ والافكار دائما تختار باعتبارها متداخلة أو تغرس فى المجالات الاجتماعية ٠ وهذا التداخل أكثر شيوعا بين الانثربولوجيين ، وفى الوقت نفسه بين المؤرخين وعلماء السياسة والكتاب الذين يتحدثون عن روح الشعب والنظرة العالمية وأساليب الحياة ومثل تلك الافكار ٠

التعريف الثالث : الشخصية القومية سلوك

يعطى هذا المدخل تأكيدا أكيدا للسلوك ونتائجه مع الاهتمام بصفة

---

(12) Ibid. pp. 203 - 204.

خاصة بالتأثير السياسى والاقتصادى ٠ وترى هذه النظرة أن الانماط التنظيمية الرسمية والمعايير الشائعة ليست بالادلة التى يوثق فيها لفهم الشخصية القومية ، ويؤكد الذين تبنوا هذا الاتجاه على تاريخ الشعوب والمجتمعات ٠ وعلى هذا الاساس يمكن أن نصنف الشعوب الى شعوب محبة للسلام ، والى شعوب منتجة أو شعوب كسولة ، والى شعوب متقدمة أو متأخرة ، والى شعوب أمينة أو مخادعة ، والى شعوب برجماتية صناعية أو مثالية غير عملية ٠

التعريف الرابع : الشخصية القومية مركب توفيقى

يعطى هذا التعريف تأكيدا على المظاهر المختلفة للمجتمع والثقافة بما فى ذلك الانماط التنظيمية والافكار والسلوك ، باعتبارها تعبيرات لحقيقة أساسية تحكم العلاقات الشخصية فى كل ثقافة ٠

التعريف الخامس : الشخصية القومية تعبر عن نفسية الشعوب

يعتبر المدخل الذى يربط الشخصية القومية بمجموعة من الخصائص النظرية والبيولوجية للجماعة من أقدم المداخل ، وأكثرها شيوعا ، ولكنه كان أكثر المداخل التى تعرضت للنقد فى العلوم الاجتماعية الحديثة ، بل أكثرها استهجانا ، ويرتبط هذا المدخل بالسلالات ٠ ولكن هناك اتفاقا عاما على أن الخصائص البيولوجية عند السكان القوميين لا تأثير لها على تشكيل النظم الثقافية وسلوك السكان ٠

٢ ــ الشخصية القومية هى شخصية منوالية

تتضمن سمات الافراد الاكثر ثباتا والانماط السائدة بين الكبار فى

(22) Duijnker : National character and National stereotypes Op. Cit. p. 41.

المجتمع(٢٢)٠ ويتضمن هذا التعريف تصنيف خصائص أو أبنية الشخصيات في مجتمع ما وتعرف الفئة التي تضم العدد الاكبر من الاعضاء الكبار في المجتمع باعتبارها تعبر عن الشخصية المنوالية ٠ وهكذا ترتبط الشخصية القومية بمدى تكرار توزيع أنماط الشخصية داخل أى مجتمع ، ولا يميز نمط الشخصية مجتمعا عن آخر ، بل أن التكرار النسبى لهذا النمط هو الذى يميز المجتمع اذا ما قورن بالمجتمعات الاخرى ، وقد أوضح لنتون نقطة هامة فى هذا الصدد مؤداها أن كل بناء للشخصية يحتمل أن يكون موجودا فى كل دولة ٠ ولكنه قد يكون شائعا أو سائدا وغالبا فى دولة ما ، ونادرا فى دولة أخرى، ومن ثم فالشخصية المنوالية هى الشخصية القومية السائدة فى دولة ما (٢٣) ٠

ولقد رفض الكس انكلز مفهوم الشخصية القومية (٢٤) واستبدل به مفهوم الشخصية المنوالية نتيجة الاعتقاد بأن النتائج الامبريقية قد تنتهى بنا الى قضية التعميم وهو ما يرفضه ، كما أن الدراسة المنهاجية للشخصية القومية باعتبارها موضوعا للبحث العلمى تقودنا الى طريق مسدود ، ولقد بين انكلز صعوبة تطبيق مفهوم جورر عن الشخصية القومية فى المجتمعات سريعة التغير ، اذ أن نموذج جورر يتطلب التوضيح والتفسير لكى نفهم الشخصية القومية كما تظهر فى ظروف التغير ، كما بين استحالة وجود نمط عام للشخصية يشترك فيه أكثر من نموذج ـ فلكل نموذج سماته الخاصة به المشتركة بين أفراده ٠ ولكن الامر فى النهاية لا يخلو من وجود سمات مشتركة بين هذه النماذج ٠ وهو يرى أن الدراسات التى اهتمت بالشخصية النموذجية تعانى عيوبا كثيرة ٠ وهذه العيوب تجعل هذه الدراسات عقيمة ، وتجعل منها برهانا ضعيفا عاجزا عن تدعيم أية نظرية ٠

(23) Ibid. p. 15.

(24) Inkles, Alex. : National character and Modern Political systems. Op. Cit.

وهذه العيـوب هـى :

أولا : أنها لم تجر اختبارات لاى نظرية ، أو اثبـات أى نموذج مصاغ ولكنها تقوم على عينات صغيرة مختارة عشوائيا، ومن الصعب تعميم نتائجها بثقة ٠

ثانيا : يتـم التحليل على العينة كلها بلا تفرقة بين الخصائص الفردية داخـل العينـة ٠

ثالثا : يتم وصف الشخصية عادة وفق مفاهيم نفسية اكلينيكية يصعب ربطها بالبناء الاجتماعى ٠

وبعد أن نقد انكلز الاتجاه التقليدى فى الدراسات المهتمة بالشخصية القومية بين أن الشخصية المنوالية تشير الى مجموعة من خصائص وأنماط الشخصية الثابتة والشائعة والظاهرة بين أعضاء المجتمع من الكبار ٠ وهو يرى أن النظر الى الشخصية باعتبارها المجموعة الكلية للقيم والنظم والتقاليد الثقافية وأساليب الفعل التى تعبـر عن تاريـخ الشعب رؤية تفتقد التحليل العلمـى ٠٠٠ ولـذا رفض الاتجـاه التقليدى لدراسـة الشخصية القومية وقبل الشخصية المنوالية ٠ باعتبارها تعبر عن ظاهرة تخضع للتجريب ولهـا دلالـة امبريقيـة ، يمكن أن تدرس باسـتمرار باستخدام مقاييس موثوق فيها وطرق بحث صادقة تشير الى مجموعة من خصائص وأنماط الشخصية الثابتة والشائعة والظاهرة بـين أعضـاء المجتمع (٢٥) ٠

ولا يعنى التوزيع التكرارى لانماط الشخصية وجود منوال واحد ولكنه يعنى تعدد الشخصية المنوالية، ويترتب على ذلك وجود شخصيات

(25) Ankels, Alex. : National character and Modern political systems. Opcit.

منوالية كثيرة وعديدة عن الشعب الواحد (٢٦) ٠

وتعنى فكـرة الشخصية المنواليـة انحـرافا أساسيا عن مفهـوم الشخصية القومية الشائع ، ويبدو التباين كبيرا بين المفهومين حتى ان الامـر يصل بنـا الى درجة الشك والارتياب فيما اذا كان هناك تبرير لتأكيد استخدام مفهوم الشخصية القومية ، اذ تدل الشخصية القومية فى معناها التقليدى على الصورة العامة عند كل السكان الوطنيين ، أما الشخصية المنوالية فتشير الى الصورة المميزة احصائيا لفئة معينـة من السكان الوطنيين تلك الصورة التى تميزهم عن الجماعات الاخرى عند الشعب نفسه ، ومن ثم فاذا ما تقبلنا فكرة تعدد وتكرار الشخصيات المنواليـة ، وتكرار توزيع هذه الشخصيات اختفى الارتباط بين المفهوم الاصلى للشخصية القومية والشخصية المنوالية ، اذ أن توزيع الشخصيات المنوالية هذا فى شعب ما وتكرار سمات مشتركة بين هذه الشخصيات المنوالية هو ما يدل على اختفاء الشخصية القومية لهذا الشعب ٠

ويرى ديوجنكر أنه رغم تعدد الشخصيات المنوالية ، فهذا لا يعنى انكار أن مفهوم الشخصية المنوالية مفيد فى كشف الفروق بين مختلف الشعوب فتوزيع الشخصيات المنواليـة فى شعب مـا ، والفروق فـى التجانس ، ومدى سيطرة شخصيات منوالية معينـة يساهم قطعا فـى فهمنا للعلاقات بين مختلف المجموعات فى شعب معين والعلاقات بـين الشعوب بعضها وبعض٠ ورغم ذلك فهذا المفهوم يحمل بين طياته كثيرا من الاعتراضات التى تدينه ، رغم أنه يعبر عن مرحلة متقدمة ومتميزة بالنسبة لمرحلة الوصف التعميمى عند الادباء والرحالة ، وأنه يقدم لنا أساسـا للدراسات المرجوة فى المستقبل ٠

(26) Duijnker : National character & National stereotypes Opcit. p. 15.

وعلينا أن نعترف عند التطبيق أن هذه الدراسات تواجه صعوبات كثيرة وعسيرة وقوية ، فمفهوم الشخصية المنوالية فى أساسه مفهوم احصائى ويحدد لنا تكرار التوزيعات المنوالية ، ويعتمد الصدق واليقين على صدق أساليب القياس النفسى • ورغم أن ما يجمع تحت مفهوم الشخصية المنوالية له أهمية نفسية ، وملائم من الناحية الاجتماعية ، فالمشكلة هى أن كل مقياس يقدم لنا شخصية منوالية معينة ، ومن ثم يصعب علينا تحديد المقاييس أو الابعاد التى سنختار على أساسها التعريف الاجرائى للشخصية المنوالية •

ورغم ما أشار اليه انكلز وليفنستون من افتقادنا الى نظرية ثابتة عن الشخصية ، فان علينا فى تلك الآونة أن نحدد اطارا تصوريا يجعل من الممكن توحد مظاهر الشخصية مع هذه المعايير ، وعلينا أن نخطو خطوة فى البحث لقياس مظاهر الشخصية التى تبدو وأنها ذات أهمية عامة ، وتقبل القياس فى الوقت نفسه • ولما كان المنوال دالة على الابعاد التى ندرسها ، ووظيفة لاداة القياس ، فان النتائج التى نحصل عليها دائما موضع شك • والمشكلة الاساسية فى دراسة الشخصية المنوالية هى هل كل ما يخضع للقياس حقيقة ذات أهمية نفسية ؟ • وعلى كل فان تحليل الدراسات يوصلنا الى النتائج التالية •

(أ) يبدو أن ثمة شيئا ما مثل الشخصية المنوالية موجود •

(ب) واذا ما أخذنا فى الاعتبار التباين الكبير بين السكان فثمة شك فيما اذا كانت الشخصية المنوالية تمثل حقيقة جانبا هاما من الشخصية الكلية أم لا •

(ج) تظهر الدراسة المقارنة أن مقياس كل سمة يتداخل الى حد كبير مع مقاييس السمات الاخرى • ويعنى التباين فى الشخصية المنوالية الفروق فى التفوق النسبى لنزعات معينة والفروق التدريجية بين

السمات بدلا من وجود فروق واضحة محددة المعالم بين هـذه السمات ٠

٣ ـ بنـاء الشخصية الاسـاسية :

لقد استبدل كاردنير بمفهـوم الشخصية القوميـة مفهـوم بنـاء الشخصية الاساسية٠ واذا ما تساءل المـرء هل هنـاك فرق بين بنـاء الشخصية الاساسية والشخصية المنوالية ٠ يجد أن التعريفين متقاربان الى حد مـا (٢٧) ٠ ولكن مدخل دراسة كل منهما مختلف ٠ فبينما يؤكد مفهوم بنـاء الشخصية الاساسية على الثقافة تدل الشخصية المنواليـة على الطبقة الاجتماعية أو الجماعة أو قطاع اجتماعى معين ٠ ويرى كاردنير أن ثمة تماثلا فى بناء الشخصية الاساسية يكفله الاشتراك فى الثقافة الواحدة المتكاملة الى جانب المؤثرات الثقافية الاساسية المحددة ، مثل تركيب الاسرة وأساليب التنشئة فى الطفولة المبكرة ٠

ويرجع مفهوم بنـاء الشخصية الاسـاسية الى كاردنـير ، الذى اعتبره أداة اجرائية فى العلوم الاجتماعية (٢٨) ، وتتجلى فائدة هـذا المفهـوم عند دراسة المجتمعـات المحلية والثقافـات سواء المتحضرة أو الريفية ٠ ويساعدنا هذا المفهوم أيضا على فهم أوجه الاختلاف بين هذه المجتمعات وأسباب ذلك ، وكان مدخل كاردنير الى مفهوم بنـاء الشخصية الاساسية هو الانثروبولوجيا النفسية ٠

---

(27) Duijnker : Ibid.

(28) Kardiner Abram. The Concept of Basic personality structure as an Operational Tool In the Social sciences. In the science of Man in the world Crises. By Ralf Linton - " 2 printing N. Y. Colombia Une Press. 1960.

راجع محمد سعيد فرح : الشخصية القومية حقيقة أم وهم ٠ جامعـة المنيا مجلة كلية الآداب بدون تاريخ ٠

ويهدف بنــاء الشخصية الاساسية لكاردنير تحقيق التكامل بين علــم النفس والانثروبولوجيــا الــذى أصبــح ممكنــا بعــد أن هجــر الانثروبولوجيون الافتراضات التطورية التى تشكل الشخصية ، كمــا بين لنا كيف تؤثر هذه العوامل فى الشخص ويظهر الدوافع التى تؤثر على تكيف الشخصية أو عدم تكيفها ويوضح مدى الارتباط بين الثقافة والشخصية ٠

هذا المدخــل فى دراســة الشخصية يقترب من الانثروبولوجيا النفسية ، ويقوم على حقيقة مؤداها أن التعلم المباشر هو وسيلة انتقال الثقافة من جيل الى جيل داخل المجتمع ،بيد أن معرفتنا بعملية التثقيف وعملية الانتشار الثقافى يظهران لنا أن هناك حدا يحد من التعلم المباشر للثقافة ، ونحن اذا كنا لا نستطيع أن ننكر دور التعلم المباشر فى انتقال الثقافة ٠ الا أن هذا الانتقال المباشر يتوقف على عمر الفرد ،٠ويخضع للتغير الثقافى ٠ لكننا لا نستطيع أن نغفل قدرات الافــراد عند شعب معين على انتقــاء ما يرفضونه وما يقبلونه من عناصر الثقافة السائدة التى ينشئون عليها ٠ ومن ثم فعملية التعلم المباشر وحدها ليست وحدها كافية لتيسير انتقال الثقافة٠ كما أنه من الاصعب أن نفهم كيف تتغير الثقافة دون استعارة عناصر ثقافية خارجية ، ودون انتشار الثقافات ، وهذا كله يدفع بنا الى القول بأن عمليــة التعلم المبــاشر لا تفسر لنــا الطابع التكاملى للعقل الانسانى ، اذا ما أعطينا قدرا من الاهتمام لدراسة العلاقات العاطفية للافراد مع البيئة ٠ ولهــذا فهنــاك عنصر آخر غــير التعلم يستطيع علم النفس أن يلقى عليه أضواء كثيرة فبجانب عملية التعلم المباشر هناك عملية التعلم اللامباشر ، وتؤلف هذه العمليات معا مجموعة معقدة من الانساق التكاملية وتعرف هــذه المجموعة المعقــدة المتكاملة باسم بنــاء الشخصية الاساسية ٠

بيد أن معرفة التباين بين الابنية الاســاسية للشخصية نتيجــة تباين الثقافات والمجتمعات لن يقودنا الى أبعد مما حققنــاه من دراســة

النمط النفسى للثقافة ، على أنه قد يكون لهذه الدراسة مغزى فى أساليب الدراسات الميدانية اذ فى هذا المجال قد نستطيع أن نقتفى أثر بناء الشخصية الاساسية فى مجتمع ما ، ومدى ارتباط هذا البناء بأسباب يمكننا التحقق منها تجريبيا .

ومن ثم فمفهوم بناء الشخصية الاساسية لا يخرج عن كونه أداة دينامية للبحث الاجتماعى فهو ليس حكما أوليا بل أنه محصلة دراسات تجريبية . وقد توصل اليه لنتون بعد دراساته الحقلية فى مجتمع تانالا وفى مجتمع ماركزان، اللذين حلل فيهما الارتباط الموضوعى للشخصية مع الانظمة الاجتماعية . ولقد أظهرت الدراسة التحليلية التى قام بها لنتون امكانية تطبيق المبادىء النفسية عند دراسة الثقافة ، وقد بدأ لنتون دراسته بتحليل تكامل الانساق التى تتكون فى شخصية الطفل أثناء التجارب المباشرة التى يمر بها خلال عملية النمو ، تلك الانساق التى تنبثق من الدين والقيم الخاصة للجماعة. ويعبر تكامل هذه الانساق عن مدى تأثر الطفل بأساليب التنشئة الاجتماعية كما يسهم فى تكوين الاتجاهات الاساسية نحو الوالدين لدى الطفل ، وتحتل هذه الاتجاهات مكانا ثابتا فى الجهاز النفسى للفرد ، وثمة أنظمة أساسية تعمل على تكوين اللب الثقافى للشخصية الاساسية أثناء عملية نمو الطفل ، واتساع تجاربه ، فمن خلال تلك التجارب الاولية التى يمر بها الطفل ، وما يترتب عليها من نتائج يتكون بناء الشخصية الاساسية وهو يرى أن أن الانظمة الاولية وأهمها النظام الاقتصادى هى المسئولة عن تكوين بناء الشخصية الاساسية فى حين أن بناء الشخصية الاساسية بدوره مسئول عن انبثاق الانظمة الثانوية .

وقد أوضح كاردنير أن أهمية هذا التصور ليست فى ايجاد اسم جديد ، بل تكمن أهميته فى حقيقة أنه قد مكنا من البرهنة تجريبيا على وجود أساليب معينة وهامة تؤثرفى الفرد أثناء عملية النمو ، ولا مناص من حدوث تشابه فى القيم وفوضى فى المواقف نتيجة عدم تكيف اللب الاجتماعى للشخصية مع التغيرات الاجتماعية فهذا البناء ليس ثابتا ، ومن ثم يتعين أن يتوافق بنـاء الشخصية الاساسية مع التغير باستمرار ، والا عانى أفراد المجتمع من البلبلة والحيرة والقلق ، والتجأوا الى حيـل دفاعية يواجهون بها هذه المواقف الجديدة ٠

وقد أجاب كاردنير اجابة موفقـة على السؤال المحير عما اذا كان من الممكن أن نوفق بين فكـرة بنـاء الشخصية الاســاسية والحقيقـة المسلم بهـا وهى أن لكل فرد فى ثقافة معينة شخصيته المميزة ٠ فقد أوضح أن هذا التساؤل لا جدوى منه فلكل فرد من أفراد المجتمع المحلى بنـاء شخصية مميز خاص به تشكله الى حد امكانياته الفطرية وتحوره المؤثرات الخاصة التى قابلها الفرد أثناء عملية النمو وتجاربه ٠ واشتراك أفراد جماعة ما فى بناء شخصية أساسى لن يحول دون قيام شخصيات مميزة لكل منهم٠ كمايساعدنا على تفسير خصائص مشتركة بين أفراد هذا المجتمع مثل عقدة أوديب وعقدة الخصاء ، ولا ريب أن أفـراد الثقافة الواحدة يشكلهم جميعا مواقف مشتركة تحددها الاســاليب التنظيمية السائدة ٠

ان أهم النتائج التى توصل اليهـا كاردنـير عند دراســة بنـاء الشخصية الاساسية تأكيده أثـر المواقف والعناصر التنظيمية للثقافة فى تشكيل الشخصية المميزة لكل فرد بجانب العوامل الفطرية، وتوضيحه أن بناء الشخصية الاساسى يقوم على مدى تجانس الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى تؤثر فى أساليب التنشئة فى بيئة ما ، كما قطع بامكانية وجود بناء الشخصية الاساسى فى المجتمعات المتجانسة، أما دراســة الشخصية الاساسية فى المجتمعات السياسية الكبيرة الحجم فأمر مشكوك

فيه لتباين الابعاد الاجتماعية والاقتصادية فى الدولة الواحدة تباينا يحول دون قيام بناء موحد للشخصية الاساسية • ويرى كاردنير أن سمات بناء الشخصية الاساسية تتميز بالعمومية (٢٩)، وهى مظهر مشترك وشائع عند كل من يساهمون فى ثقافة معينة • فيما عدا قلة قليلة من المنحرفين ، وعلى العموم ، فمفهوم بناء الشخصية الاساسية يدل على ما هو أساسى فى الثقافة لا على ما هو أساسى فى الشخصية ومن ثم فتأثير بناء الشخصية الاساسية يفسره تأثير الثقافة على تكوين بيولوجى متجانس •

ويرفض أنصار بناء الشخصية الاساسية أن تكون للفروق التكوينية أهمية فى تحديد بناء الشخصية الاساسية ، أو حتى الفروق بين أبنية الشخصية الاساسية • ويؤكد أنصار هذا المفهوم على مسائل هامة فيما يتعلق بوحدة الثقافة واستمرارها عبر الزمان وتماسكها وتجانسها الداخلى ، ويبدو أن بناء الشخصية الاساسية يتكون من تأثير الممارسات الثقافية والمقبولة التى يتعرض لها الشخص الصغير داخل ثقافة معينة •

ومن ثم تتباين مكونات بناء الشخصية الاساسية من ثقافة لاخرى ويرجع هذا التباين الى طبيعة أساليب التنشئة الاسرية ومدى تقبل الناس لها • وأهمية هذه الاساليب عند أعضاء البناء الثقافى • وتكشف لنا الدراسات التجريبية أن هذا المفهوم مثمر وذو معنى عند دراسة الشعوب البدائية • ولكن عندما طبق هذا المفهوم عند دراسة الثقافة اللامتجانسة والمعتقدات الحديثة كانت النتائج التى حصل الباحثون عليها موضع شك • ومن ثم يصبح بناء الشخصية الاساسية مجرد أداة بحث مجردة ، ومن ثم نتائجه سطحية •

(29) Duijnker : National character and National streotypes Op. Cit. p. 18.

ومع ذلك فان فائدة مفهوم بنـاء الشخصية الاساسية يمكن أن تزداد كأداة بحث لارتباطه العميق والوثيق بنظرية التحليل النفسى عند فرويد ، فأساليب تنشئة الصغير تحدد الى حـد كبـير مـا تكون عليه شخصيته • فثمة سمات شخصية مشتركة بين أطفال أفقـر الطبقـات الاجتماعية وأرقاها •

ولكن ما الفرق بين هذا المفهوم ومفهوم الشخصية المنوالية (٣٠) :

(أ) يطلق مفهـوم الشخصية المنواليـة عـلى أية مجموعة مـن الاشخاص، وقد تكون هذه الجماعة كبـيرة مثـل الشعب ، أو طبقـة اجتماعية • أو فئـة مهنيـة أو عشيرة ، أمـا مفهـوم بنـاء الشخصية الاساسية فلا يطلق الا على فئـة معينة من الناس أو فئة من الاشخاص يشتركون فى ثقافة واحدة ، وبمعنى أكثر تحديـدا فبنـاء الشخصية الاساسية قد يستخدم لدراسة الشخصية القومية بقدر ما يكون لهذا الشعب ثقافة خاصة به مميزة له •

(ب) مفهوم الشخصية المنوالية مفهوم احصائى ، بقدر ما يدل على تكرار وتوزيع سمات وقيم معينة تخضع للملاحظة والقياس ، أما بناء الشخصية الاساسية فمفهوم تفسيرى • بقدر ما يدل على تأثيرات تجارب عامة معينة ، واذا كانت الشخصية المنوالية تعبر عن قطاع معـين من الشعب فان بنـاء الشخصية الاسـاسية يتضمن الاشـارة الى نسـق متماسك من الانماط الثقافية ، ولذا فان أدوات بحث الشخصية المنوالية تختلف عن أدوات بحث بنـاء الشخصية الاساسية ، اذ تتطلب دراسة الشخصية المنوالية وجود عينـة ممثلة من السكان ، أما دراسة بنـاء الشخصية الاساسية فلا يجدى معها استخدام العينة لصعوبة تعريف مجموعة مـن السكان استنادا الى الاسـاليب والمؤثرات الثقافية التى

---

(30) Ibid. pp. 19 - 20.

يخضعون لهـا • ولذا لا جدوى من هذا المفهوم فـى الدول السياسية التى تضم جماعات عديدة مختلفة الثقافـات • فالناس لا تعرف الا فى اطـار التنظيم السياسى لا فى اطار المشاركة فى الثقافة •

(جـ) ولـما كان مفهوم الشخصية المنوالية لا يتضمن الاشـارة الى الثقافة أو التقاليد الثقافية ، فانه قد يشمل جوانب من الشخصية أكثر مما يتضمنه بنـاء الشخصية الاسـاسية ، فالشخصية المنوالية لمواطنى شعب معين قد تشتمل على سمات شائعة نتيجة لتعرض هؤلاء المواطنين لظروف طبيعية خاصة مثل طبيعة البيئة الفيزيقية ومستوى التكنولوجيا ••• الخ أما مفهوم بنـاء الشخصية الاساسية فيشير فقط الى عناصر الثقافة الكلية التى يشترك فيها الشعب مع الشعوب المجاورة ، أو يدل على شعب ذى ثقافة شائعة بين كل المواطنين ، لا بين أفراد طبقة معينـة •

(د) لا يرتبط مفهوم الشخصية المنوالية بأية نظرية خاصة عن الشخصية ، وبذا يمكن دراستها من خلال أية نظرية تسمح بالاختلاف أما مفهوم بنـاء الشخصية الاساسية فيرتبط ارتباطا قويا بنظرية التحليل النفسى • وهذا الارتباط يعنى التسليم بالصدق المطلق لهذه النظرية كما أنه يشير الى أبعد حد الى الفروق الاساسية فى الشخصية التى تظهر بتأثير أساليب التنشئة الاجتماعية المختلفة ، وحتى اذا كانت الفروق حقيقية فما زال هناك تساؤل عما اذا كان فى الامكان وصف الشخصية فى دول العالم الثالث والعالم الاشتراكى فى اطار مصطلحات تنبثق وتظهر فى قطاع معين من الحضارة الغربية الرأسمالية •

٤ ــ الشخصية الاجتماعية :

الشخصية القومية بمعناها المنوالى نسق من الاتجاهـات والقيـم والمعتقدات المشتركة بين أعضاء مجتمع معين أو التى يؤمن بها قطاع

كبير من هذا المجتمع ٠ وهذا التعريف قاصر للاسباب الآتية (٣١) :

(أ) ان هذه الاتجاهات والقيم والمعتقدات ليست هي الشخصية في مجموعها ٠

(ب) تمثل هذه الاتجاهات والقيم عادة الجوانب السطحية في الشخصية ولا تعبر عن الجوانب الكامنة ، وعلى العموم فان العلاقة بين الاتجاهات والقيم والجوانب اللاشعورية في بنـاء الشخصية والمظاهر الاساسية للشخصية ، ـ رغم الايمان بوجودهـا ـ ليست واضحـة ، وليست متناسبة تناسبا طرديا ٠ ومن ثم أصبح من الضرورى أن نميز بين هذا المفهوم والمفهومات الاخرى ، وعلينا أن نستخدم مفهوم الشخصية الاجتماعية باعتبارها نسقا من الافكار والمعتقدات والاتجاهات والمشاعر ٠ ويرى بعض الباحثين أن الشخصية الاجتماعية هى المنطقة التى تتمركز فيها التماثلات القومية الداخلية وتظهر الفروق بين الشعوب ، ومن ثم يمكن دراستها دراسة مناسبة ، وبالتأكيد فجوانب الشخصية الواضحة والظاهرة لها علاقة وثيقة مع الثقافة ومفهوم الدور ٠

ولا يختلف مفهوم الشخصيـه الاجتماعية الـذى يعكس الوضع الطبقى أو المهنى عن مفهوم الشخصية الاساسية اختلافا أساسيا ، وان كان مدخل الدراسـة مختلف ، فبينمـا تعكس الشخصية الاجتماعية العلاقة بين البناء الاجتماعى والشخصية ٠ نجد بناء الشخصية الاساسية يعبر عن مدى التلاحم بين الثقافة والشخصية من أجـل فهـم أفضل للسلوك الانسانى ٠

ويرجع مفهوم الشخصية الاجتماعية الى فروم الذى تحدث عن طابع الشخصية الشائع عند كل أعضاء المجتمع ٠ كما تحدث عن البناء الحافز والاتجاهات اللبيدية واللاشعورية عند أعضاء الجماعة ٠ وتحدث

(31) Duijnker : Ibid. pp. 20 - 22.

عن شخصية المجتمع ، وبين أن المجتمع عامل هام فى تكوين الشخصية الاجتماعية · وان الشخصية الاجتماعية فى المجتمع البدائى تتميز عن الشخصية الاجتماعية فى المجتمع الاقطاعى أو الرأسمالى ، كما تتفاوت بنــاء الشخصيات الاجتماعية فى المجتمع الحرفى عن المجتمع الزراعى عن المجتمع الصناعى · كمــا تختلف الشخصية الاجتماعية فى المجتمع الديموقراطى عن المجتمع اللاديموقراطى ، وفى المجتمع الرأسمالى عن المجتمع اللارأسمالى (٣٢) ·

ودراسة الشخصية الاجتماعية تتطلب وصف السمات واشــكال السلوك والافكار والنسق الاقتصادى وتحليل العوامل الاساسية التى تتخذ شكلا بنائيا ، وتكون شخصية الفرد وتدفعه الى الشعور والتفكير فى اتجاه معين فى أشياء معينة ، والشخصية الشائعة فى الجماعة كلها هى الشخصية الاجتماعية · ويمكن أن ندرس وظيفتها ومن ثم يمكن أن ندرس شخصية الفلاحين وشخصية العمال والصلــة بين الجماعات الاجتماعية ، ولا نتغلغل فى القوى النفسية التى تتحرك وتدعم الاتجاهات وسمات السلوك (٣٣) ·

ويستند مفهوم الشخصية الاجتماعية الى فكرة أن بنــاء الشخصية بنــاء مشترك عند أغلب أعضاء الجماعة أو أعضاء الطبقات المختلفة فى مجتمع معين ، وهذا البناء الشائع المشترك هو ما أسماه فروم الشخصية الاجتماعية · ولا يدل مفهوم الشخصية الاجتماعية على شخصية فــرد بعينه ، ولا يشير الى بناء شخصية فريد متميز كما يوجد عند فرد معين ،

---

(٣٢) راجع آراء فروم فى الشخصية الاجتماعية · محمد سعيد فرح · البناء الاجتماعى والشخصية · الاسكندرية ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠ ص ٣٩ ــ ٥٤ ·

(33) Fromm Erich : Social Character in a Mexican village. Engle Wood Gliff. Prentica Hall. 1970.

بل ان هـذا المفهوم يدل على طابع عـام للشخصية أى مجموعـة متكاملة من سمات الشخصية التى تظهر نتيجـة التوافق مع الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية السائدة عند هذه الجماعـة ، ولا ريب أن ثمـة انحرافات عن بناء الشخصية الاجتماعية الشائع بين الاغلبية فى كل جماعة ٠٠٠ لكن سمات الشخصية الشائعة على جانب عظيم من الاهمية ٠ اذ أنها الدوافع وراء سلوك الجماعة ، كما يبدو فى أفعال وتفكير ومشاعر أعضاء الجماعة ٠ وتتجلى الشخصية الاجتماعية لجماعة مـا فى أجـلى مظاهرها فى المجتمعات البدائية حيث قلما توجد انحرافـات عن النمط الشائع ٠٠ وفى هذه المجتمعات قد تكون الشخصية أما مسالمة ومطمئنة وودودة وتعاونية وغير عدوانية وفى حالات أخـرى قد تكون عدوانية وتخريبية وسـادية تميل الى الحزن والارتياب ، وفى المجتمعات الاكثـر تقدما نجد أن لكل طبقة من الطبقات المختلفة فـى المجتمع الواحد عـادة شخصية اجتماعية مميزة ، يختلف دور كل منها فى البناء الاجتماعى ٠

ويفسر لنـا مفهوم الشخصية الاجتماعية عند فروم كيف تتحول طاقة نفسية بوجه عـام الى شكل خاص من الطاقة النفسية التى يحتاجها كل مجتمع لاستغلالها فى أداء وظائفه ٠ وتتجلى أهمية هذه الحقيقة اذا ما راعينا أنه لا يوجد مجتمع بوجه عام أى لا يوجد مجتمع متماثل متكامل متجانس ، بل توجد مجموعة أبنية اجتماعية خاصة فى كل مجتمع ، ومن ثم يطالب كل مجتمع وكل طبقة به أعضائه بـأداء أنـواع مختلفة من الوظائف ٠ فمثلا نجد أن نمط الانتاج يختلف من مجتمع لمجتمع ، ومن طبقة لطبقة ، ومن ثم فثمة مجتمع العبيد ، ومجتمع اقنان الارض ومجتمع العامل الصناعى ومجتمع المغامر المستقل فى القرن ١٩ ، ومجتمع المدير الصناعى فى القرن العشرين ، وعلى كل منهم أن يؤدى دوره ووظائفه المختلفة كما أن كل طبقة يطالبها وضعها الاجتماعـى أن تنظـم علاقاتها الاجتماعية بأساليب مختلفة ازاء كل من يماثلها فى المكانة الاجتماعية

ومن هم أعلى منها ، والاشخاص الذين يؤدون سلوكهم وفقا لمطالب الشخصية الاجتماعية يشعرون بالرضا عندما تساعدهم الانماط الاجتماعية على أن يؤدوا سلوكهم حسب شخصياتهم • وتتخذ الشخصية الاجتماعية طابعها العام بتأثير الثقافة الكلية وطرق تنشئة الاطفال والتعليم فى المدارس وأشكال الانتاج الادبى والفنى والدينى والعادات وبعبارة أخرى بتأثير النسيج الثقافى الكلى الذى يضمن استقرار النمط العام للشخصية الاجتماعية •

وغالبا ما توجد فجوة تخلف بين الطابع العام للشخصية الاجتماعية وأساليب التنمية الاجتماعية والاقتصادية الجديدة ذلك لان للشخصية الاجتماعية جذورا فى التقاليد والعادات مما يجعلها أكثر استقرارا من التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية • وهذه الفجوة بين الشخصية والتغيرات غالبا ما تسبب أضرارا الى الطبقات والمجتمعات التى لا تستطيع أن تتكيف مع متطلبات الاحوال الجديدة ، اذ أن شخصيتها التقليدية تجعل من العسير عليها أداء السلوك فى المواقف الجديدة• وأخطر مثل لهذا التخلف اليوم يكمن فى الصراع بين المشاعر التقليدية حول السيادة الوطنية والشرف القومى والحرب المنتصرة من جهة وبين مدى التقدم التكنولوجى الحديث ولا سيما فى مجال الاسلحة النووية والحروب البيولوجية •

ولقد رفض فروم فرض فرويد عن تكوين الشخصية ، اذ حسب تفسير فرويد فان تطور الشخصية يتبع مراحل تطور اللبيدو ، ففرويد يفترض أن هذا التطور كامن ومتأصل فى البناء الفسيولوجى للانسان • ولذا سلم فرويد بأن تكوين الشخصية ينتهى تقريبا فى المرحلة الاوديبية • والتى يعقبها مرحلة الكمون ثم مرحلة البلوغ ، ثم مرحلة المراهقة • ثم مرحلة النضج ، ولذا فمن النادر أن تتغير الشخصية عند فرويد ، وعلى أساس هذا الفرض فتجارب الطفولة هى

أساس تكوين الشخصية ، وهى تجارب ثابتة ولا تتعرض لاى تغيرات أخرى لاحقة ٠

ويسلم فروم بالاهمية البالغة لتجارب الطفولة ، بيد أنه رفض أن تكون هذه التجارب جامدة ولا تتأثر بالتغيرات اللاحقة ٠ ولقد قبل فروم أن للانسان طاقات عديدة لتمثل واكتساب الخبرات وتكييف وضعه بالنسبة للمجتمع ٠ واذا كان ثمة سياق معين فى تطور الطفل بالنسبة لهذه المراحل ، فانه ليس سياقا جامدا صارما كما افترض فرويد ٠ وعلى أساس البيانات الاكلينيكية والاجتماعية لنا أن نفترض نظريا بأن الطفل يبدأ بأساليب كامنة بعضها أشد تأثيرا والبعض الآخر أضعف تكوينا ولكنه عادة يعايش تجاربه اللاحقة بتأثير توجيهات الشخصية الاجتماعية المتباينة ، وقد تسيطر هذه التوجيهات عليه فى النهاية ، اذا كانت أكثر ملاءمة لتكيفه مع بيئته الخاصة ٠

وهذه المؤثرات التى تؤثر فى شخصية الطفل هى الاسرة ثم المدرسة فرفاق العمر فالعمل وأدوات الاتصال ٠ ومن ثم فتجارب الطفولة لا تحول دون حدوث تغييرات لاحقة فى الشخصية ، أى أن بناء الشخصية الذى تكون فى السنوات الاولى من العمر بناء مرن بما يسمح من تغيرات فى فترات لاحقة ٠ ومن ثم يرى فروم أن بناء الشخصية بناء متجدد ومتغير كلما تغيرت الظروف اذ أن بالامكان أن تبرز توجيهات كانت كامنة لكنها أكثر ملاءمة لمواجهة الظروف الجديدة، بيد أن عملية التغير عملية معقدة ٠ فنسق الشخصية الذى تكون فى البداية لن يطمس ، ولن يختفى كلية ، بل سيحل محل بعضه مكونات جديدة للشخصية التى تمتزج بالبعض الباقى منه٠ ومن ثم فبناء الشخصية الجديدلن يختلف اختلافا جذريا عن البناء الاصلى٠لكنه يختلف بقدر يكفى لخلق مجموعة مختلفة من السمات الدائعية للشخصية ٠ فبناء الشخصية الاجتماعية نسق لديه مثل كل نسق قوة تماسك عظمى ، لان كل جزء

يتكيف مع الاجزاء الاخرى ، كما أن التغير فى أى جزء يقتضى بالضرورة تغيراً فى كل الاجزاء الاخرى ، ولذلك فان التعليم وحده ضعيف الاثر ، ولا جدوى من محاولة تغيير سمه أو عرض بالقوة المجردة سواء أكانت التغيير بالتهديد أو الترغيب • ولكن النسق سرعان ما يمتص التغيرات التى تحدث فى سمة معينة • وقد تعود هذه السمة سريعا أو تختفى مقهورة الى حين ظهور ظروف تدفعها الى الظهور مرة ثانية •

وهكذا يتضح أن التغير فى النسق لا يحدث الا اذا تغيرت مجموعة كاملة من الظروف بكيفية تؤثر على النسق فى مجموعة ، وتدفع الانساق الكامنة الى الظهور حين تصير هى السائدة • ومن ثم فالشخصية الاجتماعية هى محصلة توافق الطبيعة الانسانية مع ظروف اقتصادية واجتماعية معينة، على أنها من جانبها تميل الى العمل على استقرار وتدعيم هذه الظروف • وهذه الشخصية الاجتماعية تكونها ظروف اجتماعية واقتصادية وجدت واستقرت منذ قرون وأدت الى تكوين أيديولوجيات وأفكار وأساليب لتنشئة الطفل • وهذا البناء الاجتماعى يحدد طبيعة الابناء ، ومن ثم فاذا ما أصبحت الثقافة التقليدية غير متلائمة مع الظروف الاقتصادية المتغيرة سيظل الاطفال خاضعين للماضى نتيجة لتأثير الشخصية الاجتماعية التقليدية لآبائهم والاساليب التربوية القديمة والايديولوجيات والقيم التى لم تعد ملائمة بيد أن هؤلاء الاطفال عناصر لشخصية اجتماعية جديدة •

ان أهم ما يقدمه لنا فروم أن الشخصية الاجتماعية عنصر ديناميكى يسهل التغير الاجتماعى • وفى الوقت نفسه عامل معطل للتغير الاجتماعى باعتبارها مسئولة عن الفجوة بين التغير الاجتماعى والاقتصادى والتوافق الانسانى ، وتشكل الظروف الاجتماعية والاقتصادية المتواجدة منذ أجيال الشخصية الاجتماعية وتحدد هذه التقاليد الثقافية شخصية الوالدين اللذين يشكلان شخصية الابناء • ولذا فان شخصية الابناء

تحمل تراث الماضي ويمكن القول أنهم حتى ولو اكتسبوا المعرفة الضرورية في المدرسة التي بدورها تؤثر في الاقتصاد ، فان شخصياتهم التقليدية تقف عائقا أمام التغير الشامل ٠

ويرى ديوجنكر (٣٤) أن مفهوم الشخصية الاجتماعية من وجهة نظر معينة مفهوم مفيد ، وطالما أن البحث المسترشد بهذا المفهوم يهتم بقيم ودوافع يشعر أفراد مجتمع ما أنها توجه سلوكهم ، وعندما تدرس المعتقدات والاتجاهات المحددة لدولة معينة تبدو لنا أهمية البحوث المقارنة بين الشعوب ، ونحن لا نعرف حتى الان أية دراسة مقارنة تستند على عينات ممثلة للسكان القوميين ، ويرجع السبب في عدم وجود هذه الدراسات الى الصعوبات النظرية والعملية التي تقابلنا في تنظيم هذا النمط من الدراسة ٠ وأهمها صغر العينة ، وعدم تمثيلها لمجموع الشعب ومشكلة التعميم ٠

٥ ـ الشخصية القومية هي العقلية القومية

الشخصية القومية هي العقلية القومية كما يعبر عنها في مظاهر الابداع الثقافي (٣٥) من أدب وفن وفلسفة ٠ وهي تدل على الاتجاهات والنزعات وهذه الشخصية هي التي تميز شعبا عن شعب ، وهي أصل كل شعب وتتمثل في صفوته ٠ وهذا التعريف أضيق التعريفات مجالا في حالة عدم وجود معلومات أخرى ، وهذا المفهوم يتضمن في حد ذاته فرصا عديدة لتشويه الدراسات فلا يوجد منهاج واحد أكثر ملاءمة لمثل هذا النوع من الدراسة ٠ وبالرغم من هذه الصعاب فهذا المفهوم يعبر عن وجهة نظر لا يمكن اغفالها كلية ، فقد تكون الصفوة الثقافية لها سمات خاصة تصبغ بها قومها ، وقد تكون سمات الصفوة هذه ،

(34) Duijnker : National Character and National sterotypes Op. Cit p. 21.

(35) Ibid. p. 28.

هى ما يميز شعبا عن آخر • وفضلا عن ذلك فلما كانت هذه الصفوة هى التى تمثل شعوبها بأشكال مختلفة فى الاتصالات الدولية والمجالات الثقافية والاقتصادية والسياسية فالمعلومات التى نحصل عليها عنهم قد تكون ذات أهمية بالغة من الوجهة العملية •

٦ ـ قد يبدو فى الظاهر أن ثمة تناقضا بين معنى الشخصية ومعنى القومية (٣٦) فالشخصية تشير الى الخصائص النفسية عند الفرد، بينما تدل القومية على الدولة والشعب أو على الافراد باعتبارهم أعضاء فى جماعة قومية ، أى الى الافراد بقدر ما يظهرون من انعدام الفروق بينهم ، وينتفى هذا الغموض الى حد ما اذا عرفنا أن الشخصية القومية تدل على الروح الجمعية وارادة الشعوب •

والغموض الذى يكتنف فكرة الشخصية القومية فى كتابات الانثروبولوجيا الثقافية يرجع الى أن الوحدة التحليلية الاساسية فى الدراسة هى الثقافة (٣٧) أو تجمع الافراد بصفتهم تجسيما للثقافة وانكار التزاوج بين الثقافة والشخصية • كما يبدو الغموض أكثر عند أنصار الانثروبولوجيا النفسية الذين يدرسون المظاهر النفسية للثقافة • اذ أن أنصار هذه المدرسة فى دراستهم للشخصية القومية قد تحولوا من دراسة الشخصية القومية الى دراسة الثقافة القومية من وجهة نظر نفسية ، ويترتب على هذا التفسير النفسى للثقافة ظهور مدخلين :

أولهما يسعى الى جمع المعلومات التى تميز شعبا عن شعب ، وتعد دراسة الشخصية القومية عند أنصار هذا المدخل دراسة للسلوك الثقافى المكتسب ، ويهتم هذا المدخل بدراسة عادات الناس والسلوك

---

(36) Ibid. p. 22.
(37) Ibid. p. 23.

التنظيمى والآداب الشعبية والطقوس بدلا من دراسة السمات الشخصية السائدة عند شعب مـا ٠

المدخل الآخر : تتمركز دراسات هذا المدخل حول أنساق المعايير والقيم كما هى واضحة فى الاهداف الثقافية والنظم ومظاهر الابـداع الثقـافى ٠

ويختلف هذا المدخل المتمركز حول الثقافة عن مدخل الشخصية المنوالية اختلافا كبيرا سواء أكان هذا الاختلاف فى المنهج أم فى النسق التصورى ٠ وبالرغم من هذه الفروق ، فهذا المدخل يعد محاولة لمعرفة الخصائص النفسية لشعب دولة ما ٠ واذا كان المدخل الثقافى يبتعد عن مدخل الشخصية المنوالية وبناء الشخصية الاساسية ، فانه يقترب من الدراسات الحالية المعروفة باسم « الثقافـة والشخصية » ، وهى دراسات لا تزال فى دور التمهيـد ، فالشخصية والثقافـة مفهومـان يفتقدان التعريف الجامع المقبول ، وأحيانا ما يلتبس الامر على الدارسين فى هذا الموضوع ، فقد تختفى الشخصية لحساب الثقافـة أو تطمس الثقافة لحساب الشخصية ٠

وهذا اللبس بين المفهومين يدفعنا الى السؤال هل ثمـة تناقض بين الثقافة والشخصية ؟ قد يبدو فى الظاهر أن ثمـة تناقضا ولكنهما فى الظاهر ، يدرسان ويهتمان بظواهر متحدة ، وان كان مدخل الدراسة يختلف ٠ ان أية نظرية عامة فى السلوك الانسانـى ينبغـى أن تتضمن المدخلين معـا ولكن مثل تلك النظرية تحتاج الى مجموعة من المفهومات لا تتوافر فى الوقت الحاضر ، ومهما يكن الامـر فالدراسـات المهتمـة بالشخصية القومية من مدخل الثقافة تهدف الى نسق مـن المفهومات يختلف عما يستخدمه دارسو الشخصية المنوالية ، وهذه المفهومات قد تقترب كثيرا من الاتجاه النفسى ، وتصل الى نتائج نفسية عن الشخصية بمناهج بحث لا ترضى بالمعايير المنهجية للبحث النفسى ، ولـذا فهـذه

النتائج مرفوضة من وجهة نظر علم النفس ، ولا تقبل الا باعتبارها نتائج مؤقتة كما أنهـا مرذولة من وجهة نظر الانثروبولوجيا .

ولكن لبلوغ هذه الاهداف ، فاننا نحتاج الى طرق بحث تختلف عن المداخل التي تتركز حول الافراد ، ومن ثم فالانثروبولوجيا الثقافية لا تصل الى تقارير عن الشخصية القومية بجمع ومقارنـة دراسـات عن الافـراد ولكنها تستعمل أساليب تتيـح الاسـتدلال عن الثقافة فـي مجموعها ، ويمكن أن نميز منها ما يلى :

(أ) ملاحظة المظاهر الجمعية مثل الانساق الدينيـة والطقوس والشعائر والاحتفالات ومظاهر الابداع الثقافى ... الخ .

(ب) ملاحظة ما يصدر عن الافـراد مـن أحكام لفظية سـواء التلقائية أو أثناء المقابلات مع الافراد أو الظواهر السلوكية والفكرية .

(ج) ملاحظة التفاعل بين الافراد ، كما يتمثل فى تربية الاولاد ، وأداء كل من الرجال والنساء لادوارهم ، وتنظيم علاقات القرابة وتنظيم المحرمـات أى الاتجـاه العـام للسـلوك الاخلاقـى والاجتماعـى فـى ظروف معينة . ان أشكال السلوك التى تعبر عن نفسها فى هذا التفاعل تلاحظ باعتبارها عادات وأشكال منظمة للتفاعل ، ولا تدرس باعتبارها مؤثرات لنزعات شخصية الفـرد .

ومجمل القول أن مفهـوم الانثروبولوجيـا عن الشخصية القومية يهدف الى الدراسة النفسية للثقافة القومية ، ويهدف الى فهم شـامل لطريقة الحياة القومية وخصائص السلوك والاتجاهات المميزة للسكان القوميين ، ويركز على السلوك التنظيمى ، والاساطير والمعايير وأنساق الجزاءات وأنماط التفاعل كلها ، وكلها معلومـات ذات أهميـة . فلهذه المعلومات مضمون اجتماعى وثقافى من خلاله يسلك الافراد سلوكهم ومن خلالها يبرزون تصرفاتهم . وهـى تصف لنـا الانسـاق التى تمـارس

الضغوط الاجتماعية فى البيئة الثقافية ، ورغم أن هذه الانساق تعبر عن الطابع القومى ، فانها قد تساهم فى فهـم الخصائص النفسية الهامـة للسكان الوطنيين كما أنها تهتم بالمعايير التقليدية والتنظيمية عن السلطة والحب والعدالة ، ورغم أنها قد لا تعبر عن سـمات وملامح الشخصية بالمعنى الحرفى للكلمة ، فانها ذات أهمية حيوية لفهم السلوك والاتصال.

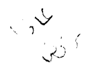
الشخصية القومية حقيقة لا وهـم :

ورغم تباين التعاريف عن مفهومات الشخصية القومية فانها كلها تتضمن فرض وجودها • سواء أكان هـذا الاعتـراف من جانب أنصار المدخل النظرى أم أنصار المدخل التجريبى ، فالشخصية القومية ممكنة نظريا كما توضح ذلك النظم والعادات والمعايير والقيـم ، كذلك فهى ظاهرة موجودة بالفعل كما أثبتت ذلك الدراسات التجريبية فى مجـال العادات والتقاليد ، فهذه المفهومات كلها ممكنـة ويمكن البرهنة على وجودهـا •

بيد أن هذا الافتراض بوجود الشخصية القومية• كان له معارضيه الذين يزعمون أن دراسات الشخصية القومية محيرة (٣٨) ومربكة وتضم أحكام القيمة التى أخذت عن بضعة أفراد تعميما يجعلها تشمل الامة ، ولا تمثل الامة تمثيلا صادقا كما يصعب اجراء الدراسات بينها ، ولا يمكن أن نعمم هذه الدراسات الا اذا افترضنا أن العينة ممثلة للمجتمع كله ، ولقد رفض فيف (٣٩) فكرة الشخصية القومية استنادا الى رفضه مقولة الاممية لاسباب عديدة هى :

(38) Claire Selltiz : Research in Methods in Social Relations. N. Y. Holt, Renehart. Winston. 1959. p. 187.

(39) Fyfe, H. : The illusion of National character. lodon. Watts 1946 - ch 1 - 2.



١ ــ أن الامة ليست وحدة طبيعية ولا وجـود لها بالمعنى العلمى بل وحدة عرضية تنشـأ عرضا نتيجـة لعوامـل تجعل مجموعة من الناس تخضع لنظام دولـة معينـة وضرب مثـلا لذلك بالالزاس الذين تناوبوا عبر التاريخ الجنسيتين الفرنسية والالمانية ٠

٢ ــ ان الفكرة قد نشأت من أسطورة نادى بها موسى حـين وصف العبريين بأنهم شعب مختار ٠

٣ ــ أنها أساس الحروب والمعارك بين مختلف الامم ٠

٤ ــ ان الدارسين لفكرة الشخصية القومية يتأثرون فى نظرتهم الى الشعوب بموقف دولتهم من هذه الشعوب الاخرى٠ وكان أوضح مثل ضربه لذلك نظرة البريطانيين الى كل من الفرنسيين والالمان حتى عام ١٩٠٤ ونظرتهم الى هذين الشعبين بعد عام ١٩٠٤ ٠

٥ ــ ان الدارسين للشخصية القومية يدرسون صفات أشخاص قلائل ويعممون النتائج على مجموع الشعب ٠

ولذا فالدراسات المهتمة بالشخصية القومية تبحث عن وهم ، وخاصة عند الشعوب حديثة الاستقلال أو النشـأة ٠ وأهمية التاريخ والتراث الثقافى هى التى دفعت فاربر (٤٠) الى التساؤل هل يمكن أن نجد فى دولة اسرائيل ثقافة قومية تعكس شخصية قومية ٠ وكان جوابه عن هذا السؤال بالسلب ، اذ أن دولة اسرائيل تتكون من خليط من الشعوب نزحوا اليها من شعوب مختلفة ٠ لكل مجموعة منها ثقافتها الخاصة ولا تجمع بينهـم جميعا أيـة نمط ثقافـى مشترك الا الديانة اليهودية، والفكرة اليهودية، واذا كان من الصعب أن ندرس دولة تحت

---

(40) Farber Maurice : The Problem of National character. In Smelser Neil (ed) Personality and social system. N. Y. John Wiley 1963 pp. 80 - 96.

التأسيس تتكون من خليط من الشعوب فانه وهم لنا كما يقول فاربر أن ندرس شخصية قومية تفتقد عنصر الاستمرار فى التاريخ (٤١) ، فمن الصعب أن نجد شخصية قومية تصهر وتبلور عناصر اجتماعيةمتباينة فى مجتمع بلا تاريخ. ولقد أكد جينزبرج أن الشخصية القومية ليست بالشخصية القومية التى تعطى دفعة واحدة ، بل هى شخصية تتعرض للتشكيل والصياغة والتحوير من الظروف المختلفة التى تتعرض لهـا الامم فى تاريخها (٤٢) ، واذا ما سلمنا بوجود عنصر التاريخ في تكوين الشخصية القومية ، وأنها محصلة عوامل مادية وروحية وبيئية ، وأنها نتيجة التلاحم بين البناء التحتى والبناء الفوقى ، وأنها ليست طبيعية وليست تلقائية لان القومية ليست من صنع الطبيعة ، فاننا نقر بوجود الشخصيةالقومية. اذ تدل الملاحظة على أن الشعوب تختلف فى سلوكها من بلد لبلد ، وفى كل بلد توجد عادات ، وتقاليد مختلفة ، ولقد سلم من يشكون فى جدوى فكرة الشخصية القومية العامة بأن معظم أفراد الشعب فى أغلب الامم الحديثـة يشتركون فى مجموعة عامة من القيم والعادات والتقاليد ، وان اختلفت طرائق حياتهم ومستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، فهناك حد أدنى من الاتفاق فى المعايير والقيم ، وعلى ذلك فانناتتبنىرأى ديوجنكر (٤٣)بأنهمن الاصوبقبولمفهوم الشخصيةالقومية باعتباره نمط الانماط لشعب ما ولا ينبغى أن نغالى فى معناه ، فالفروق بين الافراد فى الشعب الواحد قد تكون أوسع وأكبر من الفروق بين الشخصيات القومية بين الشعوب المختلفة .

هذه التعاريف المتباينة يمكن أن تصنف الى مجموعتين ، المجموعة الاولى : التعاريف التى ترتبط بالشخصية ارتباطا وثيقا ، ويهتم الباحثون

---

(41) Ibid.

(42) Ginsberg. M. : Reason and unreason in society New impression. London. Longman 1948. p. 154.

(43) Duijnker : National character and National streotypes. Op, cit.

أنصار هذا الاتجاه بنمط أو خصائص أو ملامح الشخصية لدولـة ما ، والمجموعة الاخرى تضم التعاريف التى تهتم بالثقافة اهتماما مركـزا ، ويدرس أنصارها العـادات والممارسات اليومية وأساليب التربية والمعايير والنظم والقيم • ورغم هـذا التصنيف الثقافـى ، فكـل مجموعـة من التعاريف تسمح بنوع من التباين الداخلى ، فمثلا يدرس أنصار المجموعة الاولى أنمـاط الشخصية القوميـة حسب مستويات عديـدة ، فهـم يدرسونها على مستوى التحليـل النفسـى ، أو يحللونهـا تبعـا لاساليب التوافق ، أو يبحثون عن المشاعر أو العواطف أو الاتجاهات العاطفية والقيم التى يتمسك بهـا الافراد ، مقابل هذا التباين عند أنصار المدخل النفسى فى دراسة الشخصية القومية ، نجد تباينا داخليا أيضا عنـد مؤيدى المدخل الثقافى ، فهم يدرسون العادات والمعايير والقيم وأساليب الخبرات القومية مع العناية بدرجة أكبر بالثقافة ومظاهرها من تقاليد وطقوس وابداعات فنيـة •

ولكن هل يمكن الفصل بين المدخل النفسى والمدخل الثقافى (٤٤) ، أم أن كلا منهما متمم للآخر ، رغم اختلاف طرق الدراسة • نحن لا نؤمن بالفصل ونرى أن كلا من المدخلين متمم للآخر وعلى كل منهما أن يوفر لنا المعلومات وأن يبين لنا متى وكيف تتداخل المداخل النفسية مع المداخل الاجتماعية أو الثقافية ، ومن ثم فعلى المدخل النفسى أن يصف الظواهر النفسية ويحللها من منظور ثقافى ، وعلى المدخـل الثقافـى أن يدرس الظواهر الثقافية ويحللها من منظور نفسى • وبذلك يمكن أن تصاغ فروض قيمة عن الشخصية والثقافة ، فاذا ما حللنا نتائج مدخـل الشخصية المتوالية نجـده يقدم لنـا تفسيرات نفسية عن تتابع السلوك والنظـم

---

(٤٤) فى سبيل معرفة الاتجاهات الحديثة فى الدراسات التكاملية بين علم الاجتماع وعلم النفس والانثروبولوجيا راجع محمد سعيد فرح : البناء الاجتماعى والشخصية • الاسكندرية ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩ •

والقيم والمعايير ، أى أنه مدخل يحاول أن يبين لنا كيف نخلد الثقافة ، ويكشفها ويتقصى هذا المدخل الدوافع العميقة الخفية اللاشعورية التى تحدد السلوك الظاهر ، أما المدخل الثقافى فيبحث عن تفسيرات للتعبيرات العديدة والمتنوعة لاساليب الحياة ٠

ويعد هذا العرض لمفهوم الشخصية القومية عند أصحاب المدارس المختلفة يتبين لنا أن الشخصية القوميةشىء يعلـم ويكتسب ، أثنـاء التفاعل مع الآخرين أعضاء المجتمع ، وهى كل شىء عند أفراد الشعب ،

وتتفاوت مظاهرها ابتـداء من المعتقـدات والقيـم فالنظـم السياسـية، فالسمات الشخصية وتظهر لنـا هذه التعريفات أن هناك تحولا فى المفهوم مـن الشخصية القوميـة الى بنـاء الشخصية الاسـاسية أو الشخصية الاجتماعية وأن الذين يهتمون بالقيم والمعتقدات والنظم السياسية يعطون اهتماما أكبر للشخصية القومية ، أما التأكيد على السمات فهذا يعنى تبنى الباحث لمفهوم بناء الشخصية أو الشخصية الاجتماعية ٠

ويبدو أن هذه الشخصيةالقومية تتأثرتأثرا قويابتجارب الطفولةالتى تشكلها النظم الاجتماعية والاشكال المقررة والمقبولة للعلاقات الاسرية والسلوك الابوى ٠ وتتجلى هذه الشخصية مباشرة فى الجماعات الاولية وارتباطات المواجهة مع الناس فى البيئة المباشرة وفى علاقة الفرد بأطفاله وأبوية ، وعلاقة الزوجـة بالزوج ، كما علينـا أن نبحث عنها فى الفن والدين والسياسة ٠

الفصل الثاني

مدى مساهمة العلوم الاجتماعية
فى دراسة الشخصية القومية

- الشخصية القومية من منظور العلوم القانونية والسياسية والجغرافية .
- علم النفس والشخصية القومية .
- علم الاجتماع والشخصية القومية .
- الانثروبولوجيا والشخصية القومية .

الفصل الثاني

مدى مساهمة العلوم الاجتماعية
فى دراسة الشخصية القومية

الشخصية القومية موضوع نال اهتمام كل الباحثين فى العلوم الاجتماعية ولكن بدرجات متفاوته • فالدراسات التى تهتم وتدرس سمات الشخصية القومية وخصائصها والسلوك القومى المتوقع ، لا تقتصر على فرع واحد من العلوم الانسانية ولا ينفرد بدراستها علم واحد بل تشارك فى تلك الدراسة العلوم الاجتماعية بفروعها المختلفة • كل بدوره ابتداء من علم النفس وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا مرورا بعلم السياسة حتى الدراسات القانونية والجغرافيا •

الشخصية القومية من منظور العلوم القانونية والسياسية والجغرافيا :

ولقد أدلى القانونيون وعلماء السياسة والجغرافيا بدلوهم فى دراسة الخصائص القومية للشعوب ، وتدفع بنا هذه الجهود المشتركة فى دراسة الشخصية القومية الى القول بأن دراسة الخصائص والسمات القومية من أكثر الدراسات التى تعبر عن تداخل العلوم السلوكية •

ومن وجهة نظر الدراسات القانونية (١) تشير الشخصية القومية الى الصورة المثالية لافراد شعب ما ، لما يظهرونه أو يخفونه من سمات أو اتجاهات وفى ضوء ما يؤكدونه من أفعال • وما يصدرونه من أحكام

---

(1) Lazar Joseph : Juridical perspectives on National character. The Annales of the American Academy of political and social science. op. cit. pp. 16 - 22.

على أنفسهم وعلى جيرانهم واستنادا على هذه الاتجاهات والاحكام يكافئون أو يعاقبون أولادهم ويؤمن المشرعون أن القواعد القانونية تؤثر كل التأثير على تشكيل الشخصية القومية باعتبار أنها تؤكد فى تصرفاتها الاحكام المعيارية . ولقد أكد جورر هذه العلاقة بين الشخصية والقانون عندما بين أن دراسة الشخصية القومية تصف الدوافع المشاهدة والقيم السائدة فى مجتمع معين فى وقت معين وأن شخصية الشعب تعكسها القوانين التشريعية السائدة . ولقد دعم أرنست باركر هذا الاتجاه موضحا أن ما نشرعه من قوانين يؤثر على سلوكنا ، فالدولة تشرع القوانين ، ويشكل نسق القانون بدوره ويؤثر فى الشخصية القومية لهذه الدولة .

ومن منظور العلوم السياسية يعرف تشارلز وورث Charles worth الشخصية القومية بأنها مجموعة الخصائص أو الصور التى تميز شعبا معينا عن الشعوب الاخرى (٢) وهذه الخصائص هى التى تحدد الذات الجوهرية لكل شخصية قومية ، وتؤكد الناحية العنصرية لها ، وهى تخص كل دولة ، ومن الصعب أن تحدد شخصية قومية واحدة لدولة ما ذات سيادة تضم مجموعة من الشعوب المختلفة ، ذلك لان الشخصية القومية لشعب ما ، تعكس التجانس الثقافى والسلالى لهذا الشعب باعتباره مجموعة من الخصائص والصفات أو الصور التى تميز شعبا عن آخر ، ويمكن أن نعرف من خلال تعميمات الشخصية القومية أنها تتطلب أن يدرك أفراد الشعب بأنهم يختلفون فى بعض الصفات العامة عن غيرهم من الشعوب بينما يتماثلون فيما بينهم فى هذه الصفات فالناس فى كل مكان متماثلون فيزيقيا ، ولكن أحداث التاريخ والبيئة بمفردهما يبدو أنهما يصنعان الثقافة والنظم التى تتباين بين الشعوب البسيطة والشعوب المتقدمة .

---

(2) Charlesworth James : National character in the perspective of political science. in The Annales of the American Academy of polotical and social science. op cit pp. 23 - 29.

وتتميز الشخصية السياسية القومية بالخصائص الآتيـة :

١ - التقوقع داخـل الذات
٢ - والفردية المكثفة
٣ - وحب النظام وحب اليقين
٤ - والتمايز عن الآخرين على أنهم من الغير
٥ - والقهـر
٦ -والايمان بأن للشعب رسالة معينة
٧ - والتفاخر بالتعصب
٨ - والنزعة الصوفية والتواضع
٩ - والتركيز على الناحية الانسانية
١٠ - وانتشـار المـادية
١١ - والمسـاواه
١٢ - واتباع قوانين المنطق ٠
١٣ - والتقليديـة
١٤- والتجريب ٠

ويتعين على الدارس للشخصية القومية من منظور العلوم السياسية أن يميـز بين الخصائص القوميـة والشخصية القومية ، والتى يتعين دراسـتها تجريبيا فى فتـرة زمانيـة معينة ، ولقد تساءل تشارلزورث عما اذا كانت النظم السياسية تشكل الشخصية القومية ، أو أن الشخصية القومية هى التى تحدد النظم السياسية ، وهو يرى أن ثمة سمات خاصة تحدد كل شخصية قومية ، ولكنه قسم العالم الى قطبـين كبيرين بينهما تتذبذب دول العـالم الثالث مما يضفى على شخصياتها بعض الغموض ٠
كذلك اهتم الجغرافيون بالشخصية القوميـة (٣) ، ومبعث اهتمام

(3) Broek Jan : National character in the perspective of cultural Geograrhy. In The Annale of the american Acedemy of political and scieree op, cit. pp. 8 - 15.

الجغرافيين بدراسة الشخصية القومية يرجع الى اهتمامهم التقليدى بالعلاقات المتبادلة بين أفراد الشعب والارض التى يعيشون عليها ، وعلى ذلك يرى الجغرافيون أن الشخصية القومية نسق من القيم والسلوك يمكن أن يتغير فى البيئة الذى يمارس فيها الافراد سلوكهم• ويشترك الجغرافيون المهتمون بالجغرافيا الثقافية مع العلماء الاجتماعيين فى مشكلة تعريف وملاحظة وتفسير الشخصية القومية ، وهم يتساءلون فى مشكلة وجودها واذا ما كانت موجودة بالفعل، فهل يمكن أن تدرس دراسة موضوعية ، أم هى صورة فى الذهن ، تنتقى وتشوه من خلال العدسات الثقافية للباحث كما أشار والتر ليمان • وهل تشكل شخصية شعب معين كلا متجانسا ، أم أنها تحتوى على متناقضات لا سبيل الى أن نوفق بينها • وهناك رأى بين المهتمين بالجغرافيا الثقافية يرى أن الشخصية القومية ثمرة للتاريخ وتخضع للتغير ودائما فى صيرورة وليست ثابتة ، بيد أن خصائص وطبائع وأخلاق الشعوب ليست مثل الازياء تظهر ثم تختفى ، اذ أن عملية التحول بطيئة ، أى أن معدل التغير تتفاوت شدته من ثقافة لاخرى ، مثال ذلك الكرم الذى يسود المجتمعات البسيطة التى تقوم على الاكتفاء الذاتى يمكن أن يختفى نتيجة انتشار الاقتصاد التجارى • ولكن هناك سمات أخرى أكثر تماسكا وخاصة تلك السمات والقيم الروحية التى تشكل جوهر الذات القومية •

ولما كان اهتمام الجغرافيين متمركز حول المكان باعتباره مركبا من الناس والارض ، فمن النادر أن يدرسوا طابع الشخصية القومية دراسة واضحة فى ذاتها وان أكبر مساهمة قدمها الجغرافيون لفهم الشخصية القومية يكمن فى تحليل الاقليم Landscape أى مظاهر الطبيعة باعتبارها تؤثر فى ثقافة الشعب ، كما أن تنسيق هذه المظاهر بيد الانسان يعكس هذه الثقافة •

ولقد انطلق العالم الجغرافى جمال حمدان فى كتابه « شخصية

مصر دراسة فيعبقرية المكان» (٤) من منطلق أن دراسةالشخصيةالقومية هى دراسة فى الجغرافيـة التكاملية · فقدم مساهمة مخلصـة لمحاولة فهـم شخصية مصر من خـلال تحليل اللاندسكاب (مظاهر الطبيعة) · كما انعكس على الشخصية المصرية · ولقد أوضح جمال حمدان أن الحاجة الشديدة لفهم تكامل لوجهنا ولوجهتنا ولكياننـا ومكانتنـا ولامكانياتنا ولنقائصنا وسلبياتنا هى التى دفعته الى الاهتمام بدراسة شخصية مصر ، فشخصية مصر هذه ، وان اشتركت فى بعض سماتهـا وخصائصها مع أقاليم وبلدان أخرى · فلانها انفردت بمجموعة من السمات والخصائص والملامح هى التى صبغت شخصية مصر ككل بطابع فريد مميز نادر · فهى جغرافيـا تقع فى أفريقيا ولكنهـا ترتبط تاريخيـا بآسيا · وهى فرعونيـة الجـد ، وعربية الاب ثـم أنهـا بجسمها النهرى قـوة بـر وبسواحلها قـوة بحـر (٥) ·

ومصر فلتـة جغرافيـة لا تتكـرر اطلاقا فى أى مكان · والمكان الذى تنزل به مصر أكسبها عبقريتها الاقليمية · وترجع هـذه الفلتـة الجغرافية الى تفاعل الموضع والموقع سويا · فموضعها وموقعها هما سبب كل المزايا والصفات الايجابية التى يتحلى بهـا سكانها ، وهمـا سبب نقاط القوة فى الشخصية المصرية ، أما الخصائص السلبية فترجع الى ميراث الطغيـان السياسى والاقطـاعى الذى تسلط على المصريين قرونا طويلة ومن ثم يرى حمدان أن الخصائص السلبية · عند المصريين دخيلة ومؤقتـه وعابرة ، أما الصفات والخصائص الايجابية فأصيلة وراسخة وعريقة وكامنـة عند الشعب المصرى ·

فهذا التفاعل بين الموقع والموضع أدى الى تكوين الشخصية المميزة لمصـر ، وأهم ملامح هذه الشخصية التى هى مركب فريد يعيش فوق

(٤) جمال حمدان : شخصية مصر · دراسة فى عبقرية المكان · القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ ·

(٥) نفس المرجع ، ص ٦ ·

بيئـة حدد النيـل ايقاعها هى التجانس والوحـدة والطغيان والخضوع للسلطة المركزية والتبعية السياسية بعد السيطرة والاساس الخارجى للبنـاء الحضارى ، والتفاعل بين العزلة والاحتكـاك وتعـدد الجوانب والابعـاد والتوسط والتوازن والاستمرارية والتقطع، ثم أخيرا الوطنية والقوميـة ٠

وشخصية مصر تأثرت بنهر النيـل ، وهو مانح الحياة وموزع الحيـاة بها ، وهو سبب تجانسها التركيبى ٠ ويكمن نهـر النيل وراء عوامل كثيرة وعديدة ، أثرت فى سكان مصر وتتحكم فـى كل مظاهـر العمـران فى البـلاد ، اذ يزدحم العمـران كلما قربنا منـه ٠ ويقـل العمـران كلما بعدنا ٠ وكل شيء فى مصر من مظاهر العمران من صنع النيـل ٠

ولقد أثر الموقع والموضع فى القدماء واحتكاك الشخصية المصرية بثقافات كثيرة ، بعضها أثر الى حـد مـا فـى بنـاء الشخصية المصرية ، ولكنها لم تفقد شخصيتها وهويتها ، كما لم تبتلعها حضارة أخرى ٠ ولكن حدث هضم وامتصاص للثقافات الاخرى بما يتلاءم مع ثقافة وحضـارة مصر ، فازدادت الثقافة المصرية ثـراء وتعـددت مظاهرهـا ولم تفقـد أصالتها وقوامهـا ٠

واذا كان الاب عـيروط وصف المصريين بالتكاسل وتقليد الشعوب الاخـرى وعدم الابتكار فان حمدان يرى أن البيئـة النهريـة فى مصر كانت حافزا للمصريين على الابتكـار والتجديد أما القعود والتكاسـل والدعـة فليست من سمات الشخصية المصرية ، فلولا التجديد والابتكار لدمرها النهر ولاضمحلت مصـر مثلما كانت فى عصر الجفاف ، ولصار حـال مصر هو حال جنوب السودان ومناطق المستنقعات بعد البحيرات الاستوائية ولكن أصالة المصرى جعلت من شمال الوادى منطقة فريدة تعكس أصالته وقدرته على الخلق والابداع ٠

ولكن هذه البيئـة النهرية ، خلقت الحاكم المركزى وكان فى أول أمـره وسيطا وحكما بين الانسان والبيئـة ، والفلاح والنهر · وتكون مجتمع تعاونى منظم يدرك ويعى ويفهم معنى وقيمة العمل الجماعى ، وان وجوده مرتبط بمـدى التضامن والتكافل بين أفراد المجتمع كله · ولكن هذا الحاكم سرعان ما طغى وتكبر ، وصار المتحكم فى توزيع الميـاه وهو المالك والمحتكر للارض وسـاد الطغيان منذ الفراعنـة وظهرت السخرة وكل وسائل الارهاب وطالت فترات الطغيان السياسى ، ممـا أدى الى ضمور الخصائص الايجابية للشخصية المصرية ، وكمون مظاهر القوة بها، حتـى أصيبت مصر بأنيميـا حيويـة ، وامتصت روح الشعب بفعـل الضغط والقهـر وظهرت الصفات والسمات السلبية على السطح ولكن فى مواجهـة الاقطـاع المستبد واستبداد الحكام لم يستسلم المصرى أبدا ولم تجهض ثورته وخصائصه الايجابية ·

٢ ـ علم النفس والشخصية القوميـة :

ولقد كان لعلم النفس التحليلى الفضـل فى ظهـور رؤية جديدة مخالفة عن الطبيعة الانسانية فقد ظهر لاول مـرة التأكيـد عـلى أهمية الحاجات والدوافع البيولوجية للانسان وطريقة اشباعها أو احباطها· وقد أدت هذه الرؤية الجديدة الى رؤية الانسان رؤية جديدةلا باعتباره حامل الثقافة ومبدعها ، بل بصفته انسانا له دوافع وحاجات بيولوجية (٦) ·

وبتأثير علم النفس التحليلى ظهر اتجـاه يهتـم بتجـارب الطفولة وأساليب تربيـة الاولاد وكان ضروريا لفهم شخصية البالغ أن نبحث عن مكوناتها وأسبابها من خـلال أسـاليب التدريب على الاخـراج ، وطرق الفطام ، ونظرة الام الى لعب الطفل بأعضائه التناسلية ومع ذلك ففى الوسع الاحتفاظ بفكرة التكامل الثقافى والنظرة العالميـة مع الاهتمام

---

(٦) لمزيد من التفاصيل عن فرويـد راجـع محمد سعيد فرح البنـاء الاجتماعى والشخصية ، المرجع السابق ·

بمدخل التحليل النفسى ، ولكن ثمة ميل الى تحقيق مبدأ التكامل بين علاقات الطفل بالوالدين ، والطبيعة الخاصة لتجارب طور الطفولة الاول ٠ وبذا فهم يختلفون عن مدرسة الصيغ الثقافية التى تهتم بتحليل الثقافة ولا أهمية للفرد عند أعضائها ، الا لاعتبارات التوضيح أما مدرسة التحليل النفسى فقد أولت اهتمامها بالاتجاه الاكلينيكى ، ويرى فيكتور بارنو أن تأثير مدرسة التحليل النفسى فى أبحاث الثقافة والشخصية(٧) ودراسات الشخصية القومية بالغ الاهمية ، فلقد أثار قضايا عديدة ذات قيمة عالية ، وفجر مشكلات كثيرة أمام الانثروبولوجيين ٠ ولقد تأثر هؤلاء الانثروبولوجيين بأعمال فرويد وقبل معظم المحدثين من الانثروبولوجيين الكثير من أفكار مدرسة التحليل النفسى ، رغم أنهم يرون أن بعض آراء مدرسة التحليل النفسى وهمية وغير مقبولة مثل غريزة الموت وخرافة الرغبة فى قتل الاب ومضاجعة الام ٠ ورغم هذا الهجوم على بعض أفكار فرويد احتلت فكرة الاسقاط مكانة هامة عند المهتمين بالعلاقة بين الثقافة والشخصية ٠ على أنه من العسير قبول بعض آراء فرويد ورفض البعض الآخر ، ذلك لان عمل فرويد كل متكامل متجانس٠

ويؤمن أنصار مدرسة التحليل النفسى بأن شكل الشخصية يتحدد ويستقر بعد المرحلة الاوديبية بعد أن يبلغ الطفل العام الخامس أو السادس من عمره نتيجة للتجارب التى يمر بها الطفل فى طفولته ، وأهمها علاقة الطفل بأمه فى البداية ٠ ولما كان أنصار فرويد من المحدثين يؤكدون على الاساس البيولوجى للنمو فى فترة الطفولة ، فمن الملائم أن نصنف تلك الاسس هنا حسب الرؤية الفرويدية وهم يرون أن نظام الفطام والتدريب على الاخراج ونظرة الام الى لعب الطفل

---

(7) Barnouw Victor : Culture and personality Opcit. p. 164.

بأعضائه التناسلية تؤثر كلها تأثير حاسما على شخصية الطفل النامى ، وبالتالى فان عقدة أوديب أو الخوف من الخصاء قد يكونان اتجاهات وردود أفعال هامة طوال العمر عند الشخص البالغ · ومن ثم يبدو أن التجارب اللاحقة فى حياة الفرد ـ مثل تغير المكانة أو أداء وظيفة معينة ، تلعب دورا ضئيلا نسبيا فى تشكيل الشخصية وتغيير سماتها أو خصائصها ·

وحسب رؤية فرويد ، فلا تأثير للضغوط الاجتماعية والاقتصادية على الشخصية المتفائلة التى تكونت نتيجة خبرات المرحلة الفمية · التى تستقر فيها علاقات الطفل بأمه وتشبع حاجات الطفل اشباعا كاملا، وعلى العكس يمكن أن تفسر السادية والتشاؤمية والبرود الجنسى بالرجوع الى طور التشاؤم فى المرحلة الاستية حيث يمارس التدريب الصارم على الاخراج ومن ثم فان اتجاهات الشخصية حسب فرويد تمثل مرحلة توافقية بين الدوافع الغريزية والقوى الضابطة للأنا ، ولقد ذكر فرويد موضحا أن السمات الدائمة للشخصية لا تعدو الا أن تكون تعبيرات لم تتغير عن الدوافع الاصلية وتساميها أو تكوينات عكسية ضدها ·

ولقد آمن فرويد بأن الطفل يمر أثناء نموه بمراحل تعبر عن تطور اللبيدو ابتداء من الفمية فالاستية ثم التناسلية ، واذا واجه الفرد الاحباط الكافى فى مرحلة معينة من مراحل نموه ، فانه قد يرتد الى طور مبكر من أطوار النمو ، وبذلك يصبح عصابيا أو يصاب بمرض نفسى ، ونمط العصاب أو المرض النفسى لن يحدده الطابع التكوينى للشخصية بل يحدده قوة وطبيعة الكبت والاحباط الذى قابله الفرد أثناء خبراته فى طور الطفولة الاول ودرجة شعوره بالطمأنينة التى عرفها من قبل ·

ولقد ساير جورر ولابار فى دراستهما عن الشخصية القومية النظرية الفرويدية عن حتمية السنوات الاولى ، وبينا أن سمات الشخصية

القوميـة محصلة عملية التدريب القاسى على الاخراج فى فترة الطفولة المبكرة الذى يكون السلوك القهرى عند المراهق ٠

وليس الفرويديون وحدهم هم الذين ينادون بأن طـور الطفولة حاسم فى تكوين الشخصية فثمة عدد من الكتاب قد وجهوا الانتبـاه الى أهميـة العلاقات المبكرة بين الام والطفل والى النتائج المدمرة لفصل الطفل عن أمه وأثر الفطام المبكر على نمو الشخصية ويرى البعض فى الجانب الآخر أن الرعاية الاموية المفرطة لها نتائج مدمرة على تكوين الشخصية وسقوطها فريسة المرض النفسى ٠

وكان مالينوفسكى من أوائل الذين أكدوا أن عقدة أوديب والرغبة الشديدة المكبوتة نحو الام ليست ظاهرة عامة لدى المجتمعات البشرية ولا وجود لها اطلاقا فى المجتمعات التى تتبع النظام الاموى فى رعاية أولادها مثل مجتمع التروبرياند ٠ وأثبتت مالينوفسكى أيضا أن مجتمع التروبرياند يجهل فتـرة الكمون وان الآداب الشعبية عندهـم لا تعـرف الاسـاطير الاوديبية ٠

واذا كان مالينوفسكى قد نقـد فرويد ، فان كاردنير ــ وهو أيضا من أنصار فرويد المحدثين ــ قد رفض افتراض فرويد عن تماثل ما يكبت فى اللاشعور فى مختلف الثقافـات والمجتمعـات ٠ كما رفض نظريـة اللبيـدو ٠ وقبل افتراضا آخر لفرويد عندما أكد أن عملية تعويد الطفل على الفطام قد تكون قاسية ولها تأثيراتها الضارة على شخصيته ، ويتعين على الفرد أن يتوافق معها بطريقة ما ، كذلك فرغم رفضه لنظرية فرويد عن التطور النفسى الجسمى فانه تحدث عن الخصائص الفمية والاستية للشخصية ، وتقصى عن منابعهما فى فترات نمو الطفولة (٨) ٠

(8) Barnouw, Victor : Culture and Personality. op, cit, p. 108.

ولقد قسم كاردنير عوامل تكوين الشخصية الى نظم (٩) أساسية ونظم ثانوية وهذه النظم الاساسية أقدم وأكثر استقرارا من الانظمة الثانوية وهى أقل تعرضا للتغيرات التى تحدث بتأثير المناخ أو الاقتصاد ويعتبرها أعضاء المجتمع طبيعية مثل التنفس ، وهى أدوات بناء وتشكيل الشخصية الاساسية لمجتمع ما • والنظم الاساسية التى تؤثر فى تشكيل الشخصية هى تنظيم الاسرة ونظم الرضاعة والفطام وعناية الام بالطفل أو اهمالها له والتدريب على الاخراج والمحرمات الجنسية بما تتضمن من رغبة وأهداف أو مقاصد أو كليهما والاساليب المتبعة لتحقيق ذلك على أن هذه الشخصية الاساسية من وجهة نظر كاردنير ـ بدورها ـ بعد تشكيلها قد تؤثر على الثقافة بخلق أنظمة ثانوية معينة مثل الابداع الادبى والمعتقدات الدينية والتصورات عن الالهة والاتجاهات •

ولقد اهتم فرويد بهذه الفكرة فى كتابه « مستقبل وهم » عندما كتب وقال « عندما ينمو الطفل ويجد أنه يتعين عليه أن يبقى طفلا للأبد وأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا دون الحماية من قوى مجهولة وجبارة ، فانه يربط هذه القوى بسمات الاب وقد يكون لنفسه آلهة خاصة يخشاها واليها يلجأ ويوكل اليها مهمة حمايته » •

ان الاهتمام النفسى بالشخصية القومية لم يكن قاصرا على تلاميذ فرويد بل امتد الى تلاميذ بيرت عالم النفس البريطانى فثمة دراسة فى الشخصية والطابع القومى ، قام بها عالم النفس التجريبى لين (١٠) ،

---

(٩) النظام عند كاردنير هو أى طريقة ثابتة للتفكير أو السلوك تؤكدها مجموعة الافراد أى المجتمع ، والتى تجد قبولا عاما كما أن الانحراف عنها يؤدى الى بعض المتاعب عند الشخص والجماعة •

(10) Lynn. R. : Personality and social character. Oxford pergamon press, 1971.

وترجع أهمية هذه الدراسة الى لجوء الباحث الى مفاهيم وطرق البحث المستخدمة فى علم النفس المعاصر ، مبينا أن خصائص القلق هى التى تميز الشخصية القومية لكل شعب، وتعبر هذه الخصائص عن نفسها فى مؤشرات وبائية ، وقد أشار لين الى أن ثمة فروقا فى مستوى القلق بين الناس فى الدول المتقدمة فى العالم الغربى ، وأن معاناة الناس للقلق تتباين من شعب لشعب ومن ثم تتضمن فكرة الشخصية القومية فى نظره بأن هناك بعض سمات للشخصية تميز شعبا عن غيره من الشعوب ، ولاثبات وجود مثل هذه السمات نجح بعض علماء النفس فى تطبيق عدد من المقاييس واثبات الترابط بين مقياس وآخر ، وهذه المقاييس المترابطة اذا ما اتحدت معا تحددت السمة التى تبرز القلق، ويتجلى القلق فى مظاهر مختلفة ، ابتداء من تفاوت ادمان المسكرات والتدخين ، ومعدل حوادث الانتحار ، والاصابة بالامراض النفسية ، وتعاطى المخدرات والاصابة بأمراض القلب وهو يرى أن القلق ليس ظاهرة اجتماعية بل صفة أصيلة فى الانسان ، يتفاوت الشعور بها من شعب لشعب ، ومن ثم فالقلق مفهوم نفسى خطير يربط بين عامل أساسى فى الفروق القومية ومجموعة أساسية من المعرفة النفسية ، وقد استخدم لين طريقة سقراط فى عرض أسباب القلق ، فهو يعرض كل سبب من مسببات القلق ، ثم يترك هذا السبب يتهادى أمام معاول الرفض ، كما تأكل النار نفسها بنفسها ، حتى كشف عن رأيه فى أهمية العامل الاهم فى تحديد القلق ٠

[illegible] الى أنه
[illegible]ل ، ولم يهدف لين من دراسته أن يقدم وصفا كاملا للشخصية القومية لشعب مجتمع معين ، أو لمجموعة شعوب ـ وبالرغم من أن عنوان كتابه « الشخصية والطابع القومى » ـ بل قدم نموذجا بسيطا لجانب واحد من جوانب الشخصية فى هذا العالم الواقعى ، هو مستوى [illegible] ، ولذا درس القلق كسمة للشخصية أو باعتباره بعدا من أبعادها ، يمكن أن يخضع للقياس ، ثم يبين أن مظاهر الانتحار وادمان

المخدرات والامراض النفسية ·· تبين مستوى الشعور بالقلق فى كل دولة ، وهو فى هذا كان متميزا عمن سبقه ، فلم يحاول أن يعطى صورة عامة عن الشخصية القوميـة لحياة شعب من الشعوب ، ولم يساير من وصف شعب من الشعوب بالتبعية ، أو شعب ثان بالاستقلالية أو شعب ثالث بالتسلط ، وهو لم يصف شعبا معينا بأنهشعب محافظ أو يتسم بالغموض أو أنه شعب مجدد، ولم يسأل عن أسباب هذه الفروق الواضحة فى العادات اليومية ، وهل هى محصلة الفروق فى أنماط الثقافة والتربية والمثل والتقاليد ، ولم يهتم مثل غيره من علماء النفس بالمظاهر العامة التى دفعت الى الوعى أكثر بالفروق الشاسعة بين الناس فى مناطق قوميـة عديدة ، ولكنه وجه اهتمامه الى الاجابة عن التساؤلات المهتمة بتحديد :

١ ـ ما الطبيعة المحددة للفروق القومية أو العرقية ·

٢ ـ الى أى حد تعد تلك الفروق فطرية أو مكتسبة ·

٣ ـ والى أى حد تعتبر تلكالفروق محصلة المؤثرات الثقافية والتربوية·

ولقد كانت هناك محاولات قليلة سبقت لـين لدراسة تلك المشكلات باتبـاع خطوات المنهج العلمى الدقيق ، كما أدلى السياسيون والمصلحون الاجتماعيون والمحررون الصحفيون والكتاب بدلوهم فى تلك المشكلات المرتبطة بالخصائص القومية · ولكن كتابات هؤلاء لا تعدوا الا أن تكون مجرد انطباعات ذاتية ، وتأملات مكتبية ، أو تعبيرا عن فـكر شخصى ، يفتقد التحليلات الكمية التى تستند الى مؤشرات مستفيضة ، ولقد كانت هناك دراسات ومحاولات لدراسـة علمية موضوعية مثـل كتاب وليم ماكدوجل « العقل الجمعى » ، بيد أن كل ما نجده فى هذا الكتاب لا يعدو والا أن يكون مجرد دراسة وصفية بحته ومعالجة نظرية ، لا تختلف الا قليلا عمن سبقه من الباحثين ·

أما لـين فقد اختار منظورا مخالفا هو مدى الشعور بالقلق ، فهو لـم يدرس الانطباعـات الشخصية التـى تختلف من باحث لآخـر بل

جمع معلومات موضوعية وطبق المقاييس العلمية وقدم بيانات كمية عن القلق واهتم بتقصى الاسباب التى تدعو الى التباين فى مستوى الشعور بالقلق ، وهل هى ظروف بيئية اجتماعية تؤدى الى تغير الشخصية وتغير الطباع ، أو ترجع الى البيئة الجغرافية بما فيها من خصوبة أو جدب ، أو ترجع الى الخصائص النفسية والعقلية ، وهل تؤثر الخصائص الدافعية مثل الدافع الى الانجاز فى التنمية الاقتصادية أم لا ٠

ولين فى دراسته للفروق القومية للقلق عند بعض الشعوب المتقدمة طرح ثلاثة تساؤلات ، السؤال الاول هل هناك فروق عرقية فطرية فى تكوين الشخصية والسؤال الثانى هل نظريات الشعوبية نظريات خاطئة فى حد ذاتها والسؤال الثالث هل هناك خصائص قومية موجودة وبالتالى هل الطابع القومى للشخصية ممكن أم مجرد فرض ٠

يرى لين أن مفهوم الشخصية القومية قد يفسر الفروق بين البلدان المختلفة فيما يتعلق بانتشار ظواهر معينة مثل الانتحار والامراض النفسية وادمان الخمور ونقص السعيرات الحرارية والعنف ، ولكنه قد لا يفسر الفرق داخل المجتمع الواحد ٠

ولقد عرض لين لدراسات تبين أن العامل النفسى عامل هام وراء النمو الاقتصادى وأن الدول التى حققت تقدما اقتصاديا فى الفترة من ١٩٥٠ الى ١٩٦٥ ارتفعت فيها معدلات القلق ٠ وهو يرى أن ارتفاع معدل القلق فى دولة ما يدفع الناس الى العمل الخلاق والمثابرة على العمل والابتكار ، وهذا بدوره يؤدى الى زيادة الكفاءة فى أداء العمل ، وينعكس مباشرة على زيادة معدل النمو الاقتصادى فالعامل النفسى فى رأيه عامل هام وراء ارتفاع معدل النمو الاقتصادى ، كما عرض لدراسات تؤيد أن من أسباب الانتحار الازمات الاقتصادية مثل البطالة أو الافلاس والمتاعب المالية ، ولقد ثبت من بعض الدراسات أن معدلات الانتحار ترتفع وتهبط جنبا الى جنب مع معدلات البطالة أو الرخاء الاقتصادى ٠ كما عرض

لدراسات أثبتت أن ارتفاع السعيرات الحرارية يرتبط بانخفاض مرتبة القلق ، فالاشخاص الاسوياء والمستقرون عاطفيا ، لديهم شهية طيبة ، بينما الاشخاص الذين يعانون من القلق يفتقدون فى الوقت نفسه الشهية الطيبة نحو الطعام ، كما عرض دراسات أثبتت أن من بين أسباب الانتحار الازمات الاقتصادية ، مثل البطالة أو الافلاس والمتاعب المالية ، ولقد ثبت من بعض الدراسات أن معدلات الانتحار ترتفع وتهبط جنبا الى جنب مع معدلات البطالة أو الرخاء الاقتصادى، وعرض لين أيضا لابحاث نفسية موثوق فيها بينت أن ادمان المسكرات رد فعل للقلق ، فالادمان يزيل الخوف من الانسان فعندما يعانى الشخص من القلق يجد مهربا منه فى ادمان تعاطى المسكرات ، ومن ثم يعد الادمان وسيلة من وسائل الراحة وتفريج الكرب ، ولذا فعلينا أن نتوقع أن يزداد فى بعض المجتمعات التى تزداد فيها مظاهر القلق معدل ادمان المسكرات .

كما أشار لين لدراسات أثبتت أن البلدان الانجلوسكسون تتميز بانخفاض معدلات القلق ، أما البلاد اللاتينية فيعانى سكانها من شدة القلق . وأكثر الناس معاناه للقلق هم الفرنسيون . وبالتأكيد فهذه الفروق تؤيد الاتجاه العام القائل عن بلدان الانجلو سكسون بأنها تتميز برباط الجأش والبرود وأنها غير عاطفية ، كما يشتهر سكان بلاد الانجلو سكسون بأن ردود أفعالهم تتجرد من العاطفة ، وأنهم يستجيبون ببطء الى الازمات ونادرا ما يزعجون أنفسهم بالاستعداد للحرب ، وعندما يتورطون فان استجاباتهم بطيئة ، حتى أنهم يخسرون كل معركة ما عدا المعركة الاخيرة . وعلى عكس الانجليز نجد الفرنسيين والايطاليين أكثر اثارة وأكثر عاطفة .

ويرى أنه لا يوجد ارتباط ملحوظ بين مستوى القلق فى شعب مـا والدخل القومى بل ولا مع الوفرة ، ولا مع مستوى التحضر ، متخذا فى ذلك مثالا من كل من أيرلندا وبولندا وفرنسا واليابان وايطاليا والمملكة المتحدة وأمريكا • كما يرفض أن يفسر القلق بالرجوع الى الاضطرابات السياسية أو فى ضوء الاستقرار السياسى أو الاقتصادى أو العقيـدة الدينية ، ولكن هناك سببا واحدا للقلق هو العوامل العرقية •

والعوامل العرقية عند لـين ليست وهمـا وليست أسطورة وليست خطـأ علميا وهذه الفروق العرقية هى التى تؤثر فى مستويات القلق بين الشعوب ، والا فكيف نفسر أن حالات المرضى النفسى فى أيرلندا أكثر أربعة أضعاف حالات المرضى النفسى فى ألمانيا .ويتساءل لـين ألا يرجع ذلك الى عوامل وراثية ؟ ان العامل الوراثى عامل هـام جدا فى توريث القلق ، ومن ثم فهناك عوامل خلقية فطرية تحدد الفروق القومية للقلق ، وهناك شعوب أكثر قلقا من غيرهـا ، وشعوب أخرى حـدة القلق فيها معتدلـة •

[illegible] ب
الاوربية ، مدعمة بنتائج دراسات تجريبيـة معملية فـى الانثروبولوجيا الفيزيقية ، وجد أنه من الممكن اثبات الفرض القائل أن [illegible]
بين [illegible] عوامل عرقية ، على أن مستوى القلق كما يرى لـين يتفاوت من [illegible] شعب ، ومن الممكن أن تفسر طبيعة المناخ فى الربيع والصيف ارتفـاع معـدلات القلق عن الخريف والشتاء ولكن لـين بعـد أن أرجـع القلق الى أسباب عرقيـة استطرد موضحا وجهة نظره خشية أن يهتم بالعنصرية بأن معاناة شعب ما للقلق أكثر من غيره لا يحمل فى طياته صفة العلو أو الدونية لهذا الشعب، وهو فى هذا يتمسك بأن العوامل الفطرية هى الاساس فى تفسير القلق [illegible]

فى الدول [illegible] ، فان هذا وضع وقتى ـ فى رأيه ـ فرضته ظروف تاريخية معينـة ، ولم يكن كذلك فـى المـاضى ولن يكون فـى المستقبل (١١) ، فاذا كان القلق المرتفع يسهل التنمية ، فان الدول التى لا تعانى من القلق ولو بدرجة منخفضة تكسب الحروب • ومن ثم فالفائدة الاقتصادية والتقدم الاقتصادى أوطد قدما فى الدول منخفضة القلق ، وازاء ذلك كله يتمسك لـين برأيه بأن علينا أن نقبل أن العوامل العرقية عوامل هامة فى تحديد القلق • واذا ما تماثلت الظروف البيئية ، فان الفروق بين الافراد تميـل الى تحديد عوامل الوراثة ، وهذا هو الوضع فى المجتمعات الرأسمالية الغربية ، اذ يشترك الناس فى مستوى ثقافى مرتفع ، وتجمعهم نظم سياسية متقاربة ، ويعيشون فى مستوى معيشة مرتفع متقـارب ، ولكن رغـم هـذا التقارب فى الاوضـاع الاجتماعيـة والسياسية والاقتصاديـة تتبـاين ردود أفعـال الناس فى المجتمعـات الاوربية •

هـذا التجانس فى المستوى الاقتصـادى والثقافى يؤكد أهميـة العامل التكوينى فى المقارنة بين مستوى القلق بـين الدول ، ويرى لـين أن أولئك الذين يرفضون هذا الرأى ـ أى أهمية العامل التكوينى فى اثارة القلق ـ ويرون أن هذا منطق غير صحيح ، يتبعون طريق المغالطة فى النقاش والحوار • لانهم يبررون رأيهم بذكر حالات فيها يظهر هذا المتغير (العرقى) عديم الاهمية ، وبالتالى يدعون الى أن العوامل العرقية لا تأثير عليها فى مجموعة أخرى من الظروف• وكان دوركيم أكبر أنصارهم عندما خطأ الغرض القائل بأن انخفاض معـدل الانتحـار عند الشعوب الكالتية يرجع الى عوامل عرقيـة ، مبررا رفضه لهذا الغرض على أغلوطة محددة هى : اذا كان هذا صحيحا فلما كانت معدلات الانتحـار مرتفعة وشائعة عند هذه الشعوب فى فترة سابقة ، ومن ثم فلا نستطيع أن نقول

---

(11) Ibid : p. 177.

أن ثمة سمة تكوينية فطرية عند هذا الشعب ترتبط بالانتحار ، ولكنها الظروف التاريخية الخارجية هي التي تتغير ، فتتغير معها معدلات الانتحار . ويرد لين على برهان دوركيم ويقول ان ما قدمه دوركيم من براهين تعد خاطئة . فالواقع أن مساهمة عامل على خاص في تكوين ظاهرة ما يعتمد على مدى تأثير العوامل العلية الاخرى في مجموعة معينة من الظروف ، اذا ما حللنا أسباب اختلاف هذه العوامل من شعب لآخر لتبين لنا أنه لا أهمية للعوامل العرقية وأن تباين مستوى هذا العامل من فصل لآخر من فصول السنة ، فهو أشد قوة في الربيع والصيف عن الشتاء والخريف .

ورغم جهود علماء علم النفس التحليلي ومدارس علم النفس الاخرى في دراسة الشخصية القومية . فثمة انتقادات توجه الى جهود علماء النفس في دراسة الشخصية القومية أولها أنه وفقا للمعارف والمعلومات المتاحة فان كل دراسات الشخصية القومية لم تدرس عينة ممثلة للسكان الوطنيين في أي مجتمع ، ثانيا فان كل الدراسات المقارنة في الشخصية القومية قارنت بين مجموعات من الافراد غير ممثلة للمجتمع الكلي ، وأجريت المقارنة بين مجموعة قليلة من الخصائص قليلة الاهمية مثل الخصائص الفمية أو الاستية أو الجنسية أو تحليل ردود الافعال على مجموعة من الاختبارات الاسقاطية لم يتأكد بعد ثباتها أو صدقها العلمي .

علم الاجتماع والشخصية القومية :

وفي الحقيقة ، فإن علماء الاجتماع لم يكونوا بمعزل عن التيارات الفكرية التي أهتمت بدراسة خصائص الشعوب والسلوك المميز لشعب معين ، والدوافع المشتركة بين أفراد شعب ما . وكان مونتسكيو في كتابه العقل الجمعي ودوركيم في مقالاته عن التصورات الاجتماعية وتصوره عن العقل الجمعي ، من أوائل علماء الاجتماع الفرنسيين الذين

اهتموا بدراسة الشخصية القومية · وكان سمنر أول عالـم اجتمـاع أمريكى حاول أن يحدد العناصر البنائية للمجتمع وأن يصور روح الشعب·

بيد أن علماء الاجتماع لم يقبلوا مفهوم الشخصية القومية كما هو وارد عند الانثروبولوجيين · ولكن رغم أنهم يختلفون معـا فـى المنهج ومجـال الدراسة وتباين المفاهيم بين الاتجاهين ، فالهدف من الدراسة واحد ·

ولقد تشتت موقف الاجتماعيين ازاء الشخصية القومية الى [illegible] فرق [illegible] رفض فكرة الشخصية القومية ، كموضوع للدراسة فى علم الاجتماع ، وعلى رأس هؤلاء [illegible] الذى يشترك مع ماركس وجون ديوى فى رفضهما للاتجاه الهيجلى ، الذى اعتبر الشخصية القومية تصورا [illegible] ، مثلما رفض تصور روح الشعوب (٢١) ·

كذلك أنكر بندكيس فائدة دراسة الشخصية القومية ، ووجه نقدا شديدا الى الدراسات الانثروبولوجية التى تخضع اتجاهاتها للتحليل · [illegible] الثانى ، قبل موضوع الشخصية القومية ، كموضوع للدراسة ، ولكنهم عدلوا [illegible] وبمـا يتلاءم مع ظروف المجتمعات الكبيرة ، وقد بدأ هذا الاتجاه بآراء موريس جينزبرج فى الشخصية القومية ، ويشايعه حتى الان كثـيرون · أمـا [illegible] فى ذلك لعبة أغلب الاجتماعيين فهو لم ينكر موضوع الشخصية القوميـة كموضوع كبير جدير بالبحث ، ولكن استبدل بمفهوم الشخصية القومية الذى شاع عند الانثروبولوجيين مفهوم بنـاء [illegible] أو مفهوم الشخصية [illegible] لكى يصبح البحث مقبولا ومثمرا ومجديا ، وقدموا فى ذلك

---

(12) Weber Max : Essays in sociology-trans by Gerth and wright Mills. Routledge and kegen paul Londin. 1970 p. 65.

تفسيرات مختلفة • فنجد مثلا Reisman, Glajer, Deinney ويزمان وجلازر ودينـاى ، فى كتابهم The Lonely Growd ينكرون أن فكرة أنماط الشخصية التى يصفونها فى كتابهم تعتبر دراسة للشخصية الامريكية المتغيرة وانها تعبر عن شخصية دولة واحدة ، ولكنها تعبر عن شخصيات متباينة فى اطـار الثقافة الامريكية •

وقبل أن نعرض موقف علمـاء الاجتماع من الشخصية القومية ، [illegible] •

بادىء ذى بدء نقرر أن دراسة الشخصية القومية تتكون من مجموعة من الافتراحات عن المطالب التنظيمية للدولة والمجتمع ، لم يتحقق منهـا تحققا كاملا ولم يبرهن عليها • فهذه الدراسات تدور حول فروض تتطلب التحول من النظرية الى التجريب (١٣) • كما تكشف كل هذه الافتراضات عن وجود فـروق نفسية بين الـدول ، كما يساعد دراسـة الشخصية القومية على تأكيد التفاعل بين العلوم السلوكية ، وازالة اللبس بين مفهوم الدولة ومفهوم الثقافة (١٤) ، ويحدد لنـا المقصود بالسلوك الاجتماعى المطلوب كما تبين أن السلوك الاجتماعى يقع على متصل طرفيـه الانحراف والتوافق •

[illegible] ، وماذا يعود على النظرية الاجتماعية من معرفة أن المجتمعات والثقافات والدول تكمن فى روح الشعوب أو خصائص الشعوب ، ونجيب على ذلك بأن هذه النظريات جميعا تقبـل

---

(13) Nett Emily : an evaluation of the National character Concept in sociological theory. Social Forces. Vol 36. No. 4. p. 958.

(14) Farber : The problem of National character. A Methodolgical analysis. In personality and sicial system. edited by Neil Smelser and william smelser. N. Y. Jhn Willey 1953.

افتراض أننا اذا استطعنا فهم أى مجتمع باعتباره خلاصة تنبع من دراسة نمط الشخصية ، وأننا نستطيع أن نحلل النظم السائدة ، ونتنبأ بالسلوك فى مثل هذا المجتمع ، فاننا يمكن أن نحلل النظم السائدة ونتنبأ بالسلوك فى هذا المجتمع ، ولسوء الحظ فان القيمة التنبوئية للشخصية لازالت موضع جدال اذ أن جميع التنبؤات التى قامت على مفهوم الشخصية قد باءت بالفشل ٠

أما نت Nett فيرى أنه اذا كان للمصطلح معنى فى علم الاجتماع فانه يتعين علينا أن نتقبله كمجموعة من الافتراضات عن المطالب التى تنظم حولها الدولة أو المجتمع لا كبناء للشخصية الاساسية (١٥) وهذه الدراسات تثرى علم الاجتماع اذ يستدعى تطور التنظيم الاجتماعى توجيه اهتمام الباحثين فى الشخصية القومية الى موضوعات جديدة لم تعط بعد الاهتمام المناسب من علماء الاجتماع ، مثل التفاعل بين المطالب التنظيمية البنائية وسلوك الصفوة وأيضا الدور الذى يلعبه متصل التوافق والانحراف فى البناء الاجتماعى باعتبارهما حافزين ايجابيين فى دينامية التغير ٠

ويرى مارتندال أن الشخصية القومية تظهر اذا نظرنا الى شعب ما عن بعد بمعنى أن النظرة العامة تفرق بين الجماعات بالقول بأن هذا غربى وهذا شرقى وهذا من أمريكا اللاتينية ، ولكننا اذا ما اقتربنا من الافراد نجد أن هذه الفروق تختفى ، وسنرى الفرد عضو المجتمع الانسانى عامة بصفته الفردية ٠ ومن ثم فالشخصية القومية محصلة نظرة عامة لافراد مجتمع معين ، وهى ترجع الى ما يتعرض له كل مجتمع من ظروف بيولوجية وثقافية واجتماعية واقتصادية ٠ وكان مونتسكيو هو أول من اهتم بذلك من بين علماء الاجتماع (١٦) ولقد أكد مونتسكيو أن الجنس البشرى

(15) Nett Emily. An eveluation of The National character concept in Sociological Theory. Social Forces. Vol 36. No. 4. 1958.

(16) Martindale, Don : The Sociology of National character. The

يتأثر بعوامل مختلفة ابتداء من المنـاخ والدين والقوانين والتشريعات التى تسنها الحكومات والاحداث السابقة والاخلاق والعادات ، ومن ثم تتكون روح عامة عند الشعب • وتأثـير هذه العوامل يتفـاوت من عامل لآخر ، فبعضها أشـد تأثير من البعض الآخر فى مجتمعات معينة ، والعكس صحيح ، فمثلا تؤثر الطبيعة والمناخ على الشعوب البدائية ، بينما تتحكم العادات فى سلوك الصينيين وتطغى القوانين على شعب اليابان ، كذلك فعادات الشعوب المتقدمـة المفترحة أكثر تقبلا للتغير من عادات الشعوب المتخلفة المنغلقة على نفسها ، وهناك جماعات أو فئات أشـد تأثيرا على الكـل •

ولقد أثرت الثورات القومية تأثيرات جذرية على مفهوم الشخصية القومية الذى أكد بدوره أهمية القومية ، وساعد على تبرير الثورة القومية التى كانت مجهولة وقنن تكامل الثورة الجديدة فى البلدان التى نجحت فيها الثورة ، وبالتالى أصبحت القومية حقيقة سياسية وحقيقة اجتماعية فى الوقت نفسه (١٦) ، ولـذا فالشخصية القوميـة ليست من صنع نفسها ، وليست تلقائية ، ولكنها تعكس وتعبر عن تأثير الناس بالظروف الاجتماعية التى حولهم • ورغبة فى خدمة الاغراض والاهداف القومية جسمت الخصائص القومية ، واعتبرت الدافع الاساسى للتغير التاريخى الاجتماعى وقد عبر هيجـل عن مفهوم الشخصية القومية الذى سـاد بعد الثورة الفرنسية على نحو الآتى : « اذا ما قرأنا فى تاريخ العالم ، نجد أن الافراد الذين نتعامل معهم هم الشعوب ، والكليات هى الدول • أن المبـدأ العـام الذى يعبر عن نفسه ويصبح موضوعا للوعى فى الدولة

Annals of the american Acaremy of political and social. Vol 370 March 1967. p. 31.

(17) Barker Earmert : National character. London. Nethuen 1927. p. 17.

هو ذلك الكل لدورة الظواهر التى تؤلف ثقافة شعب ما ، ولكن المادة المحددة التى تقبل العمومية ، والتى توجد فى حقيقة ملموسة ، والتى هى الدولة ، هى روح الشعب نفسه وهذه الروح تتجلى فى الدولة الحقيقيه فى كل مسائلها الخاصة ، مثل الحرب والسلام والنظم ....

وتمثل روح الشعب ما هو حقيقى عند الشخص الفرد . فهى تعبر عن طبيعته الاصيلة ولقد أكد هيجل أن الاخلاق هى توحد الذات مع الارادة العامة ، ولقد زاد من تجسد الشخصية القومية قيمتها الايديولوجية فى برامج وسياسات التفاخر القومى ، بيد أن للشخصية القومية بالمثل نتائج امبريقية هامة على العلوم الاجتماعية ، اذ أن الاعتقاد فى وجود « روح الشعب » و « عبقرية الشعب » قد دفع باحثين كثيرين الى اجراء دراسات مركزة على اللغة والآداب الشعبية والفولكلور والأدب والقانون وحققت انجازات عظيمة فى علم نفس الجماعات ودراسة الثقافات ، والنظم الاجتماعية .

ويقول مارتندال : « لقد ظهر علم الاجتماع فى البداية باعتباره صورة من صور الروح الجماعية التى ظهرت فى القرن ١٩ (١٨) ، وارتبط ارتباطا وثيقا بتلك التقاليد التى تحاول تجسيم مفهومات مثل العقل الجمعى والروح الشعبية . ولكن علماء الاجتماع الرواد كانوا غير مبالين بمشكلة الشخصية القومية ، الى أن ظهرت بعض المشكلات فى النظرية والمنهج أدت الى ظهور نظريات اجتماعية عديدة ، وأظهر المعارضون لوجود نظرية اجتماعية شاملة وعامة اهتماما خاصا بالخصائص القومية للشعوب ، ووضعت تصنيفات عديدة للنظريات الاجتماعية . ولقد بين مارتندال أن نظريات علم الاجتماع ابتداء من الوضعية العضوية والصراع الاجتماعى مرورا بنظريات الصورية الاجتماعية والسلوكية الاجتماعية وانتهاء بالوظيفية وقفت مواقف متباينة من الشخصية القومية .

(18) Martindale, Don. The Sociology of National character Opcit.

فالنظريات الوضعية العضوية تمسكت بوجهة نظر مماثلة لهؤلاء الذين جسموا مفهومات العقل الجمعى وروح الشعب وعبقرية الشعب .. وما أشبه . ولقد كان علماء الاجتماع الرواد متأثرين بتقدم نظرية التطور ومثال اعادة بناء الانسانية وبمرور الزمن طورت الاشكال الكلية اهتماماتها وأشارت الى الشخصية القومية . ولقد أظهر الاهتمام الوضعى فى علم الاجتماع أنماط هذا التجسيد .

كذلك كان المدخل الكلى وسيلة نظريات الصراع الاجتماعى لمعرفة الحياة الاجتماعية . وعلماء الاجتماع المسايرون لهذه النظرية يغفلون التجانس الاجتماعى فى هذه الحياة ، ويهتمون بما يوجد فى المجتمعات من مؤثرات وانقسام المجتمع دائما الى زمر متصارعة متحاربة . ولقد أقحمت هذه الفكرة آليا الى مجال الاهتمام تلك الخصائص التى يظهرها الافراد عندما يواجه بعضهم البعض فى مواقف متعارضة واهتموا بالسمات التى يظهرها الافراد باعتبارهم أعضاء جماعات متصارعة نتيجة النظرة الى هذه الجماعات عن بعد . وقسموا البشر الى مجتمعات سياسية لكل منها صورة عامة أو شخصية قومية مقصورة عليها . [illegible] ، ومن ثم تسيطر على أقوى العقول فى الجماعة تقريبا . ولقد دفع التأكيد على الصراعات بين الجماعات أنصار هذه المدرسة الى التركيز على الخصائص التى يكتسبونها البشر بصفتهم أعضاء فى جماعة متصارعة ومن ثم اهتموا بالشخصية القومية .

ولقد رفضت المدرسة الصورية فى علم الاجتماع كل التجسيدات ، واقترحت فى الوقت نفسه دراسة الاشكال الاجتماعية مجردة من مضمونها . وبذا وضعت الشخصية القومية ومشكلاتها جانبا وأغفلت دراستها . أما المدرسة السلوكية من جانب آخر فانطلاقا من نظريتها بأن التفاعلات المعقدة هى محصلة الافراد وأفعالهم فقد اهتمت بالخصائص

المختلفة الشائعة والعامة التى يكتسبها أغلبية أفراد المجتمع ٠ ولذا نجد فى أفعالهم وأعمالهم مفهوما للشخصية القومية يقارب الى حد ما مفهوم مونتسكيو ٠

أما الوظيفية فقد درس بعض أنصارها الشخصية القومية اعتمادا على نماذج لاساليب مستمدة من النظم الانسانية ولكن فى صورة غير وضعية ، وحاول البعض الآخر دراسة الشخصية القومية فى نظرة كلية متخذا مبدأ النفعية أساسا لتوحد الافراد مع الشخصية القومية ٠

وعلى الرغم من هذه المداخل فان دراسة الشخصية القومية فى علم الاجتماع فى حاجة الى تطوير ، ولابد من هذا لتطوير اذا ما وجه علماء الاجتماع اهتمامهم الى المشكلات الاساسية فى عصرنا الحديث ٠ كما ينبغى أن تكون قضاياهم واضحة ٠ وعلى علماء الاجتماع أن يحددوا الطبيعة المميزة للحياة الاجتماعية والفردية للانسان حسب قدراته على التعليم والابتكار باعتبارها الدوافع الغريزية للسلوك الذى يختاره الانسان ٠ ولا ينبغى أن ننظر الى الجماعات باعتبارها نقيض الافراد ، فالسلوك الجماعى هو أفعال أفراد٠ وتجربة الافراد نفسها فى التوترات مع الجماعات هى مقياس لقدرة الفرد على ملائمة أنشطته مع أنشطة الجماعة ٠ وتضحية الفرد بالجماعات هى صور من تحقيق ذاته من خلال الجماعة ٠ ومن ثم فالخصائص [illegible] الافراد فى الجماعات [illegible] ٠ وأهمية هذه الخصائص القومية ترجع الى المكان الذى تشغله الدولة فى العالم المعاصر ، فحقيقة أن السمات التى [illegible] تحول الى [illegible] فكرة الشخصية القومية ، اذ أن الانماط الجامدة هى نفسها قواعد للسلوك لها تأثير فعال فى تكوين

---

(19) Martindale : Ibid.

الخصائص القومية • وتقدم الدراسات التى يقوم بها علماء الاجتماع عن أشكال الحياة الاجتماعية ومعدلات التغير المستمر من الفردية الى الجماعية فى الجماعات والنظم والمجتمعات الصغيرة ذات الانماط المختلفة منابع غنية عن مدى الاهتمام بمشكلات الشخصية القومية • كما يستطيع علماء الاجتماع أن يساهموا مساهمة أكبر فى فهم الشخصية القومية ونزعات الوطنية فى عصرنا بجانب فهم سمات الناس التى تظهر فى مواقف التفاعل خارج الحدود القومية •

وكان موريس جينزبرج من أوائل الاجتماعيين الذين انتبهوا الى الشخصية القومية فى الاربعينات من هذا القرن • وقد قبل موريس جينزبرج مفهوم الشخصية القومية كما ورد عند الانثروبولوجيين ، وأن عدل فى تعريف الشخصية القومية بما يتلاءم وموضوع علم الاجتماع ومنهجه • ويرى جينزبرج أن الشخصية القومية باعتبارها مجموعة متماسكة من السمات التى تظهر بعض الاستمرارية والدوام النسبى(٢٠) يحتل مكانا مسلما به فى الدراسات السياسية والتاريخية • وأن تطابق الجوانب المختلفة لحياة الشعوب يعتمد على وحدة تطوره التاريخى واستمراره • وتدل هذه الشخصية القومية عادة على الشخصية العامة السائدة بين أفراد دولة ما ، وتعبر عن أنماط السلوك فى مجموعها أى طبيعة تنظيم الجماعة كما يتجسم فى النظم السائدة والانجازات الجمعية والسياسية العامة لهذه الجماعة • بل أننا يمكن أن نقول أن وجود النظم الاجتماعية يعتمد على شخصية الافراد كما يشكلهم التفاعل المتبادل بينهم •

(20) Ginsberg Morris : Reason and unreason in society. London . Longman 1948.

وانطلاقا من هذا المفهوم ، يرى جينزبرج :

أولا : أن دراسة الشخصية القومية تعتمد على دراسة الخصائص التى تظهر فى الحياة الجمعية للشعوب وتقاليدهم ، وتعبر عنها السياسة العامة ، وتعتمد على تقصى الفروق الفردية للسلوك ٠

ثانيا : غرض هذه الدراسات اكتشاف ما اذا كانت مظاهر الحياة الجمعية تكشف عن وجود سمات وميول دائمة ومستقرة نسبيا ، وكيف تتكون هذه السمات ؟ ٠

ثالثا : رغم أن الشخصية القومية ترتبط ارتباطا لا حد له بالخصائص العرقية للشعوب فانها قابلة للتغير والتشكل الى حد كبير فى صورتها الحالية ، ومن ثم فليست الشخصية هبة ، وليست شيئا فطريا ، ولكنها شيء يصاغ وتشكله وتفرضه الظروف التى يعيش فيها الشعب (٢١) ، وهذا يتطلب منا دراسة النظم الاجتماعية التى تشكل الشخصية لكى نفهمها فهما واضحا ، كما يستلزم منا معرفة تاريخ النظم وتاريخ النظام الحاكم الذى شكل هذه النظم ٠

وقد تفوق جينزبرج على الانثروبولوجيين عندما بين أن أعضاء المجتمع لايشتركون جميعا فى شخصية قومية واحدة ، اذ أن التباين الاجتماعى الشائع فى المجتمعات الحديثة ، يؤدى الى تباين السمات والسلوك والاتجاهات ٠ وهو يرى أن خصائص الطبقة لها نفس أهمية الخصائص القومية عند الشعوب ، بيد أن الامر المسلم به هو أن أعضاء الطبقة العليا فى مجتمع ما يشتركون فى خصائص مشتركة مع نظائرهم من الطبقة العليا فى الدول الاخرى ، تزيد عن الخصائص التى تربطهم بأعضاء الطبقة الدنيا فى مجتمعهم ٠ وهو يرى أن خصائص

(21) Ginsberg : Ibid.

الطبقات فى المجتمعات الطبقيــة لا تقل أهمية عن الخصائص القوميــة فى تحديد شخصيات أعضائها • كذلك فهنــاك علاقات معقــدة بين النظـم وشخصيات الافراد التى تؤكد هذه النظم وتعبر عنها ، فالنظم هى التى تشكل الناس كما أن الناس هى التى تصنع هذه النظم ، وتعدل فيها •

وقد سلم تالكوت بارسونز برأيه فى موضوع الشخصية القومية ، وبين أن الشخصية القومية لا توجد فى البناء المعقد واللامتجانس • وقبل بارسونز مفهوم كاردنير عن بناء الشخصية الاســاسية الذى يعبر عن العناصر المكونة لبنــاء الشخصية العادية للفــرد فى المجتمع ، ولا يشير الى بنــاء الشخصية الفريدة المميزة باعتبارها وحدة ملموســة محسوسة • وبناء الشخصية الاساسية هو المظهر الوحيــد لبنــاء الشخصية الكلى الواقعى والمعبر الوحيد عن توجيهات القيم وتوقعات الادوار • وهى تتكون بتأثير عملية النشئة الاجتماعية فى طور الطفولة • ويتكون قلب الشخصية من توقعات وتوجيهات القيم والقيم السائدة ، وهــذه العناصر ليست جامدة وليست مرنة يغيرها المــرء حسب ارادته ولكنها تتنوع محتفظة بالسمات الاساسية للشخصية وهى تتغير بتغير تجارب المرء وأهم ما يميز العناصر المكونة لبناء الشخصية هو استقرارها النسبى ، وهذه العناصر ليست عناصر فطرية ، بل عناصر مكتسبة ، يرتبط بها المــرء أثناء عملية التوحد • وبنــاء الشخصية الاساسية بنــاء مستقر استقرارا نسبيا ، ويتغير بناء الشخصية بتغير البناء الاجتماعى كما يتغير من بناء لآخر ، بل هو متغير بين أفراد البناء الواحد ، اذ يتباين حسب المركز الاجتماعى للافراد ومن طبقة لاخرى • كما يتميز بنــاء الشخصية للرجل عن بناء الشخصية الاساسية للمــرأة • فأعضاء البناء الاجتماعى لا يستقطبهم مثال واحد لشخصية أساسية ، فهم يتحركون قليلا أو كثــيرا عن هذه الشخصية الاساسية ويرجع هذا التباين الى أسباب ثلاثة :

أولا : تباين البناء الجسدى وتباين القدرات •

ثانيا : تباين تأثير عملية التنشئة •

ثالثا : اختلاف تأثيرات المواقف على نتائج التفاعل ٠

وقد تفوق بارسونز عن غيره من الاجتماعيين ، عندما ربط بين تباين الشخصية الاساسية بالعمليات الدافعية ، وهذه العمليات الدافعية عنده ليست فطرية ، بل اجتماعية (٢٢) ٠

وقد قبل عالم الاجتماع دهرندوف مفهوم الشخصية القومية (٢٣) ، وأيد وجهة نظر روبرت موسيل أن سكان المجتمع لديهم على الاقل تسع شخصيات هى : الشخصية المهنية والشخصية القومية والشخصية المدنية، وشخصية الطبقة والشخصية الجغرافية وشخصية الجنس والشخصية الواعيـة ٠ وشخصية اللاشعور ، وربما الشخصية الخاصة ٠

فالشخصية القومية عنده ليست هى النموذج (المثال) الذى يشكل سلوك الشخص وطباعه ودوافعه ، بل جانب من الشخصيات التى تؤثر فى تصرفات الشخص واتجاهاته وترتبط خصائص كل هذه الشخصيات فى نفسه ،ولكنها تمحو ذاتيته وفرديته فالانسان يعيش فى مجتمع ، لـه مجموعة من الخصائص والادوار والشخصيات اما شخصيته الخاصة ، والتى ليست من صنعه ، فانها تترك له مجالا صغيرا من الحرية والتى يمكن اذا كان لديه الرغبة والقدرة والقوة ، أن يستغلها فى مسائل خاصة به فقط ، وتقف تلك الشخصية الخاصة ، أمام الشخصيات الاخرى ، وهو لا يصنع تلك الخصائص ، ولكنها توجد فى الخارج ، وعندما يتوحد بها ويبدأ فى افتقاد ذاتيته ، وأداء أدواره فى المواقف الاجتماعية المتنابذة٠ والشخصية عند أدائها لادوارها ليست مجموع تلك الشخصيات التسع، كما أن الشخصية العاشرة أكثر منمجرد تجميع أو تدعيم هذه الشخصيات

(22) Parsons. t, : Social system. 2 th Printing. Glencore. Illionis 1952.

(23) Dahrendorf Ralf : Homo seciologicus. London. Routledge & Kegan Paul 1972. p. 58.

التسع ، اذ أنها تحكم عالما داخليا ، لا تسمح فيه بشخصيات أخرى بجانبها اذ أنها تصهر كل هذه الشخصيات التسع فى وحدة قد تأثرت بها .

أما دون سميث (٢٤) فيرى أنه فى مواجهة الاهتمام الشامل بمصطلح الشخصية القومية فى علوم كثيرة ، وزيادة الاستعمال الواسع لهذا المفهوم فى مجالات متباينة من مجالات التحليل العلمى ، فانه من السخرية أن يكون البحث الحالى فى طبيعة الشخصية القومية موضع خلاف كبير فى العلوم السلوكية ، وهى العلوم التى تبحث خاصية هذه الشخصية نفسها ، وتقوم تلك الانتقادات التى وجهها سميث على الدعاوى الآتيـة :

ترتب[١] خلط كبير فى مضمون دراسات الشخصية القومية بسبب الإستناد على طرق ذاتية لجمع المعلومات وأساليب[٢] للقياس غير واضحة والاعتماد[٣] على عينات صغيرة لا تمثل الامة ، وعدم[٤] وجود نظرية منهاجية ،[٥] والافتقاد الى تحليل خاص للمفاهيم ،[٦] والتحليل البسيط السطحى لظواهر شديدة التعقيد ،[٧] وعدم التأكيد الكاف من صحة النتائج .

وفى محاولة لتقديم بديل لمفهوم الشخصية القومية ، والذى عانى من معاول الهدم وابراز العيوب ، دون محاولة لتقديم عرض بديل ، بين سميث أن [illegible] [illegible] ، وهو يرى أن المدخل السليم لهذه الدراسة هو دراسة منظومة الاتجاهات النموذجية

---

(24) Smith Don : Modal Attitude clusters : A Supplement for The study of National character. Social Forces. Nol 36 pp. 26 - 533.

فى دولة ما باعتبار هذا المدخل اضافة ملائمة تتغلب على نقاط الضعف الكثيرة التى تنشأ عن استخدام مفهوم الشخصية بمعناه النفسى ٠

ومن الناحية المنهاجية ، فان أى تفسير ملائم للشخصية القومية ينبغى أن يخضع تماما لصرامة التجريب ، فضلا عن ذلك ينبغى أن تتوافر فيه أولا : جمع معلومات وبيانات تكفى لاختبار تكرار النموذج وتفسير تعدد النماذج ٠ ثانيا : قابلية هذا التفسير للتطبيق على مجال كبير ، أى على عينة ممثلة ، على أن يدرس كل فرد من المجيبين على حدة (٢٥) ٠

وهو يرى أنه ينبغى على أية دراسة فى الشخصية القومية أن تهتم بالاعتبارات الآتية :

أولا : أن تبحث عن الخصائص النفسية الشائعة نسبيا بين الاعضاء البالغين فى مجتمع ما ٠

ثانيا : ينبغى أن تكون هذه الخصائص موجودة فعلا فى المجتمع ، ولا تكون تركيبا ذهنيا اقتضته الدراسة الاجتماعية أو الطابع الاجتماعى للشخصية ٠

ثالثا : يتعين أن تكون هذه الصفات صفات أساسية جوهرية من الناحية النفسية والاجتماعية ٠

رابعا : ينبغى أن تكون هذه الصفات باقية ومستمرة الى حد ما ، وتحمل طابع الاستقرار ٠

خامسا : يتعين أن تكون خصائص الشخصية أبعادا حاسمة فى تحديد

(25) Smith Don : Modal Attitade clasters. A supplement For the study of National character. Social forces. Vol. 36. Op Cit. pp. 526 - 533.

السلوك وبذلك يمكن الوصول الى مفاهيم تقود البحث الى نتيجة ايجابيـة ٠

ولذا علينا أن نبحث الشخصية لا فى اطار خصائص الشخص ، بل فى اطـار أسباب توافر هذه الخصائص عند مجموعة معينة من الناس، سواء أكانوا شعبا أم دولـة ، ومثـل هـذا البحث يحـاول أن يعرف الاتجاهات السائدة بين الشعوب ، ومدى تفاوت تأثير تلك الاتجاهات بين الاجزاء المختلفة من السكان ٠

وهذه الدراسة فى حد ذاتها تمكن من اجراء دراسـة أكثر دقـة لتكوين الشخصية القومية ومدى استقرارها ، ومدى قابليتها للتغير ، اذ أن دراسة الاتجاهات تفسر لنـا التباين وعدم الاستقرار ، بينما تـرى الدراسة التقليدية أن التباين وعدم الاستقرار يعبران عن انحراف المنهج النظرى أو عدم تكامله ٠

ومن خلال دعوة سميث لمنهج جديد للشخصية القوميـة ، يرفض تلاحم الشخصية والثقافة ، ويرى أن ثمـة فائدة تعود علينا من رؤية الشخصية كمتغير يتجاوز الثقافة ٠ ففى هذه الحالة لا تقارن الامم بعضها ببعض فى اطار توجيهات الشخصية ٠ ومفهوم الشخصية القومية مفهوم واسع لا يعطى لنا نقطا للمقارنة قابلة للدراسة ٠ ولكن تقارن المجتمعات من حيث توزيع الاتجاهات بين أفرادها ، وهذا يتيح لنا اجراء دراسة مقارنة أكثر دقـة (٢٦) ٠

ويتساءل سميث هل البحث فى الاتجاهـات يؤدى بنـا الى انكار موضوع الشخصية القومية ؟ فى كل الاحتمالات فالفـروق بين الدول تظهر نتيجة تباين توزيع اتجاه معين بدلا من الوجود الكلى لصفة معينة فى مجتمع ما وغيابها فى المجتمع الآخر ٠ ولذا فالدراسة الكمية للاتجاهات

(26) Ibid.

تسمح لنا بدراسة التماثل ، مثلما ندرس التباين بين السكان ومثل هذه الدراسات تحول الاتجاه النفسي الذى يغلب على دراسة الشخصية القومية الى اتجاه اجتماعى علمى ، يقتضى سيطرة اتجاهات معينة على معظم أفراد الجماعـة ٠

ولذا فثمة فوائد عديدة تعود علينـا من دراسة الاتجاهات كمدخل لدراسة الشخصية القومية أهمها :

أولا : أنها تسمح باستخدام نموذج الاتجاهات بارتباط أكثر تحديدا بين الخصائص النفسية والصور المحددة للبناء الاجتماعى ٠

ثانيا : وهذا التحديد نفسه يجعل من الممكن اجراء اختبار أكثر تحديدا لتكوين الشخصية القومية ٠ وكيف تستقر ومتى وكيف ولماذا تتغير ؟ وقد تختبر أساليب تربيـة الاولاد ، أو ندرس تأثـير جماعات مرجعية معينة على الاتجاهات فى كل الظروف ، ومن الاهمية أن نعرف أيهما يؤدى بنا الى معرفـة واضحـة للطبيعة التفاعلية للشخصية القومية ٠

ثالثا : تسمح الاستجابات المتباينة نحو موضوع معين ، بتحديد أكثر نقاط المرجع أهمية عند القيام بالدراسات الثقافيـة المقارنة ، ومحور التوزيع هو الاتجاهات ٠ مما يسهل التحليل الاجتماعى للشخصية القوميـة ٠

رابعا : يسمح التحديد الاكبـر والنوعـى لصياغة الاتجاهـات بتوجيه الانتباه الى حقيقة الشخصية القومية ٠ وقد جعلت الدراسات القديمة موضوع الشخصية القومية موضوعا له دلالة وصفية الى حد كبير ، ولكنها فى الوقت نفسه لديها وسائل قليلة لثبات صحة أو خطأ آرائها ٠ أما دراسات الاتجاهات فتطبق مفهوم الشخصية القومية على مشكلات ملموسـة ، وتجعل من الممكن

اختبار صدق هذا المفهوم عند ملاحظة كيف أن هذه التنبؤات الصائبة التى تبنى استنادا على هذه المادة مبرهن عليها ٠

ويرفض الكس انكلز مفهوم الشخصية القومية بمعناها العام الشامل (٢٦)، ويستبدل به مفهوم الشخصية المنوالية ، ويقصد بها مجموعة الخصائص وانماط الشخصية الثابتة نسبيا ـ الشائعة والظاهرة بين اعضاء المجتمع من الكبار والتى توجههم فى فترة زمانية معينة نحو تفضيل الديكتاتورية أو القائد الملهم على النظام الديمقراطي والرأى الجماهيرى أو العكس ٠ والسبب الذى أدى به الى رفض الشخصية القومية بمعناها الشامل ، هو الاعتقاد بأن نتائج الدراسات الامبريقية على عينات صغيرة ، تنتهى دائما الى التعميم ٠ كما أن الدراسة المنهاجية للشخصية القومية الشاملة كموضوع للبحث العلمى تقود الى طريق مسدود ٠

ولقد بين انكلز صعوبة تطبيق آراء جورر على المجتمعات سريعة التغير اذ أن نموذج جورر قاصر ويتطلب التوضيح والتفسير لكى نفهم الشخصية القومية كما تظهر فى ظروف التغير ، كما بين استحالة وجود نمط عام للشخصية القومية يشترك فيه أكثر من نموذج ٠ فلكل نموذج سماته الخاصة به المشتركة بين أفراده فى زمن معين ولكن الامر لا يخلو فى النهاية من وجود سمات مشتركة بين هذه النماذج ٠ ورغم قبول انكلز لمفهوم الشخصية المنوالية فهو يرى ن الدراسات المتداولة التى اهتمت بالشخصية النموذجية ـ ما عدا بعض دراسات جدية ـ تعانى عيوبا كثيرة ٠ وهذه العيوب تجعل هذه الدراسات عقيمة ، وتجعل منها برهانا ضعيفا فى تدعيم أى نظرية ٠ وهذه العيوب هى :

أولا : أنها لم تهدف أبدا اختبار أية نظرية ، أو اثبات أية نموذج

---

(27) Inkles, Alex : National Character and modern political systems op, cit. pp. 201 - 235.

مصاغ ، ولكنها تقوم على عينات صغيرة مختارة عشوائيا ، ومن الصعب تعميم نتائجها بثقة ٠

ثانيا : يتم التحليل على العينة كلها بلا تفرقة بين خصائص الجماعات الفرعية داخـل العينة ٠

ثالثا : يتم وصف الشخصية عادة وفق مفاهيم نفسية اكلينيكية يصعب ربطها بالبناء الاجتماعي ٠

ويرى انكلز أن ثمة خلطا كبيرا مستمرا حـول تعريف الشخصية القومية ،وان الجهد الذى يبذل لتحديد ما الشخصية القومية جهد عقيم ، ولقد وصف انكلز لبعض الجهـود التى عرفت الشخصية القوميـة بأنها تتميز بالقصور والضعف ، ولقد رفض انكلز كل التعاريف التقليدية لان الشخصية القومية لابد أن ترتبط بنظرة موضوعية محددة ، ولذا فأى دراسة تهتم بدراسة الشخصية القومية العامة والشاملة أى المرتبطة بكل الاتجاهات وكل الدوافع والافعال والانساق ــ باعتبارها المجموع الكلى للقيم أو النظم أو التقاليد الثقافية ــ أو أساليب الفعل ، وتعبر عن الثقافة الكلية أو طبيعة الجماهير أو روح الشعب ، تعد دراسة ناقصة لانها تفتقد التحليل العلمى لصعوبة استخدام القيـاس ولغموض قضايـا السبب والنتيجة وتعذر اجراء الدراسة المقارنة والتفسيرية بين العناصر التى تكون الشخصية ٠ ولهذه الاسباب كلها رفض الاتجاه التقليدى المهتم بدراسة الشخصية القومية الشاملة وقبل الشخصية المنوالية باعتبارها تعبر عن ظواهر امبريقية ، لها دلالـة واقعيـة ترتبط بنسق اجتماعى محدد ، تميزها عن الظواهـر الهامة الاخـرى والتـى يمكن أن تدرس باستمرار باستخدام مقاييس موثوق فيها وطرق بحث صادقة ٠

ولقد رأى انكلز أن المدخل المناسب لدراسة الشخصية القوميـة هو معرفة ما اذا كانت هذه الشخصية المنوالية قـد نتجت من مـيراث ثقافى واجتماعى مشترك أو التربيـة أو أسـلوب التنشئة الشائع أو

المشاركة فى ثقافة عامة ، أو التعرض لضغوط تنظيمية محددة أو لاسباب أخرى • وهل ثمـة فروق عامـة فى الخصائص النفسية للشعوب التى تتكون منها الدول القومية الحديثـة ، يرى انكلز أن الاجابة على هـذه الاسئلة اجابة مقبولة تحقق الثقـة العلمية أمـر عسير ، يكاد أن يكون متعـذرا •

ووفقـا لموضوع علم الاجتماع وتباين أنظمة المجتمع الكبير ، أشار انكلز الى صعوبة ميراث الابن لشخصية والديه ، أو أن يعبر فى سلوكه عن قيم مماثلة لقيم والديـه ، اذ يخلق المجتمع دومـا أنمـاطا جديدة لشخصيات المجتمع ولبناء مكونات الشخصية • وفضلا عن تغير بعض مكونات الشخصية من جيل لآخر ، أوضح انكلز أن هذه المكونات تختلف من فئـة اجتماعية لفئـة أخرى فى نفس الفترة الزمانيـة ، فمكونات شخصية الفلاحين تخالف مكونات شخصية عمال الصناعة أو أصحاب الياقات البيضـاء • وحتى اذا ما توصلنا الى معطيات جديدة عن توزيع سمات الشخصية بين أعضاء مجتمع معين ، فثمـة أسئلة ما زالت دون اجابة ، اذ ينبغى علينا أن نفهم على نحو أفضل العلاقة بين الخصائص والاتجاهات التقليدية لمجمـوع الشعب وتوجيهاتهـم بالنسبة لمجموعـة مختلفة من القادة • فالعامل الحاسم الذى يحدد فرص بقـاء الديمقراطية فى النسق السياسى ليس هو سيادة نمط أو أكثر من أنمـاط الشخصية اللاديمقراطية ولكن العلاقة بين الشخصية النمطية أو الشخصية الشائعة وشخصية القادة هى التى تحدد بقـاء هذا النسق ، ومن المشاكل التى علينا أن نواجهها هى العلاقة بين عوامل تكوين الشخصية والعوامل التى تؤثر على العمليـة السياسية فـى مجتمع مـا • فالنظرة السائدة بين دارسى الشخصية القومية أن التنشئة الاسرية هى التى تولد الانماط المختلفة من الشخصيات ، أو كما يقول رالف لنتون أن الامم التى لها بناء أسرى سلطوى تخلق حكومـات تسلطية مهمـا يكن الشكل الرسـمى للحكومات التى تسود فيها ، فدول أمريكا اللاتينيـة لها أنظمة دستورية ديمقراطية ممتازة ولكنها تعيش فى الواقع فى أنظمة ديكتاتورية نتيجة

لبنـاء الاسرة السلطوى ٠ يرفض انكلز هـذا القول تمامـا الذى يقصر تكوين الشخصية على تأثير الاسرة وحدها وتجارب الطفولـة الحتمية ، ويرى أن ثمـة عوامل أخرى هى التى تحدد وتؤثر فـى صورة النظـام السياسى ، وفى الشخصية المنوالية بالتالى وهذه العوامل هى مستوى التصنيع والتحضر والتعليم المدرسى والتربية وثراء الشعب وهذه العوامل ذات علاقة قوية مع النظام السياسى المستقر ، ومن ثم فهذه العوامل والتى ليست بالعوامل النفسية ولا ترتبط بالاتجاهات ، هى التـى تؤثر على تكوين الشخصية المنواليـة ٠

ولقد عرض انكلز للسمات التى تحدد الشخصيات المتطرفة يمينا ويسارا ، وهى الثقـة البالغـة والمبالغ فيها من القادة الاقوياء والاصرار على الطاعة العمياء لهم وكراهية المعارضين والخارجين على النظام والافراط فى اسقاط الذنب عليهم ، والشعور بالعجز التام وعدم الكفاءة والانحراف عن المعايير والاغتراب والشك وسوء الظن بالآخرين والتمسك بحرفية قراراتهم والجمود ٠ ثم طرح سؤالا مؤداه هل بامكاننا أن نعمم النتائج التى توصلنا اليها على مستوى الافراد والمجموعات لتشمل العلاقات بين الشخصية المنوالية والنظام السياسى على مستوى المجتمع فى الدولـة الحديثـة ؟ يرى انكلز أن الدليل التجريبى المنظم للتسليم بصحة هذا التعميم لا وجود له بالرغم من أن معظم دارسى الشخصية القومية يؤمنون بأن الجواب على هذا السؤال بالايجاب ٠

ان أهم ما فى آراء انكلز فى رأينا هو تأكيـده أن دراسـة علاقة الشخصية المنوالية القومية بالنسق السياسى تتطلب ضرورة دراستها بطريقة منهاجية ، وهذه الدراسة تقتضى منـا معرفة توزيع الخصائص المختلفة بين مختلف الجماعـات فى البنـاء الاجتماعى وتوزيعها بـين الجماعات الفرعية داخـل البناء الاجتماعى أو القومية الواحدة ، اذا كان البناء الاجتماعى يتضمن أكثر من قومية واحدة ، وارتباط هذا الاختلاف

فى الخصائص باختلاف أشكال النسق السياسي السائد فى كل هذه الجماعات أو القوميات • ولكن هذه الدراسة صعبة للغاية اذ أن معانى المصطلحات الهامة وأنماط الاستجابة للاختبارات وتفسير هذه الاستجابات تتباين تباينا شديدا بانتقالنا من دولة لدولة ، على أننا يمكن أن نتحقق من الترابط والتحليل السياسى للعلاقات بين الآراء والقيم الشخصية اذا ما تقصينا طبيعة المشاركة فى النسق السياسى أو درجة استقرار البناء السياسى على أساس توزيع الخصائص بين مختلف الشعوب • وبهذه الكيفية نستطيع أن نطور من دراسة اجتماعية نفسية عن العملية السياسية بما يؤيد ويكمل الدراسة التقليدية عن الشخصية من جانب والدراسات السياسية من جانب آخر •

وكل هذه التعريفات التى قدمها الاجتماعيون ، انما هى تعريفات اجرائية ولا شك أن غموض تعريفات السلوك المطلوب اجتماعيا وخاصة القيم والمعايير وتوجيهات القيم ، هى الحقيقة الاولى التى يتمسك بها كل المعارضون لمفهوم الشخصية القومية ، بيد أننا لا نجد آية فرق بين توجيهات القيم والشخصية القومية ، وهذا ما أرتآه سميث عندما اعتمد على مدخل الاتجاهات لفهم الشخصية القومية ، اذ أن مدخل توجيهات القيم يحقق دائما التطابق بين سمات الشخص مع توجيهات قيم المجتمع (٢٨) ،ولكن تتعدد التعريفات لا يعنى أنها لا كلها تافهة أو قليلة الاهمية ، ولكن كثرة التعريفات يوضح ويحدد لنا طبيعة ومجال الظاهرة التى ندرسها من خلال بيئة اجتماعية •

الانثروبولوجيا والشخصية القومية

دفعت الحرب العالمية الثانية الانثروبولوجيين الى الاهتمام بموضوع الشخصية القومية رغبة منهم فى مساعدة حكوماتهم على فهم أعدائهم أو الشعوب الصديقة أحسن فهم • وكان إهتمام علماء

(28) Nett. Enily : an evaluation of the National character concept. op. cit.

الانثروبولوجيا الامريكان منصرفا الى طاعة أوامر أجهزة المخابرات بتجميع معلومات عن الخطاطيص القومية للخصوم والحلفاء · ولكن بانتهاء الحرب توقفت هذ الدراسات ، واعتبرت فرعا من مبحث « الثقافة والشخصية » وكانت المجتمعات البدائية هي موضوع الاهتمام الاساسي للانثروبولوجيا الثقافيـــة · لقد ظهر مفهوم الشخصية لاول مـــرة داخل الانثروبولوجيا الثقافية كاتجاه يحاول أن يدرس الشخصية داخـــل الثقافة ، أو من خلال الثقافة ، أي دراســة الشعوب فـي بيئتهم الاجتماعية · وكانت بداية الاهتمام بهذه الدراسات اتجاه الانثروبولوجيين الامريكيين بتأثـير من حكومتهم ـ الى دراســة الشخصية والثقافة اليابانية ·

وكانت دراســة [illegible] ودراســة لابـــار Le Barre أول دراستين حاولتا مع غيرهما وصف الشخصية اليابانية وربطها بالنظـم الثقافية ، وكيف ينشيء الاطفال تنشئة اجتماعية في هذا المجتمع · كذلك بدأ الانثروبولوجيين دراسة الشخصية القومية الامريكية لمعرفة أوجــه القصور في الشخصية الامريكية التى يمكن التغلب عليها وتلافيها ·

ولقد استمر حماس الانثروبولوجيا في الدراسات المنهجية للشخصية القومية لفترة ٣ أعوام بعد الحرب · ثم انحسر هذا النشاط الى موجة صغيرة جدا من الاهتمام المستمر · ولقد ظهرت أكثر من عشرة كتب في الفترة من عام ٤٢ ـ ٥٣ حول موضوع الخصائص القوميـــة للشعوب ، ضمت بين دفتي كل كتاب دراسات حول الشخصية القومية لليابان أو أمريكا أو روسيا أو ألمانيا · كما أجريت دراســـات انثروبولوجيـــة عن الفرنسيين وشعوب النرويج وهولندا واستراليا والهند ·

واذا كان علماء الاجتماع وعلم النفس قد عادلوا بين مفهوم الدولة ومفهوم المجتمع ، فـــان الانثروبولوجيين يميزون بـــين دراســـة الثقافة والشخصية في المجتمعات القبلية وبين الشخصية القومية للمواطن في الدول ذات السيادة السياسية · والسبب في ذلك واضح لان الشخصية

والثقافة عند الشعوب البدائية لهما أسبقية تاريخية فى تطور الانثروبولوجيا ٠ ولكن الحقيقة الاكثر أهمية أن الانثروبولوجيا تفتخر بأنها تدرس الثقافات باعتبارها كليات ٠ ورغم أنه لا يوجد انثروبولوجى يؤكد حقيقة أنه يستطيع أن يدرك ويحلل أى ثقافة تحليلا كاملا ، فان أغلبهم يعتقد أن لديهم المهارات والقدرات لاستيعاب الانساق الثقافية البدائية كلها ، ودراستها دراسة امبريقية صادقة وجادة ٠

ولقد استمرت القوة الدافعية لحركة المهتمين بالشخصية القومية بعد الحرب بقيادة روث بندكيت وكان محور الاهتمام يدور حول الثقافة والخصائص السلوكية القومية ٠ ورغم عدم الاتفاق بين الانثروبولوجيين على طبيعة الشخصية القومية أو على المنهج الملائم للتعرف عليها ترى روث بندكيت أننا يمكن أن نتعرف على الشخصية القومية بالبحث عن القيم الاكثر أهمية والاكثر استمرارا عند أفراد الشعب ثم نصف النمط القومى فى اطار هذه القيم ٠ وهذا ما دفع بعض العلماء الى دراسة الشخصية القومية [illegible] الخارج ، أما الرؤية من الداخل فترى الشخصية القومية باعتبارها [illegible] ه ، وتدرس الطريقة التى يعرى بها الانسان نفسه فى علاقته بالكل والطريقة التى يبدو بها العالم عند هذا الشعب ٠

ولقد كانت المصلحة القومية للولايات المتحدة هى التى قدمت الدافع والوسائل الى روث بندكيت لدراسة الشعب الامريكى والشعب اليابانى ، والا ما استطاعت أن تقدم وتطبق نظرياتها عن الصيغ الثقافية والشخصية على مجتمع معقد ومتحضر ٠ وكانت النتائج التى حصلت عليها بندكيت مثيرة ، ولكن العيب والقصور كان واضحا فى المنهج واداة البحث ٠ وهذا يصدق أيضا على دراسات جورر وميد عن الشخصية الروسية التى لم تخلص من التحيز السياسى والثقافى ٠

ومن المعاد أن نقول أن دراسة روث بندكيت عن زهرة الاقحوان والسيف - وهى أول دراسة أجريت تحت اشراف الحكومة الامريكية - تعد أول دراسة غربية حازت القبول عن الشخصية اليابانية ٠ ويرى جورر أن بداية الاهتمام بدراسة الشخصية القومية كان نشر كتاب أنماط الثقافة الذى ألفه روث بندكيت ١٩٣٥ وقد أكدت روث بندكيت أن التماسك النفسى بين الانظمة المختلفة التى تكون المجتمع، هو الاساس لاعادة تفسير الخصائص القومية ٠ ووضعت لنا فى هذا الكتاب أسسا جديدة وجامدة للدراسات الحقلية للشخصية القومية ٠

ورغم أن البدايات الاولى فى دراسة الشخصية القوميـة تكمن فى أبحاث بندكيت وجـورر ، [illegible] هذه الدراسات أهمها :

١ - فشلهما فى مراعـاة التمايز الحـادث بين أبنـاء القوميات الكبيرة وتركيزهما على وجود النمط الشائع ٠ ولم يحاولا أن يثبتا التباين الواضح بين بعض أفراد المجتمع وبين هذا النمط الشائع ، هـذا من جهـة ، ومن جهـة أخرى يعاب على هذه الدراسات أيضا اللجـوء الى لغـة الوصف والمصطلحات الفنيـة التى تقوم على الوصف مما لا يسمح باجراء قياس دقيق ، وعدم اللجـوء الى القياس الكمى لدراسة الظواهر العامة السائدة (٢٩)٠

٢ - ينتقد نوربك دراسة بندكيت ، ويرى أن دراستها تعبر عن صورة استاتيكية للانماط الاساسية التى تعبر عن وقت طويل مضى ، كما أنها تتجاهل الفروق بين الطبقات الاجتماعية والتغيرات التى حدثت أثناء سـير التاريخ ٠

٣ - وتعتمد هذه الدراسات على دراسة الثقافة عن بعد ومن ثـم فهى دراسات تفتقد اليقـين العلمى ٠ وقـد أجريت دراسـة عن القيـم

(29) Inkles, Alex : National character and political systems. op. cit,. p. 213.

والاتجاهات في اليابان بعد الحرب وصلت الى نتائج تتناقض مع بندكيت اذا ما طبقت على الريف الياباني ، اذ تجاهلت هذه الدراسة الفروق الاقليمية والفروق الطبقية بين اتجاهات اليابانيين ، نتيجة لقصور الدراسة التجريبية (٣٠) ٠

ورغم هذه الانتقادات التى وجهت الى دراسات بندكيت وجورر ، فانهما مهدا الطريق الى قيام دراسات علمية حول الشخصية القومية ٠ ويرى جورر أن دراسات الشخصية القومية انما هو محاولة لتقديم تفسيرات علمية للخصائص القومية بدلا من التفسيرات الغائية أو الفردية عن الفروق بين الافراد (٣١) ٠

ولكن بعد موت روث بندكيت المبكر (١٨٨٧ ـ ١٩٤٨) ، تولت مرجريت ميد الاشراف على مشروعاتها فدرست اتجاهات السوفيت نحو السلطة ٠ وترى مرجريت ميد أن دراسة الشخصية القومية تحاول أن تتبع الطريقة التى يتوحد بها السلوك الثقافى فى البناء النفسى الداخلى لاعضاء الثقافة ، كما تحاول أن تربط بين النظرية الثقافية والنظرية النفسية فى نظرية جديدة ، تفسر كيف تتوحد الكائنات الانسانية بالثقافة ؟ ، وكيف تتعلمها ؟ ، وكيف تعايشها ؟ ٠ وقد قدمت لنا ميد أساسا نظريا للشخصية القومية بينت فيه أن كل شخص فى الدولة يعكس بالضرورة الشخصية القومية ٠ وهى تعرف الشخصية القومية بأنها تعنى تعريف الاطراد فى الشخصية بين أعضاء جماعة قوية ، يرتبطون بعامل الوطنية المشتركة ٠

كما بينت أن ثمة أنماطا اضافية تدخل فى اختيار الثقافة القومية ٠ تستند على مدى انفتاح المجتمع الذى ندرسه والبناء السياسى

(30) Norbeck, E. : Culture and Personality. By Edward Norbeck and George de Vos. In psychological Anthropology op cit, p. 51.

(31) Georer Geoffery : The Concept of National character op. cit.

والطبقى الخاص بهذا المجتمع • وهى مثل جـورر ترى أن دراسة ثقافات المدن الصغيرة ، مثال للصورة المثالية لدراســة الثقافــة والشخصية ، ووسيلتنا فى ذلك أن نلجأ الى تحليل أساليب تربية الاطفال كمدخل لفهم قيم المجتمع • كما يمكن أن تستخدم هذه الاساليب كجانب أساسى لدراسة طريقة تكوين الشخصية (٣٢) •

ولقد وصفت مرجريت ميـد حركة الاهتمام بالشخصية القوميـة بأنهـا استجابة ملائمـة للاهتمامات القومية ، وتحديد مجـال الدراسات الحقلية بسبب الحرب ، وترى ميـد أن دراسات الشخصية القومية [illegible] المواقف [illegible] الرابع واعتبرت دراســات الشخصية القومية علما تطبيقيا ، وأشارت الى أننــا لا ندرس الشخصية القوميـة باعتبارها أفضل نسق نتتبع من خلاله الارتباط بين الاشكال السياسية وتكوين شخصية الافراد ، ولكننا ندرسها لان الدول القومية على جانب عظيم من الاهمية السياسية كما أن كثيرا من أنشطة الافراد والجماعات والابنيــة الاسرية والعالميــة تحكمها القيم القوميــة ولهذا السبب فان كل دراسات الشخصية القومية ترتبط بمشكلات الاخلاق الاسرية أو بمشكلات السلوك فى الحرب والسلام • فالاضطرابات السياسية على المستوى الاقليمى أو المستوى العــالمى كانت هى الدوافع وراء الاهتمام بالشخصية القوميــة ، اذ لو كان العالم مستقرا لمـا كنـا فــى حاجـة الى اجــراء دراســات من هــذا النــوع • ولكن دافيــد ماندليوم (٣٣) أزعجه اعتراف مارجريت ميــد بأن دراسات الشخصية

(32) Mead M. : National cheracter. In Anthropology toDay. edited krober. chicago press. 1953. p. 542 - 662.

(33) Hoebel Adamsm : Anthropological perspective on National character. The annals of the American Academy of political and social science. op. cit.

القوميــة تحركها بواعث سياسية ، اذ أن هذا الاعتراف يعنى ضمنا أن الانثروبولوجيين أدوات فى أيدى الحكومات ٠ولقد تحدث ماندليوم بلسان الانثروبولوجيين الذين أزعجتهم اعترافات ميــد وقال أنه ليس حتميــا أن تكون دراسات الشخصية القوميــة مرتبطـة باللزوميــات السياسية الســائدة ٠ ولا أن تكون عملا نفعيا بحتا ، اذ أن هذا كله يشوه مجــال الدراسات الانثروبولوجية ، ويلقى ظلال الشك على أخلاق الانثروبولوجيين فأى مجــال للبحث يتقيد بمجموعة من التوترات السياسية لا يمكن الا أن يعانى قصورا فى منهجه العلمى ٠

وتــرى ميــد أن دراســات الشخصية القوميــة تضع الافتراضات التاليــة (٣٤) :

أولا : لا توجد فــروق معروفــة بين السلالات والاجنــاس البشرية ، تتداخل مع عملية تعلم الاشكال الثقافية وتسهلها ٠ فالاشكال الثقافية لا ترتبط بأية قومية أكيدة مع الخصائص السلالية ٠

ثانيا : هناك فروق فرديــة واســعة بين الشعوب يجب أن توضع فى الحسبان ، وتتحقق هذه الفروق بدرجات متباينة ٠

ثالثا : للثقافات جوانبها التنظيمية التى قد تشير الى خصائص بيولوجية معينة لشخصيات الناس ، مثل القدرة على السلوك الرمزى ٠

رابعا : ينظر الى الثقافات الانسانية كانساق ذات أنمــاط تاريخيــة ، تحقق الاتصال بين الافراد بعضها وبعض ، وبين الافراد والبيئة الانسانية والتى تقنن وتعطى معنى للطفل والمهاجر ٠

خامسا : تحمل الثقافات الانسانية خصائص كلية ٠

سادسا : لثقافة كل مجتمع طابعها المميز ٠

---

(34) Mead, M. : National character. op, cit. pp. 642 - 662.

سابعا : علينا أن نتوقع تغير الثقافة ، بتأثير أحداث معينة من الداخل والخارج ٠

ثامنا : تنقل الاجيال المتتابعة الميراث الثقافى بطريقة تجعل كل شخص من طفولته حتى كهولته يساهم فـى تخليد الاشـكال الثقافية واعادة تفسيرها ٠

وترى ميـد أنه من الصواب أن نصف دراسات الشخصية القومية بأنها دراسة تنبع من الثقافة القومية ، ولكنها فى الوقت نفسه فرع من الانثروبولوجيا تستنتج من معايشة التجارب ومعرفـة نتائـج الابحـاث السابقة ، ومبحث الشخصية القومية يعبر عن تطور حديث فى البحث الانثروبولوجى يدور حول مشكلات الشخصية الثقافيـة ، يلجـأ اليـه الانثروبولوجيون، عندما تتضمن تصوراتهم افتراضات عن البناء النفسى الداخلى كما تركز هذه الدراسـات اهتماماتها مثـل كل أبحاث الثقافة والشخصية حول طريقة توحد الكائنات البشرية مع الثقافة التى ينشئون فيها أو يهاجرون اليها (٣٥) ورغم ~~أن ميد تقرر استفادة مبحث الشخصية~~ القومية من قضايا وطرق ~~مبحث « الثقافة والشخصية » فان هذا المبحث من الناحية التاريخية يتميز باتجاهين :~~

~~[illegible]~~ : اختبار مجموعة أشـخاص ذات تقاليـد اجتماعية مشتركة ، تدرس ثقافتهم باعتبارهم أعضاء جماعة سياسية ذات سيادة٠

~~الاتجاه الثانى~~ : يؤدى تعذر دراسة المجتمع باسـتخدام الملاحظـة الميدانية المباشرة الى استخدام أقل عدد من طرق البحث الاخرى ٠

وهى ترى أن الشخصية القومية تـدل على الوحـدات السياسية المعاصرة ٠ ونحن ندرسها لان الدولة فى عالم اليوم لهـا دلالة سياسية هامـة ولان أفرادها يقومون بنشاط كبير فـى المجالين المحـلى والعالمى

(35) Mead. M. : Ibid. p. 642.

وتحكمهم فى ذلك قيم قومية وباعتبارها أفضل بناء أن نتتبع من خلاله الارتباطات بين الاشكال السياسية وتكوين شخصية الافراد (٣٦) ٠ فالمواطنون فى كل دولة من الدول الحديثة يتعرضون لانماط تنظيمية لها صفة الاطراد بيد أن هذه الانماط تختلف من دولة لاخرى ٠ ولذا فان دراسة الشخصية القومية تضع فى الاعتبار نظام الحكم الذى تتجسم آثاره على الشخصية القومية المشتركة لكل أعضاء المجتمع عندما يشاركون فى الانشطة المختلفة سواء على المستوى المحلى أو الاقليمى أو العالمى ٠

ورغم أن ميد أسهمت فى توضيح مفهوم الشخصية القومية ، وبينت أن هذا المفهوم مفهوم اجتماعى له معنى سياسى فانها لم تستند فى دراستها للشخصية على التحليل التاريخى ، بل اعتمدت أساسا على الملاحظة ، ومقابلة الافراد وتحاول أن تعرف كيف تتكامل العناصر الفطرية والانماط العامة والفردية للكائن البشرى مع التقاليد الاجتماعية المشتركة بطريقة معينة ، وتكشف اضطرابات معينة فى سلوك كل أعضاء الثقافة ، وبهذا المعنى تصبح الثقافة تجريد ، يستخدمها الانثروبولوجيون عندما تحاول تصوراتهم أن تتضمن افتراضات عن البناء النفسى ٠

ورغم أن موضوع الشخصية ظهر فى البداية عند علماء النفس ، فانجورر يبين أن محور اهتمام علماء النفس يختلف عن محور اهتمام الانثروبولوجيين ، فالانثروبولوجيون يدرسون الشخصية من خلال الثقافة ، أى يدرسون الناس أثناء تفاعلهم فى البيئة الاجتماعية [illegible] يدرسون الفرد المنعزل ٠ وهم يدرسون الشخصية القومية لهؤلاء الناس فى مجتمع مستقر ٠ وشخصية الكبار وحدها هى التى تحدد السلوك ودوافعه ، أى أن الكبار لا الصغار هم الذين يعكسون الطابع القومى للشخصية ٠ وما دامت الشخصية القومية تفهم فى المجتمع المستقر ، فانه

(36) Mead. M. : Ibid. p. 660.

يسهل دراستها فى المجتمع الصغير الحجم ، ويصعب دراستها فى المجتمع الكبير الحجم ولذا تفضل آية دراسة تبغى الشخصية القومية الصينية أو غيرها فى المجتمعات الكبيرة اللامتجانسة والمجتمعات المتغيرة ·

وقد عرف جورر الشخصية القومية بأنها مجموعة الصفات الشائعة والسمات المميزة لجماعة من الناس مثل الشجاعة والاخلاص والقدرة والمهارة على العمل وحب العمل والكرم والسماحة والبخل والكسل(٣٧) والتى تظهر فىوسط ثقافى معين·وتهدف دراسة الشخصية القومية عنده الى محاولة عزل ووصف الدوافع المشتركة بين أعضاء الجماعة التى تعبر عنها العادات والثقافة المشتركة (فى) دوافع الجماعات الاخرى · ولا تلاحظ هذه الدوافع المشتركة أبدا ملاحظة مباشرة فى الظروف الطبيعية · ولكنها تفهم وتدرك بعد تحليل النتائج الفعلية للسلوك المتتابع · وبناء الشخصية القومية هو بناء العناصر الثقافية التى يشترك فيها أعضاء الثقافة الواحدة ، ويعبر عن التنظيمات الثانوية والجوانب الثقافية السائدة فى المجتمع مثل الفن والاساطير والادب الشعبى ·

ويدل مفهوم الشخصية القومية دائما على بناء الدوافع والسمات والارتباط بينها ولا يوجد دافع مميز لمجتمع واحد ، ولكن يوجد بناء أو ارتباط (بين) الدوافع ، ورغم أن الشخصية القومية هى البناء المميز لهذه الدوافع ، فاننا نجد التفاوت واضحا فى الشخصية القومية فى المجتمعات التى توجد فى منطقة ثقافية واضحا ·

هذا الاهتمام نفسه بالشخصية القومية كان موجودا عند عدد آخر من الانثروبولوجيين · ويرى كليد كلاكهون أن الشخصية القومية محاولة

(37) Gorer Geoffery : The concept of National character. Op. Cit.

لتفسير تكامل أنماط الثقافة ، وتعبر نماذج السلوك السائدة ، وانعكاس أسلوب الحياة ، والنظرة الى العالم عند أفراد المجتمع ، وهى تميز قوما عن قوم ، أو جماعة عن جماعة أو طبقة عن طبقة فى فترة زمانية محددة . وهويساير فىتفسيره للشخصيةالقومية، الاتجاه الانثروبولوجى وهو مثله مثلأغلبية الانثروبولوجيين يحددظهور الشخصية القومية بوجود المجتمع المستقر،ولايعكسها الا جماعاتالفلاحينوالعمال. وتضعفصور الشخصية القومية عند الجماعات المشتركة والهامشية وفى المجتمعات المتغيرة ، كما كما تضعف العناصر المميزة للشخصيـة القوميـة عند الجماعـات ذات التطلعات الطبقية . وهى تكاد تختفى عند أولئك الذين يحتلون مكانة أعلى فلى أعلى السلم الاجتماعى (٣٨) .

ولمـا كان اهتمام الانثروبولوجيين ينحصر فى دراسـة المجتمعات البدائية البسيطة الحجم ، والقليلة العدد ، والصغيرة المساحة ، فان قلة منهم تخصصت فى دراسة الشخصية القوميـة السائدة فـى المجتمعات الكبيرة المعقدة ، بل أن هؤلاء الانثربولوجيين قد فشلوا فى تقديم تفسير ملائم للاعداد الكبيرة من المواطنين .

ولكن حركة اهتمام الانثربولوجيين للخصائص القوميـة للشعوب تعثرت ، ولم يصدر الا كتابان فى أوائـل الستينات حتى نشرت مجلة « حوليات » عن مركز الدراسة الاكاديمية الامريكية فى العلوم السياسية والاجتماعية (٣٩) عددا خاصا عن الشخصية القومية عام ١٩٦٧ وكل كتاب من الكتابين يسجل دراسات حقلية بدأت منذ عـام ١٩٥٠ ، كما ندرت الابحاث المتعلقة بالخصائص القومية للشعوب ، التى تدرس وتبحث

(38) Ibid.

(39) The Amarican Academy of political and social sciences. The annals of The Amercan Academy of polotical and social sciences. philadelphin. Vol. 370. March 1967.

فى الخصائص القومية للشعوب ، وكان الاهتمام منصرفا الى تأكيد تأثير الحرب على دراسات الشخصية القومية ، وثمة عاملان ساعدا على ازدهار ثم تدهور الابحاث المهتمة بالشخصية القومية عند عدد من الانثروبولوجيين الامريكان ، أولهما الحرب العالمية الثانية ، والعامل الآخر الصعوبات الاصيلة الكامنة عند تطبيق الاساليب الانثروبولوجية التقليدية عند دراسة المجتمعات الكبيرة ٠

ويعترف هيبول بأن هناك محاولات بدأت منذ الستينات لاحياء اهتمام الانثروبولوجيا بدراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية ٠ وتتجلى هذه الاهتمامات فى الابحاث المهتمة بعملية التنشئة والتثقيف (٤٠) ٠ وينحصر الاهتمام الحالى فى العمليات التى يكتسب بها الافراد المعايير النمطية التى تميز ثقافاتهم ، والتى يعايشونها أثناء حياتهم ، ولم يعد تفسير النظم الاجتماعية وسلوك الكبار باعتبارهما اسقاطات لاساليب التربية فى الطفولة الاولى محل اهتمام الانثروبولوجيين ، بالرغم مما يتضح من أعمال ودراسات آل هويتنج ومعاونيهما ٠

ومن المهم أن نعرض لطريقة الدراسة والوضع المنهجى الذى التزم به عالمان من علماء الانثروبولوجيا ، الذين نشرا كتابين هامين عن الشخصية القومية فى ١٩٦٠ ، أولهما جوليوس هنرى ٠ ولقد ألقى جوليوس جانبا فكرة الحذر العلمى ومتطلباته وقد تحدى جوليوس ناقديه اذ قال أن دراسته ليست وصفا موضوعيا للامريكان بل ان دراسته أثنوجرافية مغرضة ، وهى دراسة تعبر عن تحيز قوى وحب عميق لامريكا، ولم يستخدم جوليوس المعلومات التى جمعها لتقديم البرهان والبحث بل اعترف بأن ما يقدمه من معلومات يدعم وجهة نظره الخاصة ٠

(40) Hoebel, Adamson : Anthropological perspective on National character, op, cit.

وكانت الدراسة الاخرى دراسة هســو Hsu ، وهى دراسة مقارنة لثلاث ثقافات متباينة تباينا شديدا ، وهى الهنـد الهندوسية والصـين الوطنية قبل اسـتيلاء الشيوعيين على الحكم والولايات المتحدة الامريكية، وكل ثقافة من هذه الثقافات تعبر عن طريقة حياة ، وتكون رؤية مميزة لها محور اهتمام مميز ، أو مركز اهتمام خاص بهـا • فمحور اهتمـام الهندوس القوى الخارقة فى الطبيعـة ، ومركز اهتمـام الصينيين فـى الموقف ، أما الامريكان فيهتمون بالفـرد •

ولقد وصف لنا هسو المـادة الوصفية الاثنوجرافية فى كل بلد ليبين كيف أن التنظيم الاجتماعى لحياة الجماعة يعبر عن توجيهات سلوك الافراد والايديولوجيا السائدة – وبعبـارة أخرى يعبـر عن الشخصية الاجتماعية لاعضاء التنظيم ، وكان مدخل هسو المعاصر مدخـلا تنظيميا الى حد كبير معتمدا على نظرية بنائية متقدمة • ولقد اعتمدت هذه الدراسة على جمع مـادة اثنوجرافية ضخمة من مصـادر ثانويـة عن الثقـافات الثلاث • فالابحاث الخاصة بالصينيين والامريكيين مستمدة من معطيات مأخوذة الى حد كبير من اقامة الباحث فى الصين وأمريكا وتأثره بالانساق الثقافية فى كل منهما أما دراسته عن الهندوس فقد استمدها من دراسته الحقلية التى استغرقت عاما ونصف فى القرى الهندية • ومن ثم فهذه الدراسات وان كانت تتيح قدرة كبـيرة على التنبؤ بسلوك الافـراد فى مواقف معينة ، الا أن مثل هذه الدراسات تذهب بعيدا فى القـاء ضوء تفسيرى عقلانى على الصفات العامـة لمـا يتوقعـه الفـرد مـن شعوب الهندوس والصين والامريكان • وهذا ما يبحث عنه كل الانثروبولوجيون المهتمون بدراسات الشخصية القومية •

ويلاحظ أن المعلومات الوصفيـة قد صاغهـا الباحث فى معلومات عامة ولم يعرض لسلوك أو معتقـدات خاصـة بأشخاص محددين ، كما تجاهل الباحث معايير مرجريت ميـد عن التمثيـل ، ومن ثم فالقارىء لن يطمئن اطمئنانا كاملا الى صدق الباحث فيما يقولـه وما يقدمه من

مستندات • فالواقع أن هسو لم يقدم الا صورا واضحة وفروقا جلية صاغها فى بيانات وتحليلات عامة عن طبائع السلوك عند الهندوس والصينيين والامريكان بوجه عام •

ان جهود الانثروبولوجيين فى اجراء وتدعيم بحوث الشخصية القومية لم تقابل بالحمد والثناء ، بعد أن فضح الغرض منها وبدأ النقاد ينقبون عن أوجه القصور فى هذا الاتجاه الانثروبولوجى حتى أن أحدهم وهو هيبول (٤١) يرى أن فيروس الفساد الذى يحطم أبحاث الانثروبولوجيين عند دراسة الشخصية القومية يكمن فى المجال نفسه وليس فى حقيقة ارتباط اللزوميات السياسية السائدة • اذ أن الباحث فى الشخصية القومية لن يتخلى مهما ادعى عن تحيزه الشخصى •

ولم يكن العيب فى دراسات الشخصية القومية بسبب الالزام السياسى للقائمين بها فقط • بل قد يرجع العجز والقصور فى دراسة الشخصية القومية الى قصور الطريقة الانثروبولوجية ، أى طريقة الملاحظة التى تستغرق فترة زمنية تمتد بضعة أعوام ، لجمع البيانات والمعلومات والتى لا يمكن تطبيقها على المجتمعات الكبيرة مثل الهند والصين والولايات المتحدة ، واهمال بعض هؤلاء الباحثين التحليلات الاحصائية ، واجراء بحوث على عينات تمثل المجتمع الكبير • ويرى هيبول أن أغلب الانثروبولوجيين يرتبكون أمام الاتهام بأنه من الصعب ان لم يكن من المستحيل أن نثبت أن العينات الصغيرة التى خضعت لملاحظة ودراسة أفرادها تمثل أصدق تمثيل الشخصية القومية فى مجتمعات كبيرة مثل الولايات المتحدة وروسيا ، ومن ثم ارتدوا الى دراسة الشخصية والثقافة الجزئية لجماعات محدودة ، غافلين عن دراسة غالبية الافراد فى

---

(41) Hoebel Adamsm. : Anthropological perspectives on National character. Op. Cit.

مجتمع كبير ، أو اتجهوا الى التركيز على استخدام اختبارات الشخصية المستعارة من علم النفس .

ويبين لنا استعراض جهود علماء النفس والاجتماع والانثروبولوجيا، ومن قبلهم آراء الجغرافيين والسياسيين والمشرعين تباين المداخل التى تهتم بالشخصية القومية وان دراسة الشخصية القومية لا يختص ولا ينفرد بها فرع واحد من العلوم السلوكية ولكن دراسة الشخصية القومية نالت اهتمام كل الباحثين ومن أكثر وأخصب المجالات التى تؤكد تداخل العلوم السلوكية وتكاملها . فالمدخل القانونى يركز على المستوى الثقافى والاجتماعى ويهتم بدراسة قواعد السلوك ، كما يهتم الجغرافيون بأثر المكان على الثقافة والخصائص القومية ، بينما يعرف السياسيون الشخصية القومية بأنها مجموعة من الخصائص والسمات والصور التى تميز شعبا عن آخر وتعبر عن التجانس الثقافى كما عرض المنظور السياسى لسؤال فى غاية الاهمية مؤداه هل الشخصية القومية هى التى تشكل النظم السياسية أم أن النظم التى تحدد الخصائص القومية ؟ . أما الاتجاه النفسى فركز على المستويات العميقة لشخصيات الافراد . أما المدخل الاجتماعى فأعطى اهتماما أكبر للابنية التنظيمية والادوار التى يرتبط بها الشخص وأثر ذلك على سلوكه واتجاهاته وتفكيره .

الفصل الثالث

طرق البحث الملائمة
لدراسة الشخصية القومية

- أهمية الدراسة العلمية للشخصية القومية
- الملاحظة
- المقابلة
- استمارة الاستبيان
- الاختبارات الاسقاطية
- تحليل الاحلام
- دراسة سير الاشخاص وذكرياتهم
- تحليل المضمون

الفصل الثالث

طرق البحث الملائمة
لدراسة الشخصية القومية

العلم منهج وآية دراسة تفتقد المنهج ، ليست جديرة بأن تكون دراسة علمية ٠ فهى دراسة لا علمية ، كما أن التمييز بين مشكلات النظرية ومشكلات المنهج انما هو تحليل أكاديمى وتستدعيه ضرورات الدراسة ، ولذا فمن الصعب علينا أن نفصل بين تطور موضوع الشخصية ، وبين تطور منهج الدراسة ، بل أن تطور منهج الدراسة وطريقة البحث – أى دراسة الشخصية القومية استلزم فعلا تغيير موضوع الشخصية القومية ومجال البحث ٠ وقد تبع تغيير موضوعات الدراسة وتحول دراسة الشخصية من دراسة وصفية انطباعية الى دراسة علمية ، حدثين هامين : الحدث الاول تحسن مناهج قياس الشخصية فى المجتمعات الكبيرة الحجم ، والحدث الآخر تطبيق هذه المناهج على نطاق واسع واستخدامها فى اجراء دراسات مقارنة بين الشخصيات فى الدول المختلفة (١) ٠

أهمية الدراسة العلمية للشخصية القومية :

وقد يتساءل هل دراسة الشخصية القومية دراسة علمية أمر متعذر ، نتيجة تباين الاتجاهات والقيم ، وتمايز الانماط الثقافية ، وتعدد الطبقات فى المجتمع الواحد وهل ثمة استحالة لاجراء تحليل منهجى للشخصية القومية ٠ يرد الكس انكلز على هذه الدعوى بأن هناك سببا

---

(1) Inkles Alex : National character and Modern Political systems. Op. Cit. p. 216.

هاما يدعونا الى الاعتقاد بأن مدى التباين فى الشخصية الانسانية ، مهما كان كبيرا ، يمكن أن يحصر باستخدام منهج تصورى يحتوى مجموعة محددة من المفاهيم التى تمكننا من تصميم بحوث تجريبية ، دون التضحية بالثراء المطلوب فى المفاهيم ، أو التباين الضرورى بينها . ويؤكد انكلز أنه رغم الصعوبات المنهاجية الكثيرة ، ومشاكل تعدد المفاهيم ، فانه يمكن تطوير منهج دراسة الشخصية القومية ، وطرق قياسها ، بما يتيح لنا اجراء بحوث تجريبية يصح الاعتماد عليها ، وصادقة فى الوقت نفسه وتوضح الصور القومية لمجموعات متباينة من القوميات (٢) .

وقد مرت طرق دراسة ومناهج بحث الشخصية القومية أثناء تطورها بمراحل ثلاث :

[illegible]ولى : مرحلة الدراسة الوصفية . ولا تعدو أن تكون هذه الدراسات مجرد دراسة انطباعية عن الشعوب ، تعتمد على وصف انطباعى للمجتمعات . ويقوم بهذا الوصف عادة مجموعة من المبشرين أو الرحالة . المر[illegible] ، والتى بدأت ببداية اهتمام الانثروبولوجيين بالشخصية القومية . وقد انحصر اهتمام هؤلاء بدراسة الشخصية القومية فى المجتمعات البدائية ، تمشيا مع الاتجاه الانثروبولوجى الذى يدرس مجموعة من الشعوب الصغيرة الحجم ، معتمدا فى ذلك على طريقة الملاحظة من الداخل . [illegible] ، هى مرحلة استخدام المقاييس العلمية فى دراسة الشخصية ، واخضاع المفاهيم الاساسية للتجريب ، وقد تدعم هذا الاتجاه بعد أن تأكدت الحاجة الى اجراء بحوث عن الشخصية تعتمد على تطبيق المنهج العلمى ، وثبت أن الطبيعة العلمية لمفهوم الشخصية القومية تخضع للاختبار ، وتساهم فى صياغة فروض يمكن التحقق منها .

ويستطيع القارىء أن يتصفح آلاف المقالات وعشرات الكتب عن

---

(2) Ibid.

الشخصية القومية عن أمريكا أو روسيا أو الصين أو فرنسا أو انجلترا أو مصر (٣) ٠

---

(٣) عبد العزيز رفاعى : الطابع القومى للشخصية المصرية ٠ دار النهضة العربية ١٩٧١ ٠
حسن الاسيوطى : المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ٠
حسين فوزى : سندباد مصر ٠ القاهرة ٠ دار المعارف ٠
جمال حمدان : شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ٠ النهضة المصرية ١٩٧٠ ٠
سليمان حزين : سكان مصر ، دراسة تاريخهم الجنسى ٠ المجلة التاريخية المجلد الاول ١٩٤٨ ٠
الاب عيروط : الفلاحون ٠ ترجمة محمد غلاب ٠ القاهرة مطبعة كوثر ١٩٤٣ ٠
حامد عمار : دراسة فى التغير الحضارى والفكر التربوى٠ القاهرة ٠ المرجع السابق ٠
عباس العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية ٠ القاهرة ، دار الشرق (الفصلان الاول والثانى) ٠
محمد محمود الصياد : نفسية الشعب المصرى من أغانيه٠ مجلة علم النفس العدد الاول جـ ٢ يونية ١٩٤٥ ٠
أبو الحسن على بن الحسين على المسعودى : مروج الذهب ٠ ومعادن الجوهر بيروت دار الاندلس ١٩٦٦ ٠
كلوت بك : لمحة عامة عن مصر ٠ الجزء الاول تعريب محمد مسعود القاهرة مطبعة أبى الهول ٠
عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ٠ ترجمة وتحقيق حسن محمد جوهر ٠ القاهرة مطبعة البيان العربى ١٩٦٦ ٠
نعمات فؤاد : شخصية مصرية ٠ القاهرة ٠ الهيئة العامة للكتاب ٠
لين ادوارد : المصريون المحدثون ٠ شمائلهم وعاداتهم ، نقله الى العربية عدلى طاهر نور ٠ الطبعة الثانية ، القاهرة ٠ بدون ناشر ١٩٧٥ ٠
توفيق الحكيم : رحلة حول الشخصية المصرية ٠ أنظر رحلة بين عصرين ٠ دار الكتاب الجديد العدد ٢٧ القاهرة ٠

=

ولكننا اذا نقبنا فى هذه المقالات والكتب الخاصة بدراسات الشخصية القومية الامريكية أو الاوربية أو الآسيوية أو المصرية وعما يعتمد منها على معيار العلم الاجتماعى الامبريقى ، والبحث المنهجى الذى يقوم على عينة ممثلة ، ويستفيد من الاختبارات النفسية المقننة ، ويعتمد على جمع المعلومات والبيانات بوسائل علمية ، فلن نجد أكثر من بحثين أو ثلاثة عن الشخصية الامريكية ، يمكن تقييمها واعتبارها دراسة علمية . فأغلب هذه البحوث تأملية ، تفتقد التجريب (٤) . ويطبق هذا القول على الدراسات التى أجريت عن الشخصية المصرية ، فأغلبها دراسات مكتبية

=

حسن مؤنس : مصر ورسالتها . القاهرة الطبعة الخامسة . مطبوعات الشعب ١٩٧٦

سيد عويس : من ملامح المجتمع المصرى المعاصر . المركز القومى للبحوث الاجماعية ١٩٦٥ .

عبد الفتاح جلال : الشخصية المصرية . أنظر التربية ومشكلات المجتمع تأليف محمد الهادى عفيفى وآخرين . مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٢ .

جابر عبد الحميد : الشخصية المصرية والشخصية العراقية . دراسة مقارنة . المجلة الاجتماعية القومية . المجلد الخامس . العدد ٣ ، ١٩٦٨ .

فرج أحمد فرج : الشخصية القروية المصرية الحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى فى ج.ع.م. القاهرة . المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ١٩٧١ .

نجيب اسكندر ابراهيم : قيمنا الاجتماعية وأثرها فى تكوين الشخصية . تأليف نجيب اسكندر ابراهيم وآخرين ـ النهضة المصرية ١٩٦٢ .

نجيب اسكندر : الاتجاهات نحو الخرافات . القاهرة المركز القومى للبحوث الاجتماعية ، المجلة الاجتماعية القومية المجلد الخامس .العدد الثانى ١٩٦٨.

نجيب اسكندر : الاتجاهات الوالدية فى تنشئة الطفل . تأليف نجيب اسكندر ابراهيم ومحمد عماد اسماعيل . دار المعرفة ١٩٥٩.

(4) Kluckhoon clyde : culture and behavior. Op. Cit. p. 212.

محصلة قراءات الكاتب ، أو نتيجة معايشة لظروف معينة ، أو بتأثير انفعال شخصى للكاتب بموقف طارىء ، كما هو الحال بالنسبة للمقالات التى نشرتها مجلة الفكر المعاصر فى أعقاب هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ . فمعظم هذه الدراسات لا تخرج عن كونها ردود أفعال لاحساس مجموعة من المثقفين بالشرخ الذى حدث فى البناء المصرى بعد النكسة ، ومن ثم فقد افتقدت هذه الدراسات قواعد المنهج العلمى .

وقد حاول فريق من الباحثين أثناء الحرب العالمية الثانية أن يدرسوا الشخصية القومية لبلدان مثل اليابان وروسيا والصين وتشيكوسلوفاكيا ويهود أوربا الشرقية وبولندا وسوريا ، وألمانيا . وقد درس هؤلاء الباحثون الشخصية القومية لهذه الشعوب عن بعد ، واعتمدوا على أقوال المخبرين وتحليل الافلام والمعطيات الثقافية أو تحليل القصص . كما أعطى هؤلاء الباحثون تأكيدا أكبر لاساليب تربية الطفل . وكان هذا الفريق من الباحثين يضم روز بندكيت ومرجريت ميد وكونارد وارنسبرج وجوفرى جورر وسولا بنت Sula والكس انكلز وهانفهان Eugenia Hanfhann وبانتهاء الحرب كان يمكن لهؤلاء أن يزوروا البلدان التى درسوها ، للتحقق من الفروض التى وضعوها ، واستكمال دراساتهم التى بدأوها أثناء الحرب العالمية اذ لم تعد الاسباب التى دعت دون دراسة هذه الثقافات من الداخل موجودة ، ولكن طريقة الدراسة عن بعد والتى سادت أثناء الحرب استمرت . وغاية الامر أن هؤلاء الباحثين قاموا بمقابلة اللاجئين والنازحين من البلدان التى يرغبون فى دراستها وحاولوا تطبيق الاختبارات النفسية عليهم . وقد تأثر المدخل النظرى لهذه الدراسات والتى قام بها مركز بحوث جامعة كولومبيا عن الثقافة المعاصرة (٥) بنظرية فرويد . وكان جل اهتمام هؤلاء دراسة

(5) Barnow Cictor : Culture and Personality. 7 th printing. MoMe-wood. illinois. The Dorsey Pree 1968 pp. 127 - 128.

عملية التنشئة الاجتماعية والتفاعل بين الوالدين والطفل وملاحظة أنماط سلوكية معينة مثل الخضوع أو السيطرة أو الاعتماد على الغير أو الاستقلال أو الميول الاستعراضية وحب مشاهدة الغير فالفرد يتعلم أن يتبنى الانماط المميزة وعلاقات الدور السائدة فى المجتمع الذى يولد فيه ، تلك الانماط السلوكية والادوار التى تختلف من مجتمع لمجتمع • ويمكن لنا من دراسة علاقات الدور والتفاعل بين الجماعات أن نستنبط ونستقرأ صور الشخصية القومية •

وقد خلصت الدراسات التى درست الثقافة الروسية عن بعد الى وصف الشخصية الروسية بأنها متزمتة • فرغم أن الطفل الروسي يطعم بكرم زائد ، ولا يعانى من أية عملية احباط ، ولا تعنت معه أثناء عملية الاخراج ، فانه متزمت نتيجة لاحكام لف القماط حول وسطه (٦) • وكذلك توصل جورر من خلال دراسة الثقافة اليابانية عن بعد الى وصف الشخصية اليابانية بأنها قسرية compulsive وذلك نتيجة لتأثر الطفل اليابانى تأثرا كبيرا بعملية تدريبه على الاخراج بقسوة (٧) •

واذا تصفح الباحث المهتم بالتجريب والتحليل العلمى كتاب الشخصية القومية الامريكية الذى ألفه جورر ، تبين له على الفور ضآلة التحليل الكمى للمتغيرات الاساسية فى البحث ، وافتقاد هذه الدراسة لمنهج البحث الدقيق • ومن أهم العيوب المنهجية في هذه الدراسة

أولا : أن الباحث لم يذكر لنا أعداد الناس التى قابلها ، ولم يصف لنا خصائصهم •

ثانيا : لا تعدو هذه الدراسة الا أن تكون مجرد دراسة وصفية ذاتية تفتقد التحليل الكمى للبيانات •

---

(6) Ibid : p. 129.

(7) Gorer Geoffery : The Concept of National character op. Cit.

ثالثا : لا تصل هذه الدراسة الى آية استنتاجات يمكن أن نتحصل عليها من المعلومات والبيانات التى جمعها الباحث ، وكل ما تدل عليه الدراسة هو مجرد نتائج اثنوجرافية لا تعبر الا عن الانطباعات الذاتية للباحث لا أكثر ٠

رابعا : اهتمت هذه الدراسات اهتماما بالغا بكل التفاصيل ، دون مراعاة لمدى عمومية هذه التفاصيل عند أفراد المجتمع ٠

وبالاضافة الى دراسة جورر التقليدية لشخصية المهاجرين السوفيت كانت هناك الدراسة التى قام بها الكس انكلز وهانفمان وهيلين بير والتى شملت حوالى ٣٠٠٠ روسى من الروس البيض الذين قرروا عدم العودة الى روسيا بعد الحرب ـ أجابوا جميعا على استمارة للاستبيان ، كما سأل ٣٢٩ منهم عن تاريخ حياتهم واختبر ٥١ منهم لاجراء بعض الاختبارات الاسقاطية واختبارات تكملة الجمل ٠ وقد تعرضت دراسة شخصية المهاجرين السوفيت عامة سواء التى أجريت أثناء الحرب أو بعدها ، الى أكبر موجة من النقد ثارت ضد دراسات الشخصية القومية ، لان مثل هذه الدراسات لا تعبر عن الخصائص القومية تعبيرا دقيقا ، فهم يحرصون عادة على اخفاء خصائصهم الحقيقية ، ليسهل لهم الانتماء الى المجتمع الجديد ٠

وفى الحقيقة فالطابع الغالب على دراسات الشخصية القومية الروسية أو اليابانية أو الامريكية التى أجريت أثناء الحرب أو بعدها هو الدراسة الوصفية مما حدا بعالم مثل فاربر الى اتهام هؤلاء الباحثين بالغاء قاعدة أساسية يقوم عليها البحث العلمى ٠ وتنص هذه القاعدة على اظهار أدوات البحث ومناهجه المستخدمة فى الدراسة (٨) ٠ ولقد اتهم فاربر هؤلاء الباحثين بأن بعضهم لم يبين كيفية اجراء الملاحظة وجعل من

---

(8) Farber : The Problem of National character op. Cit. p. 86.

المستحيل معرفة كيفية تنظيم البيانات وكيفية استخلاص النتائج التى توصل اليها الباحث • وقد كانت كل هذه العيوب والانتقادات التى أحاطت بطريقة دراسة الثقافة عن بعد والتى دعت اليها ظروف الحرب ، عائقا أمام تقدم دراسات الشخصية القومية ، بل كانت تعرض وتقدم نتائج لم تصمد أمام التحقيق التجريبى • وقد أثبتت الدراسات المقارنة أن عملية التدريب على الاخراج فى اليابان ليست أقسى من عملية التدريب على الاخراج فى الولايات المتحدة الامريكية • كما أثبتت الدراسة التى قام بها الكس انكلز وزميليه عدم ملاءمة النتائج التى توصل اليها بل والادوات التى استعملها عند دراسة المهاجرين عن بعد (٩) •

بيد أن هذه الدراسات الوصفية لم تستمر طويلا ، وأيضا لم يكتب لانصار دراسة الثقافة عن بعد الاستمرار فى طريقهم ، اذ فرض المناخ العلمى السائد فى العلوم السلوكية نفسه على دراسات الشخصية القومية وبدأت هذه الدراسات تقتدى بخطوات المنهج العلمى • ابتداء من مرحلة صياغة الفروض ، مرورا باجراء دراسات ميدانية سواء دراسة المجتمع كله اذا كان صغير الحجم أو دراسة عينة ممثلة للمجتمع أو قطاع منه اذا كان المجتمع كبير الحجم •

وقد حاولت هذه الدراسات الميدانية أن تتلافى أخطاء كثيرة وقعت فيها الدراسات الوصفية السابقة ، وترى مرجريت ميد أن طرق ومناهج البحث الجديدة التى استخدمت فى دراسات الشخصية القومية ، قد أدت الى نتائج هامة ساعدت على تطوير الابحاث التى تربط بين الانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية الاخرى (١٠) فقصور الدراسات الوصفية وتناقضها دعى الى الحاجة الى تغيير المناهج التقليدية بعد أن تبين أنها لا تساعد على دراسة الارتباط بين الشخصية والتغيرات البنائية

(9) Barnuw Victor : Culture and Personality op. Cit. p. 86.

(10) Mead, M. : National character. Op. Cit. p. 660.

الاجتماعية • كما أن هذه المناهج التقليدية كانت قاصرة عن كشف مدى التحقق من صدق النتائج التى توصل اليها وعاجزة عن قياس مكونات الشخصية • اذ يتطلب البحث فى المتغيرات الهامة الاساسية التى تكون بنـاء الشخصية الاعتماد على مقاييس موثوق فيها وصادقة تسهل لنـا قياس هذه المتغيرات سواء بين السكان كلهم أو بين مجموعة ممثلة منهم •

وكان رد الفعل للدراسات الوصفية ، استخدام العلماء المهتمين بالشخصية المنهج الاحصائى فى تحليـل بياناتهـم التى توفرهـا لهم الاختبارات المختلفة للشخصية • ورغم قصور الطريقة الاحصائية الا أنها البديل الوحيد المتيسر للتوصل الى حقائق علمية اذا لم يتيسر اجراء البحوث فى ظروف معملية (١١) •

ولقد زاد ايمان الانثروبولوجيين والاجتماعيين والنفسيين بضرورة أن تتضمن الدراسة العلمية للشخصية تحليلا احصائيا لتكرار سمة أو مجموعة سمات (١٢) فى جماعات مختلفة فى المجتمع الذى يدرسونه • وكانت احدى النتائج الهامة والاكثر وضوحا للاستخدام المتزايد للتحليل الاحصائى ، التحقق من أن التباين ملحوظ بدرجة لا يمكن انكارها حتى بين التجمعات السكانية الصغيرة ، كما أن التحليل الاحصائى يساعدنا على التغلب على النزعة الذاتية والحد من غلواء الدراسات الاثنوجرافية والاخطاء التى قد يقع فيها أنصار التحليل الكيفى • بيد أن مرجريت ميد قد رفضت المنهج الاحصائى مثلها مثل معظم الانثروبولوجيين التقليديين الذين تخصصوا فى دراسـة مجتمعات بدائيـة محـدودة المساحة ، لا يتجاوز عدد أفرادها بضعة مئات ، وهى ترى أن الدراسات التى تلجأ الى التحليل الاحصائى تتعارض تماما مع الدراسات المركزة التى تعتمد على

(11) Harris Marvin : Anthropological Theory. Op. Cit. p. 453.

(12) Ginsberg, M. : Reason and Unreason in society. Op. Cit. p. 136.

الملاحظة وسؤال المخبرين والتى تستغنى عن العينة ومشكلاتها ٠ بيد أن رفض ميـد للمنهج الاحصائى ولطريقة التحليل الاحصائى ليس له ما يبرره اذا ما درس الباحث مجتمعا معقدا كبير العدد يتكون من مئـات الآلاف أو بضعـة ملايـين من الافـراد ٠ فالطريقة الانثروبولوجية التى تعتمد على التعاطف والمشاركة والمعايشة اليومية والملاحظة لا تقدم لنا أساسا ملائما لصياغة أحكام تصف لنا جانبا من جوانب الشخصية أو مظهرا من مظاهر الشخصية أو نمطا من أنماط السلوك يعبر عن ملايين البشر فى مجتمع كبير يتكون من أنساق اجتماعيـة متشابكة معقدة ، ويتألف من جماعات مهنية يصعب حصرها ، ويضم طبقات عمر عديدة ٠ كما تزداد فى هذا المجتمع الفوارق بين الدخول ، وتتفاوت فيه الفروق الحضرية الريفية ، وتختلف فيه مستويات التعليم فى دراسة الشخصية القومية فى مجتمع صغير محدود مثل قبيلة آلور بنوفاهو وبين طرق البحث التى تستخدم لدراسة الشخصية القومية فى مجتمعات كبيرة الحجم مثل مجتمع اليابان أو المجتمع الالمانى أو المجتمع المصرى ، اذ لا تصلح طرق البحث المستخدمة فى دراسة المجتمعات البدائية البسيطة والتى تتميز بالانساق الاجتماعية البسيطة نسبيا والمحدودة العدد ، للتطبيق عند دراسة الابنيـة الاجتماعية اللامتجانسة أو الثقافات المعقدة التى تضم ملايين البشر ٠ اذ يؤدى اختلاف حجم المجتمعات حتما الى تباين طرق البحث المستخدمة فى الدراسة (١٣) ٠

وقد انقسمت طرق البحث الاساسية التى يعتمد عليها عند دراسة الشخصية القومية الى مجموعتين ٠ كل مجموعة منها تعتمد على قواعد البحث العلمى ، رافضة العودة الى الوراء واللجوء الى الدراسات الوصفية والاستناد الى التاريخ الظنى ٠ وتضم المجموعة الاولى الاساليب المباشرة لدراسة سمات الافراد وسلوكهم وتعتمد هذه الاساليب على ملاحظة سلوك الافراد فى مجموعات أو مقابلتهم وسؤالهـم ٠ أو اجـراء الاختبارات

(13) Mead, M. : National character, Op. Cit, p. 640.

II

عليهم . وتهدف المجموعة الاخرى دراسة السلوك بطريقة لا مباشرة وتعتمد على تحليل الانجازات الجمعية للشعوب ، وقد أثبتت المجموعة الثانية أنها أكثر فائدة وأكثر خصوبة وأجدى نفعا من المجموعة الاولى القائمة على ملاحظة سمات الافراد وسلوكهم . وقد ساعد تحليل الانجازات الجمعية على اثراء دراسات الشخصية القومية بنتائج جديدة كان من الصعب أن نتوصل اليها لو حصرنا مجال الدراسة على الاساليب المباشرة وحدها (١٤) .

ولكن هل التغير فى موضوع ومجال الشخصية القومية هو الذى أدى الى تغير طريقة البحث أم العكس ؟ واذا ما سعى الباحثون الى قيام دراسات الشخصية القومية على أسس منهاجية وموضوعية ، واذا ما هدف الباحثون من الدراسة مقارنة نتائجهم مع نتائج دراسات أخرى سواء فى مجتمعهم أو فى مجتمعات أخرى ، فان هذا الوضع قد يستلزم بالضرورة أن يحدث تحول فى طرق البحث وتغير أساسى فى وسائل جمع البيانات واللجوء الى الاختبارات المقننة وخضوع مفهوم الشخصية القومية للاختبار التجريبى (٥) مما أدى بدوره الى ظهور مفهوم جديد للشخصية القومية .

فمن الواضح أن تطبيق الطريقة الانثروبولوجية التقليدية على دراسة الشخصية القومية فى المدن الحديثة فى المجتمعات الكبيرة لا يحقق نتائج موضوعية مقبولة علميا . ومن ثم فقد اقتضى الامر تطبيق طرق بحث جديدة ، فظهرت أدوات بحث جديدة لجمع المعلومات تختلف تماما عن الطريقة الانثروبولوجية . كما ظهرت أهمية اختيار عينة ممثلة

---

(14) Nett Emily : An evaluation of the National character concept in Sociological theory. Op. Cit, p. 299.

(15) Inkles Alex : National character and Modern Political systems. Op. Cit, 216.

للمجتمع الكبير ، أو اختيار شرائح مناسبة من المجتمع يختار أفرادهـا بعناية عند دراسة الوحدات الاجتماعية الكبيرة الحجم ، والتى يصعب دراستها وملاحظة سلوك أعضائها ملاحظة مباشرة ٠ ولجأ الباحثون عند دراســة الشخصية الى اســتخدام الاختبــارات الاســقاطية والمقاييس الاكلينيكية واستمارة البحث وتحليل المضمون بجانب الملاحظة والمقابلة٠ وتطبيق كل هذه الاساليب أو بعضها عند دراسة عينة ممثلة للمجتمع الكبير ٠ ولكن تطبيق هذه الاختبارات والمقاييس لن يعود علينا بالفائدة بل يصبح مجرد عبث ان لم تقنن هذه الاساليب والوسائل وتطوع وفق الثقافة التى تطبق فيها ٠

وقد أثارت مسألة الطريقة الملائمة لدراســة الشخصية القوميــة حوارا خصبا فى الدراسات الاجتماعية خاصة والسلوكية عامة ، عن أى الطرق أجدى علميا فى دراسة المجتمع الصغير الحجم ، وأيها أكثر ملاءمة فى دراسة المجتمع الكبير الحجم ٠ ويرى فاربر أن دراســة الشخصية القومية لابد أن تفسح مجالا لمـا يطرأ على الشخصية القومية من تغيرات تاريخية ملحوظة (٦) ٠ فالتصور السليم للشخصية القومية هو أنها تمثل شعبا ما فى مرحلة تاريخية معينة ، على أنه من المتعذر أن تحدد بدقة الزمن الذى توجد فيه هذه الشخصية والزمن الذى فيه تنتهى ٠ لكن هذا لا يمنع أن يكـون تصورنا ودراستنا للشخصية القومية ملتزما بالتاريخ ٠ فمن الواضــح أن الشخصية المصريــة المعاصرة تختلف عـن الشخصية المصرية فى عصر محمد على عن عصر مصر العثمانية ومصر الاسلامية ومصر الفرعونية ، وثمة تساؤل آخر يتساءله فاربر عن مدى تباين الافــراد عن مثال الشخصية القومية ٠ والمنهج المقارن فى الدراسات التى تهتم بالخصائص القومية والابعاد الاجتماعية للشخصية منهج أساسى ، اذ تتيح لنا المقارنة رؤية جديدة لخصائص شعب معين أو جماعة معينة من خلال دراسة شعب آخر ٠

---

(16) Farber : The Problem of National Character. Op. Cit. p. 81.

يقودنا كلام فاربر الى ادراك أهمية التعميم بالاستفادة الى الاحصاءات المتيسرة وأهمية المقارنة بين الشخصيات القومية المختلفة للشعوب ، فالتعميم يمكننا من أن نستخرج أكثر الصفات شيوعا بين مجتمع ما ، لتكوين نموذج للشخصية القومية يشترك فيه أفراد هذا المجتمع وان اختلفت طبقاتهم • وبالمقارنة نستطيع أن نحدد السمات القومية التى ينفرد بها مجتمع ما أو بعبارة أخرى تتيح لنا المقارنة معرفة أين تنتهى السمات الطبقية ؟ وأين تبدأ السمات القومية فى كل طبقة (١٧) • فالشخصية القومية اذا وصفت وصفا كاملا وملائما بقدر الامكان ستبرز لنا سماتها الخاصة من حيث أوجه التماثل وأوجه الاختلاف مع الشخصيات القومية الاخرى ، ولنا فى هذه الحالة أن نحاول شرح هذه التماثلات والاختلافات على أساس من العوامل التاريخية والثقافية والجغرافية والعوامل الاخرى التى يعايشها كل المجتمع •

بيد أن الدراسة المقارنة لا تقتصر على جهد باحث واحد ، ولا يستطيع أن يقوم بها بمفرده ، ولا يستطيع علم واحد أن يستقل بدراستها، اذ أن الدراسة المقارنة ينبغى أن تكون موزعة بين علوم شتى • فالبناء الاجتماعى والثقافة وتاريخ الشعب والبيئة التى يعيش فيها هذا الشعب ينبغى أن تدرس اذا أردنا رسم صورة متماسكة وشاملة للشخصية القومية • ومن ثم فتعاون العلوم يفرض نفسه اذا ما ظهرت الطبيعة الحقيقية لمشكلة الشخصية القومية • وعلينا أن ندرك أن المنهج المتبع فى الدراسة سيختلف من شعب لآخر ، ومن ثم فقد يختلف الاسهام النسبى لكل علم من مختلف العلوم الاجتماعية من شعب لشعب •

على أن ثمة مشكلة أخيره تواجه الباحث فى دراسة الشخصية القومية • فالهدف من الدراسة يؤثر على اختيار المشكلات وطرق جمع

---

(17) Farber : Ibid. p. 85.

البيانات وتحليلها أو بايجاز كيفية اجراء البحث فى حد ذاته ، فمثــلا اذ أريد من دراسة الشخصية القومية ايجاد مادة ملائمة لاختبار نظرية عامة فلنا أن نتوقع أن أوصاف هذه الشخصية القومية فى هذه الحالة ، ستكون مجملة وغير كاملة ٠ وسيركز الباحث على الاوجــه التى يراهــا مرتبطة بالفرض المختبر ، أما باقى الصفات فيمر بها مرورا عابرا امــا بتجاهلها تماما واما بذكرها ذكرا موجزا مخلا بأساليب البحث العلمى ٠ وستؤدى مثل هذه الدراسة الى مقارنة أعضاء قومية ما من بعد واحد ، ولكنها لن تتيح لنا اطلاقا أن نستنبط من البيانات المجمعة صورة حقيقية للشخصية القومية فى مجملها ، فقد يكون ثمــة متغير على جانب عظيم من الاهمية فى سمات الشخصية القومية فى مجتمع ما ولكنه يهبط الى مرتبة ثانوية أو مرتبة ثالثة فى سمات شخصية قومية فى مجتمع آخر ٠ ومن ثم علينا أن نكون حذرين جدا فى تفسير وتحليل النتائج التى تتوصل اليها مثل هذه الدراسة ٠

وبعد أن عرضنا للمشكلات الاســاسية فى طرق بحث الشخصية القومية ، نعرض لهذه الطرق ٠

[illegible]ة ٠ الطريقة الاولى ، وتدرس خصائص الافــراد أنفسهم ســواء الخصائص الظاهرة ، والتى تتجلى فى السلوك الظاهر ، أو الخصائص الكامنة ، أما الطريقة الثانية من أساليب البحث فتبغى اكتشاف خصائص الافراد والجماعات والابنية الاجتماعية من خلال الانجازات الجمعية كما يعبر عنها فى الاعمال الادبية أو الانتاج الفنى ٠ ونقرر منذ البدايــة أن العلاقــة بين المعلومات التى نحصل عليها بالاساليب المباشرة وتهتم بالخصائص الفردية والاساليب اللامباشرة التى تهتــم بالخصائص الجمعيــة (١٨) ذات طبيعــة تحتمل التساؤل ٠

---

(18) Duijnker. H. C. J. : National Character and National Stereotypes. Op. Cit, p. 50.

ونحن فى هذا العرض لطرق دراسة الشخصية القومية ، سنصف هذه الطرق بأسلوب يبدو لنا منطقيا ومقبولا ، ونحن لا نزعم أن هذا الوصف يقوم على مبدأ أولى نهائى لا يمكن الاعتراض عليه ، بل نعترف أن هناك تصنيفات أخرى قد تكون أكثر دقة وأيسر فى البحث ولكن الطرق التى نعرض لها تتميز بأنها تقدم لنا معطيات نفسية ومعلومات اجتماعية وثقافية· وسنعرض فى البداية لطرق جمع البيانات التى تهتم بالسلوك الظاهر ودراسة الاتجاهات ثم سمات الشخصية · وأخيرا نعرض للطرق التى ينبغى أن تفسر مكنونات أبنية الشخصية وتكشف عن العناصر الكامنة فى البنـاء الاجتماعى كل ذلك من خلال تحليـل الانتاج الادبى والفنى ، أو بعبارة أخرى من منظور الانجازات الجمعية ·

أولا : الملاحظـة

تهدف هذه الطريقة الى الحصول على المعلومات والبيانات من ملاحظة سلوك الناس وأفعالهم فى بيئتهم الطبيعية · اذ أن ملاحظة السلوك فى موضعه الطبيعى ، قد يعطى نتائج صادقة Valid وموثوق فيها ، كمـا يكشف لنـا عن نزعـات السلوك · ويـدل السلوك الملاحظ عادة عن مؤشرات صادقة عن الاتجاهات قد يؤكد معناها باستخدام مقاييس أخرى أو بتراكم معلومات أكثر وأغزر · واذا ما سيطر الباحث سيطرة كاملة على الموقف الذى يلاحظ فيه السلوك مطبقا المناهج الكمية فى تحليل المعلومات تصبح ملاحظته الشخصية أكثر فائدة من غيرها ، وعندما يلجأ الباحث فى موضوع الثقافة والشخصية الى الملاحظة لقياس الشخصية ، فانه يهتم بالتمييز بين أنماط الثقافة وتعبيرات الشخصية ، وكيف يؤثر كل منهما فى الآخر (١٩) ·

وتساعدنا الملاحظة على تكوين انطباع أولى عن سمات الشخصية وطريقة الحياة السائدة وطريقة أداء الدور ونسق الدور وطبيعة التفاعل

(19) Barnouw Victor. : Culture and personality Op. Cit, p. 171.

الاجتماعى وتركيبات الجماعات ، واتجاهات الناس نحو الملكية وحركات الناس ٠٠٠٠ ثم يتبع ذلك محاولة تفسير ما تشاهده العين تفسيرا اجتماعيا أو نفسيا أو ثقافيا أو تاريخيا ٠

بيد أن طريقة الملاحظة تلزم الباحث تكرار مشاهداته ، والقيام بزيارات متعددة لمواقف التفاعل [illegible] أولهما الملاحظة العشوائية الحرة ، فيها يعايش ويشاهد ويعاين الباحث كل ما يدور حوله ٠ والملاحظة الاخرى ، ملاحظة موجهة منظمة مقيدة ، بأفعال معينة فى مواقف خاصة ٠ ولسنا فى مجال مدى موضوعية طريقة الملاحظة ٠ ولكن يكفى أن نقرر أنه من المحتم أن نلجأ الى استخدام بعض المقاييس ، وأن نقوم بتحديد صورة العينة (٢٠) اذا أريد أن يكون لوصف المادة التى حصلنا عليها من الملاحظة درجة أدنى من الصدق ٠ وعلينا أن نجمع بين الملاحظات التى قام بها بحاث مختلفون فذلك مفيد لتأكيد صدق الحكم النهائى على الشخصية ٠

وقد لجأ علماء علم النفس الاجتماعى مثل روجر باركر وهربرت ميد [illegible] ٠ وقام لويس روجر باركر بدرسات مقارنة للايكولوجيا النفسية للاطفال فى ميد وست كنساس وأطفال مدينة يوركشير بانجلترا ٠ كذلك قام أوسكار لويس بملاحظة سلوك الاسر التى درسها فى المكسيك ٠ وكان الهدف من هذه الدراسة أن يوضح أنماط العمل وطريقة تقسيم العمل عند أسر الفقراء ، ويعتبر فيكتور بارنو دراسة أوسكار لويس التفصيلية عن أسر الفقراء دراسة مناسبة ضمن دراسات مبحث الثقافة والشخصية ٠ وقد قدم لنا أوسكار لويس فى دراسته التى أطلق عليها الاسر الخمس دراسة وصفية مركزة فى يوم واحد عن حياة خمس أسر مكسيكية ٠ ولم يتردد أوسكار لويس فى

---

(20) Duijnker H. C. J. : National Character and National stereotypes. Op. Cit.

هذه الدراسة أن يعرض لنا أفكار ومشاعر الافراد ، وطريقة كلامهم ، وأفعالهم واستطاع من خلال ملاحظة سلوك الفقراء أن يقدم لنا صورة عن الثقافة الخاصة بالفقراء .

وثمة دراسات مصرية استخدمت طريقة الملاحظة المباشرة والملاحظة بالمشاركة ابتداءمن دراسة حامدعمار لسلوا ودراسة عاطف غيثعن قيطون ثم دراسات الواحات المصرية وأسوانوانتهاء بدراسةمصانع تكرير البترول بالسويس ، ودراسات أخرى أجريت عن الانسان المصرى قام بها قسم الانثروبولوجيا بجامعة الاسكندرية .

والباحث عند ملاحظته لسلوك الجماعة لفترة طويلة قد يلاحظ السلوك الحركى أو حركات الذراعين والرأس أو تعبيرات الوجه بغية معرفة معدلات التفاعل الاجتماعى وهو عندما يلاحظ السلوك الظاهر يضع نصب عينيه أن ما يقوله الناس ليس هو المهم ، بل مدى التفاعل الاجتماعى بينهم هو الاهم ، فعليه أن يلاحظ من الذى يسيطر ؟ ومن الذى ينقاد ؟ ومن هو الشخص الخاضع ؟ ومن الذى يشاهد ؟ ، ومن الذى ينصت دائما ؟ ، ومن الذى يصدر القرارات ؟ ، ومن الذى يجادل ويعارض ؟ ، والباحث لا يهتم بالسلوك اللفظى فقط ، بل يعطى القدر الاكبر لملاحظة الاستجابات غير اللفظية ، مثل الابتسامة ، وايماءة الرأس ، والتجهم ، والايماءات ، وكيفية تبادل التحية ، وعلى الباحث ألا يهتم بأقوال الناس بل بما يفعلونه وما يبدو أنهم يشعرون به ويستطيع الباحث من خلال الملاحظة أن يلاحظ متى ينفعل الناس أثناء الحديث اليومى ، وما يتبع هذا الانفعال عادة ، وقد درست مرجريت ميد وجان بيلو مجتمع بالى ، واهتما بتحديدالعلاقة بين الايماءات وتعبيرات الوجه وحركات الاطراف باعتبارها رموزا تحدد أنماط الشخصية .

واذا كان ثمة صعوبات تواجه الباحث أثناء الملاحظة ، أهمها صعو [illegible]

خافيا عن المبحوث ، اذ أن وجود الباحث قد يؤثر الى حـد مـا على من يشاهدهم فالمبحوث يعى عادة بوجود الباحث وخاصة فى بداية البحث ، وقد يجد الناس تبريرات لوجود الباحث بينهم • وهذا التبرير يؤثر بلا ريب فى سلوكهم أثناء حضوره • فالعقبة الاساسية الاولى التى تقلل من شأن الملاحظة هى أن ما يشاهده الباحث يتلون بوجوده الى حد ما ، كما تتأثر ملاحظاته باتجاهات الناس نحوه ولكن يمكن التغلب على هذه العقبة اذا استخدم الباحث وسائل خفية لملاحظة السلوك فى البيئة دون أن يشعر المبحوث بوجود الباحث ••• والعقبة الثانية مصدرها الباحث نفسه ولقد يتعاطف الباحث تعاطفا مفرطا ازاء بعض مظاهر السلوك وقد يدفعه هذا الى تجاهل مظاهر سلوكية أخرى • فما يشاهده الباحث قد يتأثر باتجاهاته وقيمه وطريقة حياته ، وتؤثر تلك العقبة الثانية فى الظواهر التى تخضع للملاحظة • والعقبة الثالثة هى : تأثر الباحث غير المدرب باستجابات الناس وردود أفعالهم نحوه وشعورهم منه ، وينعكس أثر ذلك على تصرفاته نحوهم وعلاقاته معهم •

وتعد الملاحظة بالمشاركة أهم أشكال الملاحظة ، ويقصد بالملاحظة بالمشاركة أن يقوم الباحث بدور فى الحياة اليومية العادية للمجتمع ، ويدلى برأيه فى مشكلاته ويتفاعل مع الناس ، ويكون علاقـات معهم ، ويرتبط بالمخبرين ارتباطـا وثيقـا باعتبارهم مصدرا أساسيا للمعلومات، وقد يواجه الباحث الذى يلجأ الى طريقة الملاحظة بالمشاركة مشكلة مؤداها أنه يريد الحصول على المعلومات نفسها التى يتقصى عنها الطبيب النفسى من مرضاه أحيانا ، بينما لا يقوم هو بدور الطبيب النفسى ، أى مساعدة مرضاه على الشفاء • فالباحث ينشـد مساعـدة المخبرين ويدفعهم الى الحديث معـه بغية الكشف عن الاسرار الخفية فى الجماعة ، ومعرفـة مشكلات الحياة الزواجية والمشاعر نحو الوالدين ، وعلى مثل هذا الباحث أن يعمل بحرص خشية أن يفقـد اهتمام وصداقـة المخبرين مصـدر معلوماته •

و لا لو جـ

ثانيا : المقابلة

تعتبر المقابلة طريقة هامة من طرق دراسة الشخصية القوميــة ، وتتطلب المقابلة مواجهة بين الباحث ومبحوث واحد أو أكثر يتبادل معهم الحوار • والمقابلة طريقة قريبة من الملاحظة ، بل أن المقابلة تكمل الملاحظة اذ توضح المقابلة ما يشاهده الباحث أثناء الملاحظة • فالباحث لا يكتب فقط ما يخبره به المبحوث ولكنه يلاحظ سلوكه كذلك ، وما يصدر عنه من ايماءات ، وكيف يتحدث ، وأسباب حيرته ، ومصدر اعتراضاته ، فالمقابلة تتضمن الملاحظة عندما يبغى الباحث الحصول على معلومات ، أو آراء أو اتجاهات ومشاعر الناس • على أن المقابلة تستلزم أن يكسب الباحث ثقــة المبحوثين وأن ينشأ بينه وبينهم تعارف وود ، حتى لا يخشونه • فالباحث فى المقابلة يبغى الحصــول على البيانات التى يريــد الطبيب النفسى معرفتها من مرضــاه فى حين أنه لن يقوم بدور الطبيب النفسى ، فالمريض يلجــأ الى الطبيب النفسى فى حين أن الباحث يريد معلومات يتبرع بها المبحوث بل يضطر الى دفع أموال لتشجيع المبحوثين على التحدث بصراحة ، ولا شك أنهم فى أول الامــر سيحاولون اخفاء بعض أسرارهم عليه ، وسيتهربون من الاجابة عن المشاكل الخاصة التى تتعلق بالعلاقات الزواجية والعلاقات الوالدية ، على أن ثمــة ظاهرة تعتبر ميزة فى المقابلة تحسب لها ، ذلك أن الناس يتكلمون بحرية أكبر أمام الغرباء منهــم أمــام المعارف والاصدقاء (٢١) •

وهذه الطريقة شائعة فى المجتمعات المحلية • وتسهل هذه الطريقة استخدام التحليل الكمى بجانب التحليل الكيفى ، كما تيسر من صياغة المادة العلمية فى رموز مصطلح عليها ، وتسهل لنا الحصول على معلومات صريحة وواضحة ، كما تتيح لنا اجراء الدراسة المقارنة •

---

(21) Barnouw Victor : Culture and personality Op. Cit.

والمقابلة نوعـان : النـوع الاول هو المقابلـة الحـرة التلقائيـة العشوائية ، والنوع الاخر المقابلة الموجهة ٠

ثالثا : استمارة الاستبيان

الاستبيان طريقة أخـرى لجمع البيانات عن الشخصية القومية ، وتعتمد تلك الطريقة على تقنين السؤال ٠ وتشمل استمارة البحث مجموعة من الاسئلة المحددة ٠ يتضمن كل سؤال مجموعة من الاجابات ، يتعين على المبحوث أن يختار منها الاجابة الملائمة ٠ والاستبيان أداة هامة ذات قيمة كبرى للحصول على معلومات ذات قيمة حقيقية ، وتيسر لنا الحصول على المعلومات المتعلقة بالقيم والاتجاهات٠ والمعلومات التى نحصل عليها من استمارة الاستبيان تؤلف مادة علمية تخضع للاختبار والقياس تفسر لنا الشخصية القومية ٠ ولذا ينبغى أن يصاغ السؤال صياغة موضوعية ، تمنع تحيز الباحث ، بغية الوصول الى نتيجة موثوق فيها ، تحقق الفرض أو تدحضه ٠

وهذه الطريقة هى الاكثـر شيوعا والاكثـر أهمية عند دراسـة الشخصية على مستوى المجـال الكبـير ، بل حتـى دراسـة المستويات العميقة للشخصية ٠ وتهدف استمارة الاستبيان عادة اختبار فرض ٠ أو مجموعة فروض ٠ وتسهل لنا دراسـة الشخصية بواسطة اسـتمارة الاستبيان ، اجراء دراسـات مقارنـة للشخصية على المستوى القومى والعالمى وتعد صياغة السؤال أداة مهمة ومفيدة لهذا النوع من الدراسة ٠ لكى تجرى دراسات الشخصية القومية على أساس أكثر دقة على المستوى التجريبى ٠

واذا كانت أغلب الاختبـارات النفسية التى درسـت الشخصية اعتمدت على السؤال ، فان أهـم المشكلات التى تقف عقبة أمـام هـذه الطريقة ، هى مشكلة صياغة السؤال ٠

ولكن ثمة بضعة اعتراضات يقدمها ديوجنكر Duijnker, (٢٢) على استخدام اختبارات الشخصية فى مجال الدراسات الاجتماعية ٠ أولها

(22) Duijnker, H, C. J. : National Character and National streotypes Op. Cit, p. 62.

أن هذه الاختبارات لا تضيف جديدا الى المعلومات التى يتحصل عليهـا الباحث الاجتماعى أو الانثروبولوجى من المقابلة أو الملاحظة وان كانت هذه الاداة أكثر تحديدا. ويجب ألا نعتبر استمارة الاستبيان بديلا عن الملاحظة أو المقابلة، ولكنها أسلوب مكمل فى البحث، توصلنا الى المعلومات نفسها التى توصلنا اليهـا الملاحظـة والمقابلة ، ولكن من جانب آخـر ، فبالاضافة الى كونها تقدم لنا معلومات اضافية ، فانها تعطى الفرصـة لمراجعة المعلومات التى حصلنا عليها باستعمال طرق أخرى . أما الاعتراض الثانى فمؤداه أن مثل هذه الاختبارات تقيم وسيطا بين الباحث والمبحوث، فاختبارات الاستبيان تعتبر عقبة أمام الاتصال المباشر بينهما . وقـد يكون فى هـذا الاعتراض بعض التجنى وفى الحقيقة فهذا الاعتراض لا مكان له اذا أجرى الاختبار تكملة للملاحظة والمقابلة ، وقام به باحث خبير متمرس له مهارات تحقق الفائدة من الاختبار . ولكن رغم هذين الاعتراضين فلهذه الاختبارات مميزات ، ومن أهـم هـذه المزايا أنهـا موضوعية ومقننة ، وتحقق دائما نتائج ثابتة ، وتتيح الفرصـة دائمـا للمراجعة الموضوعية ، وتقلل من فرص التفسير الذاتى ، وبالرغم مما يثار حولها من اعتراضات فانها تضيف لنا دائما معلومات جديدة ، ومـادة علمية خصبة ، تختلف عن المعلومات التى قد نحصل عليها من المقابلة أو الملاحظـة اذ أن الاختبارات التى تعتمد على السؤال تؤكد وتتعمق فى دراسة جانب من جوانب الشخصية لا يتيسر لنا الحصول على معلومات عنه أثناء المقابلة الثنائية ، وخاصة عندما تدرس العوامل الكامنة لسلوك معين ، أو الاسباب البعيدة لسلوك محدد . ومن ثم فهذه الاختبارات ضرورية لتساعدنا على تحليل المعلومات المتاحـة لنـا بطريقـة أكثـر تحديدا ، وأكثر ملائمة . ولكن لكى تحقق هذه الاختبارات الفائدة المرجوة منها يتعين أن تقنن (٢٣) وأن تصاغ الاسئلة صياغة محكمة ، وأن نراعى

(23) Duijnker . Ibid. p. 59.

عند الصياغة سهولة تفريغها وتحليلها وأن تتلائم مع البيئة الثقافية التى تطبق فيها ٠

كل هذه الصعوبات الفنية فى استمارة الاستبيان ابتداء من صياغة الاستمارة مرورا بالتقنين وانتهاء بتركيب الاسئلة بما يتلائم والوسط الثقافى تفجر لنا صعوبة وخطورة مشكلة الترجمة الحرفية لهذه الاختبارات ٠ اذ أن تطبيق هذه الاختبارات فى بلدان تختلف اختلافا أساسيا فى نظمها وعاداتها وثقافتها عن البلد الذى صيغت من أجله الاستمارة يجعل فائدتها فى هذا البلد الآخر محدودة ٠ ولقد باءت بالفشل كل المحاولات التى تطبق استمارات الاستبيان دون تعديل أو تحوير بما يتلائم مع الظروف البيئية الجديدة ٠ والافضل أن تعاد صياغة الاسئلة على ضوء ما أدركه الباحث من الملاحظة والمقابلة ٠

رابعا : الاختبارات الاسقاطية

تهدف الاختبارات الاسقاطية الحصول على معلومات وبيانات تتعلق ببناء الشخصية والجوانب العميقة للدوافع وديناميكية الشخصية، كما تمدنا هذه الاختبارات الاسقاطية بمعلومات خصبة عن القيم والاتجاهات والافكار الثقافية (٢٤) اذا ما اعتمد الباحث على أدوات مناسبة وملائمة لتفسير المادة العلمية التى يتحصل عليها ٠ ورغم الاعتراضات التى توجه الى الاختبارات الاسقاطية ، وأهمها مشكلة التقنين وصعوبة اعطاء درجات موضوعية على نتائج الاختبارات والصدق عند التنبؤ بالسلوك ــ رغم هذه الاعتراضات ــ فانها تحقق هدفا محددا ومفيدا عندما تبرز مواضع الصراع المحتملة وتوضح الاتجاهات الهامة فى الشخصية ، والتى يصعب أن يعبر عنها باللفظ أو تشاهد بالعين ٠

---

(24) Duijnker : Ibid.

ومن الاجدى أن يطبق هذه الاختبارات الاسقاطية ويفسر نتائجها متخصصون وخبراء فى هذه الاختبارات ، من أجل تحقيق الموضوعية ، وتمثل هذه الاختبارات مراجعة موضوعية لتطبيقات أخرى ، تقلل من غلواء التفسير الذاتى وتطرف الادراك الفردى ولذا فهى تساعد الباحث الاجتماعى على تحليل مادته وبياناته بطريقة أكثر موضوعية وأدق تحديدا٠

(١)

ويرى فيكتور بارنو Barnouw ان اختبار بقع الحبر لروشاخ (٣) واختبار تفهم الموضوع لموراى ، هما أكثر الاساليب الاسقاطية استخداما، وأكثرها شيوعا فى دراسات الشخصية والثقافة (٢٥) ٠ ويتكون اختبار بقع الحبر لروشاخ من عشر بطاقات تشمل كل منها على بقعة من الحبر ٠ وتكشف هذه الاختبارات عن مجموعة متسقة منظمة من نقط الحبر ، نصفها ذو لون واحد وبعضها ملون ٠ وتعرض هذه البطاقات على المبحوث بترتيب معين ، ليروى ما يشاهده فى الصور بينما ينصت له الباحث ويسجل أو يدون ما يسمعه كما يدون زمن الاستجابة لكل بطاقة ٠ وبعد أن ينتهى المفحوص من التعليق على البطاقات العشر ، يبدأ الباحث فى تحليل أجزاء البقعة التى نالت اهتماما من المبحوث ، وكيف كانت استجابته لها ومدى وعيه بها ٠ ولا يعتمد نتائج التحليل كثيرا على مضمون الاستجابات بل يهتم أكثر بكيفية الادراك والدقة فى تمييز الاشكال والتفرقة بينها وطبيعة العوامل التى تحدد استجابة معينة (مثل لون البقعة والحركة التى تميزها أو التكوين) ٠

وقد استعمل هذه البطاقات لاول مرة عالم االطب النفسى هارمان روشاخ فى عام ١٩٢٢ ويرى روشاخ صاحب هذا الاختبار الاسقاطى أن استجابات المبحوث ليست الا مفاتيح لفهم بناء الشخصية ٠ ووفقا لتحليلات روشاخ يعطى لنا الشخص المستقر فى عواطفه الناضج انفعاليا صورة أفضل وأحسن من الشخص الذى فقد الاتزان العاطفى ٠

(25) Victor Barnouw : Culture & Personality Op, Cit, p. 239.

١٤١
١٤٦
روشاخ
اختبارات
نقط الحبر
البطاقات

وقد لعب هذا الاختبار دورا بارزا وواضحا فى الدراسات الرائدة التى قامت بها ديبوا فى مجتمع آلور ، وأيضا استخدم جالدوين وسارسون هذا الاختبار عندما درسا مجتمع الاتراك • واستعان به هالدوول عندما درس شعب سالتوكس •

وكان جوليوس هنري أول من طبق هـذا الاختبـار فى دراسات الشخصية القومية فى ثقافة غير غربية • الا أنه لن يعود اليه اذا ما قام بدراسة ميدانية مـرة أخرى • وقد أثار اعتراض جوليوس موجة من الخلاف بين الاجتماعيين والانثروبولوجيين حول مدى فائدة هذا الاختبار ومدى قيمته فيما يتعلق بغرض البحث والنتائـج التى يتوصل اليها ، وأيضا حول طريقة تطبيقه • وعلى العموم فقد انتقد استخدام اختبار روشاخ لنقط الحبر فى الدراسـات المقارنـة اسـتنادا الى أن معـانى المتغيرات ليست متماثلة فى الثقافات المختلفة ، وأن المحللين لم يتفقوا على تفسير موحد لهذه البطاقات ، وان مغزى ودلالة الحركة واللون والتكوين ومعانيهم فى البقعة الواحدة يتباين بتباين الثقافات •

وقد استعمل هذا الاختبار فى مجال الدراسات الاجتماعية فى مصر مرتين ، المرة الاولى استعمله حامد عمار عندمـا درس أساليب التنشئة الاجتماعية فى قرية سلوا (٢٦) ••• وتظهر لنا هذه الدراسـة بعض السمات الاساسية لبنـاء الشخصية فى سلوا • الا أن صغر العينة لا يسمح لنا بالتعميم والتفسير الذاتى • ولقد طبق عمار هذا الاختبار على مجموعتين • المجموعة الاولى من الذكور البالغين والمجموعة الاخرى من تلاميذ وتلميذات المدرسة الابتدائية بالقرية • وتضم كل مجموعة ٢٠ شخصا • وقد أجريت الاختبارات كلها فى بيت الباحث ، بعد محادثة ترتفع فيها التكلفة بينه وبين المبحوث • وقد قام عمار بنفسه بتحليل

(26) Amar Hamed : Growing Up in an Egyptain Village. op. cit.

الاستجابات بعد التدريب على اجراء مثل هذا التحليل ٠ وقد عرض الباحث لنا استجابات البالغين لبطاقات بقع الحبر ، دون الصبية ، والامر المثير للدهشة كما يرى عمار عدم رفض أية مبحوث لاى بطاقة من البطاقات العشر ٠ وقد أظهر لنا تحليل الاستجابات ، أن أعضاء هذه الجماعة لديهم القدرة على الانتاج والمثابرة كما أنهم لا يستسلمون بسهولة ٠ ويميل هؤلاء الناس الى رؤية المواقف فى حالة عملية محسوسه ، وينصرف تفكيرهم الى المواقف الواقعية أكثر من التفكير فى المجردات والمطلق وبجانب هذه الواقعية فى التفكير فهم يفتقدون الخيال الابداعى وهم يعطون اهتمام بالتفاصيل الجزئية وهم يعانون من تسلط أفكار مقلقة فى عاداتهم ، كما ينزعون الى مواجهة المشكلات مواجهة عشوائية وهم يتقبلون أفكار الآخرين دون نقد أن تمحيص وهم جامدون فى نظرتهم الى الحياة ، ولديهم رغبة دائمة فى التوافق ويميلون الى الحرص فى معاملاتهم ، وتظهر بطاقات بقع الحبر الملونة أنهم انبساطيون ، وأكثر استعدادا ٠٠٠ للاستجابة لردود الفعل العاطفية ازاء مواقف العالم الخارجى ٠ وقد أظهرت استجابات الاطفال لبقع الحبر معاناتهم للخوف وتوقعهم المكروه فى كل لحظة ، كما تظهر تكرار الاستجابات لاشياء تثير الفزع مثل الغول والذئب والحية والنار والدم والعقرب ٠ وقد كشف تطبيق اختبار بقع الحبر طبيعة مجتمع سلوا الانفصالى التى يميز بين الذكر والانثى ٠ ويعبر الاطفال عن هذا المجتمع الانفصالى بتلك العبارة ٠ « هؤلاء بعض النسوة يلبسن ملابس سوداء ، وهؤلاء بعض الرجال يلبسون ملابس بيضاء » ، بالرغم من أن بطاقة الحبر تخلو من آية دلالة على هذا الحكم ٠ أما الاستعمال الآخر لاختبار بقع الحبر لروشاخ ، فقد تم عند دراسة عادة الاخذ بالثأر فى قرية بنى سميع فى محافظة أسيوط بقصد التعرف على خصائص ومكونات الشخصية الاساسية فى هذه الثقافة المحددة ، لكن هذه الدراسة لم تنشر بعد ، رغم مضى أكثر من عشرين عاما على اجراء الدراسة (٢٧) ٠

---

(٢٧) أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعى والشخصية مدخل لدراسة المجتمع٠ الجزء الاول ـ الاسكندرية الهيئة العامة للكتاب ص ٢٤٢ ٠

كذلك استخدم بلوررز اختبار روشاخ لدراسة سكان السهول الممتدة فى غرب مراكش فى الثلاثينات من هذا القرن (٢٨) • وقد ظهر أن نتائج هذهالدراسات تتباين الىحد ما معنتائج الاختبارات التى أجريت فى أوربا • وقد يسأل البعض هل يمكن تعميم نتائج الاختبارات التى أجريت على أهل البربر على جميع سكان المغرب ••• الجواب على ذلك بالسلب ، فهذه النتائج تعكس أنماط ثقافة أهل الشمال ، نتيجة عدم الاحتكاك الثقافى بين بلاد الشمال والجنوب ، وانعزال سكان منطقة الجنوب ، وانخفاض مستواهم التعليمى ، وعدم اتصال هؤلاء بالثقافة الاوربية •

وبالمثل قام انتونى والاس باستخدام اختبارات روشاخ عند دراسة الشخصية القومية لشعب ايروكسون • واستعمل كابلان هذا الاختبار أيضا عندما درس مجتمع زيونى وشعب نوفاهو واستخدمت كورديبوا اختبار روشاخ وتحليل رسوم الاطفال عندما درست شعب ألور ، ووصلت الى نتيجة مماثلة للنتيجة التى وصل كاردنر عندمادرس هذا الشعب ، وهى أن هذا الشعب يتميز بسطحية العواطف وعدم الطمأنينة واللامبالاه •

اختبار اسقاطى آخر ، شاع استعماله فى دراسة الشخصية القومية • والدراسات المقارنة ، هو اختبار تفهم الموضوع الذى صممه هنرى موراى Murray ويعرض هذا الاختبار على الفرد مجموعةصور تتضمن أشخاصا ومواقف متباينة تتراوح فى درجة وضوحها ، وفى درجة اتفاقها مع المألوف أو شذوذها عنه • ويطلب من المبحوث فى هذا الاختبار أن يتخيل قصة عن كل صورة ، ويسأل المبحوث عادة عما أدى الى ظهور هذا المشهد ويطالبه بأن يصف أفكار ومشاعر الافراد فى مواقف التفاعل كما

(28) Inkles Alex : National character and Modern Political Systems Op. Cit, p. 215.

تبدو فى هذا المشهد وأن يخبرنا بما يتوقع أن يؤدى اليه هذا الحدث ٠ وتحكى هذه القصص مواقف عن علاقة الشخص بأمه ، وترمز مواقف أخرى لعلاقة الشخص بأبيه أو صديقته ٠ كما تظهر بعض الصور مظاهر الطموح ، والبعض يعبر عن مواقف درامية ٠ وتكشف القصص التى يرويها المبحوث بعد مشاهدة الصور عن اتجاهات ومكونات القيم الكامنة٠ ويهتم الباحث فى التحليل اهتماما أكبر بالاشخاص والموضوعات التى يحكيها المبحوث تكملة للمشهد ولم يكن لها وجود فى الصور ، كما يعطى اهتمام أكبر للعناصر الظاهرة والهامة فى الصور ، والتى أغفلها المبحوث٠ كما يحاول أن يعرف الباحث كيف ينهى المبحوث الاحداث ، هل ينهى هذه الاحداث نهاية مؤلمة وفاشلة أو نهاية سعيدة وناجحة وهل ينتهى كل شيء بالفشل ، وما الوسائل التى يستعملها المبحوث لتحقيق أغراضه وهل يبرر استخدام الوسائل اللاشرعية والملتوية أم يلح على استخدام وسائل شريفة ومقبولة اجتماعيا لحل الصراعات والوصول الى الهدف ٠

ويرجع الاهتمام باختبار تفهم الموضوع الى امكان تطبيقه فى ثقافات مختلفة واجراء دراسات مقارنة بين النتائج ٠ وقد تظهر بعض الصعوبات عند تطبيق اختبار موراى ، أهمها صعوبة تطبيق هذا الاختبار فى ثقافات تختلف اختلافا كبيرا عن الثقافات الغربية اذ تتضمن بعض الملامح والرموز التى تعكس طريقة حياة الطبقة المتوسطة الامريكية ، والتى لا دلالة أو معنى لها عند الشعوب البدائية الاخرى ٠ ولكن يمكن التغلب على ذلك باختيار صور لا تعكس الحضارة الغربية ٠ ويجدر الاشارة هنا الى أن هناك تحويرات كثيرة قد أجريت على هذا الاختبار بما يتلاءم مع الثقافات التى تطبق فيها ، لكى يصبح لهذه الصور دلالتها القومية والاقليمية ٠

قد انتشر استعمال هذه الاختبارات بين الانثروبولوجيين والاجتماعيين المهتمين بدراسة الشخصية الاجتماعية أو القومية ٠ فنجد الكس انكلز وهوفمان وبيير قد طبقوا اختبار تفهم الموضوع واختبار

تكملة الجمل (٢٩) ، على عينة صغيرة من المهاجرين الروس ، واستنادا الى نتائج هذه الدراسة استخلصوا نمطا مركبا عن الشخصية الروسية ، وميزوا بين النمط الاساسى لهذه الشخصية ونمط مغاير لها يعبرعن المجموعة المتبقية فىالاتحاد السوفيتى لكنهم لسوء الحظ لم يربطوا بين توائق الجماعة ككل مع النظام السياسى السوفيتى ونمط الشخصية الشائع ، والذى يتضمن الحاجة القومية الى الانتماء ، والحاجة المميزة الى الاعتماد ، والتبريرات والاستجابات العاطفية ، ومقاومة الخجل من الفشل عند الاداء الشخصى· وقد أدى هذا الى وجود درجة عالية من عدم التطابق بين نمط الشخصية الروسية وأوضاع كثير من الروس ·

وترجع الاهمية الاساسية للاختبارات الاسقاطية مثل اختبار روشاخ واختبار تفهم الموضوع الى أن مثل هذين الاختبارين لا يتطلبان معرفة المبحوث بالقراءة والكتابة كما هو الحال بالنسبة لاختبارات أخرى · وثمة ميزة أخرى لاختبار روشاخ هى امكانية تطبيقه على طبقات العمر المختلفة من الجنسين · ولكن ثمة صعوبة تواجه اختبار روشاخ فى المجتمعات غير الغربية ، هى صعوبة تفسير المتغيرات التى يختلف فهمها من ثقافة لاخرى ·

ولقد زادت أهمية هذه الاختبارات الاسقاطية ، لانها تسمح باستخدام المنهج الاحصائى ، واستعمال التحليل الكمى لقياس متوسط تكرار كل سمة أو سمات معينة ولا ريب أن تدعيم هذه الاختبارات بالتحليل الكمى يزيد من مقدار الثقة فى نتائجها ·

بيد أن لجوء بعض علماء الاجتماع والانثروبولوجيين الى الاختبارات الاسقاطية عامة واختبارات علم النفس خاصة لم يجد قبولا عند بعض

(29) Inkles Alex . National character and Modern political Systems. Op. Cit, p. 215.

الاجتماعيين والانثروبولوجيين فنجد جورر يرفض استخدام مثل هذه الاختبارات الاسقاطية والمقاييس النفسية ، باعتبار أن الشخصية القومية بناء تاريخى أكثر منه بناء فردى .

هذا الرفض من جانب جورر ، أدى ببعض المهتمين بالشخصية القومية الى تعديل الاختبارات الاسقاطية ، فمثلا عدل دى فوس De Vos وزميله واجاتسوما Wagatsumma فى اختبار موراى ليتلائم مع المجتمع اليابانى ، ليمكن لنا أن ندرس اتجاهات اليابانيين نحو السلطة والامبراطور والخدمة العسكرية ، وأيضا دراسة اتجاهات الناس ازاء بعض المواقف الشخصية . ولم يكن دى فوس وزميله وحدهما هما اللذين غيرا من هذا الاختبار ، فهناك باحثون عدلوا من الصور والاشكال بما يتلائم مع الواقع المحلى ، ومواقف التفاعل الجديدة .

وهناك أمثلة عديدة لدراسات كثيرة ، مثل الدراسات التى أجريت على أطفال شعب نوفاهو وهوبى والقرى اليابانية وجماعة الافريقيين المتمثلين للثقافة الاوربية الغربية والاتراك والمكسيكين . ويؤكد اختبار تفهم الموضوع المعدل كطريقة اختبار اسقاطية امكانية تطبيقه فى ثقافات متباينة تسهل اجراء الدراسات المقارنة. ويرى بارنو أن اختبارات تفهم الموضوع بعد تعديله أفضل من اختبار بطاقات بقع الحبر لروشاخ عند دراسة الشخصية القومية (٣٠) ذلك لان اعتمادنا فى نتائج بقع الحبر يعتمد على متغيرات تختلف مغزاها من ثقافة لاخرى .

بيد أن هناك فرقا بين اختبار بقع الحبر لروشاخ واختبارات تفهم الموضوع المعدلة. فمن الواضح أن هذه الاختبارات المعدلة لا يمكن أن تحقق مقارنات بين الثقافات من النوع الذى يحققه اختبار روشاخ . ففى اختبار روشاخ يشاهد كل شخص نفس البقع العشر بنفس الترتيب ، سواء أكان المبحوث من الاسكيمو أو من سكان خط الاستواء ، أو من سكان نيويورك

(30) Barnouw Cictor : Culture and personality. Op. Cit. p. 263.

أو بكين أو الرياض بالسعودية ، أما اختبار تفهم الموضوع المعدل ، فلدينا عدد من الاختبارات المعدلة تقدم مجموعة متباينة من المثيرات، ولا يعنى هذا عدم فائدتها وعقمها بل العكس فهذه الاختبارات تقدم لنـا معلومات أوفى وأدق ولكنها لا تسمح باجراء دراسة مقارنة ناجحة بين الثقافات على مستوى عالمى ٠

خامسا : تحليـل الاحـلام

اعتبر جورج ميردوك تفسير الاحلام ، مظهرا عاما للثقافة ولا تقتصر أهمية الاحلام على أنها سمة انسانية عامة بين البشر بل على أن الاهتمام بالاحلام ومحاولات تفسيرها ظاهرة عامة توجد فى كل الثقافات ، ويقدم لنـا تفسير الاحـلام رموزا ذات قيمة لفهم شخصية الفـرد على ضـوء ثقافة معينـة ٠ ومن ثم تعد هذه الرموز وسيلة للدراسات المقارنة بين الثقافات ، وتعكس لنا الاحلام عادة الثقافة التى يعيش فيها الشخص ، وقد درس فرويد قبل الاجتماعيين الاحلام ٠ وقد بـين فرويد أن ثمـة أحلاما تقتصر على ثقافات معينة دون غيرها منها الحلم بأن المرء عار دائما وما يتبع من ذلك الحلم يقتصر على الثقافات التى نالت حظا عاليا من الرقى وأصبحت الملابس فى حد ذاتها دليل المركز والشخصية ٠ ولا معنى لمثـل هذا الخجل فى المجتمعات البدائية ٠ وثمة مثـال آخر ساقه فرويد هو حلم السقوط فى الامتحان ، ومن الواضح أن مثل هذا الحلم يقتصر على على الثقافات المشابهة لثقافاتنا والتى تعتبر فيها الامتحان خطوة الى الرقى « فيوم الامتحان يكرم المـرء أو يهان » ٠

وقد عرض لنا بارنو Barnouw مدخلين عامين لدراسة الاحلام (٣١)٠

المدخل الاول يقوم على فكرة أن الاحلام مظهر جمعى لثقافة معينة فقد جمع الاحلام من عدد كبير من الافراد فى مجتمع معين ، ثم درس السمات المميزة للاحلام فى هذه العينة ٠ واستنادا على فكرة أن الاحلام تقوم على أساس

(31) Barnouw : Ibid. p. 214.

جمعى ، فقد اهتم هذا الباحث بالمضمون الظاهر للحلم ، واهتم فى هذه الدراسة باجراء المقارنة بين الثقافات المختلفة وأيضا بين أشخاص من الجنسين من طبقات العمر المختلفة ، كما قارن بين أحلام أشخاص يشغلون مراكز متعددة فى السلم الاجتماعى . وقد أطلق على هذا المدخل اسم المدخل الجمعى . أما المدخل الآخر فيتطلب تسجيل أحلام الشخص ، وتفسيرها من خلال تطور تاريخ الشخص والاستعانة بمعلومات اضافية عنه تجمع بواسطة الاختبارات الاسقاطية ويستطيع هذا المدخل أن يحدد المضمون الكامن للحلم ، ويعرف هذا المدخل باسم المدخل الفردى . ومن الدراسات الهامة فى الشخصية التى استندت الى تفسير الاحلام دراسة ديبوا لاحلام شعب آلور من أجل فهم شخصية هذا الشعب .

ويستند هذا المدخل على أن لبعض الاحلام معنى مشترك فى كل مجتمع وهذه المعانى تكمن فى أعماق الوظيفة البيولوجية للشخصية (٣٢) فى ثقافة معينة ، كما أوضح ذلك فرويد حين بين أن معظم أحلام الكبار ترمز الى رغبات شهوية أو رغبات ذات دلالة ثقافيــة تمتد فــى جذور التاريخ فمثلا فى ثقافات البحر المتوسط والشمال يرمز السيف والحية الى القضيب فى حين ترمز الحقيبة والصندوق والغازة الى العضو التناسلى للمرأة ويرى بارنو أن الافكار والمشاعر والاتجاهات والدوافع تأخـذ عـادة أشكالا مصورة فـى الاحلام تعكس دائما الثقافة التى يعيش فيها الشخص .

وقد تأثر الباحثون فى دراسات الشخصية القومية فيما يتعلق بمشكلة الرموز فى الاحلام ، بآراء فرويد وفرانس بواس فى النسبية الثقافية ، وان كان أغلبهم تأثر بآراء النسبية الثقافية أكثر مما تأثر بآراء فرويد .

والسؤال الجدير بالبحث حقا هل جمع الاحلام وتفسـيرها أمـر جدير بالاهتمام ويستحق العناء المبذول فى مجال دراسة الشخصية أم

(32) Barnouw, Victor : Ibid. p. 222

لا ؟ • انقسم الباحثون فيما يتعلق بالاجابة على هذا السؤال الى فريقين • يتزعم الفريق الاول بارنو الذى يرى أنــه بالرغــم من أن الاحــلام هامة ومفيدة ، فانها لا تعطينا قدرا كبيرا من المعلومات عن أنماط الشخصية • الفريق الثانى ويتزعمه كروبر ودورثى فيؤكد أن دراسة الاحلام تكشف لنا عن مكنون الشخصية أكثر مما تكشف لنا دراسة التراجم ودراسة السيرة الذاتية للشخصية (٣٣) •

سادسا : دراسة سير الاشخاص وذكرياتهم

تعتبر دراسة الفلاح البولندى التى قام بها توماس وزنانيكى ، من أروع الاعمال وأكملها والتى سجلت السير الشخصية الذاتية وذكريات الاشخاص ومواقفهم • وتعد المـادة العلمية التى جمعها توماس وزميله نموذجا للمادة التى يستعان بها فى التحليل الاجتماعى ومن أهم الدراسات التى يمكن الاستشهاد بها فى مبحث الثقافة والشخصية أى عند دراسة الاشخاص فى البيئة الاجتماعية أو الثقافية • كذلك كان تلاميذ بواز ــ الذى شك فى قيمة دراسة سير الاشخاص ــ من الرواد فى جمع السير وتاريخ حياة الاشخاص فى المجتمعات البدائية التى درسوها • وقد زاد الاهتمام بالسير ابتداء من عام ١٩٣٠ ، بتأثير مدرسة التحليل النفسى التى ركزت دراساتها على الفرد •

ومن أهم المؤلفات التى تضمنت تحليلا عن حياة الاشخاص فى مبحث الشخصية القومية ما كتب عن شعب آلو ، والشعب التركى ، وما كتب عن السود فى الولايات المتحدة كذلك دراسة أوسكار لويس عن أبنــاء عائلة شانزا ، والتى عرض فيها قصة حياة الابناء الاربعة لاسرة فقيرة فى مدينة مكسيكية •

---

(33) Barnouw Victor : Ibid. p. 235.

وفي مجال دراسة الشخصية القومية يبدو من الافضل أن نبــذل بعض الجهود لتفسير المـادة العلمية التي نحصل عليها من هذه السير ، وعلينا أن نرتب ونوفق بين المعلومات التى نحصل عليها خاصة اذا كانت لاكثر من عضو من أعضاء الاسرة وهذه الدراسة ليست عمـلا سـهلا ٠ فهناك مشكلات عديدة تواجه المعلومات المتوفرة عن قصة حياة الاشخاص أهمها مشكلة العينة ، وطرق جمع المـادة العلمية ، وتسجيلها وأهـم من ذلك كله ، أى الاهم من تحليل قصة حياةالشخص هو هل الشخص الذى ندرسه متكيف مع البيئة الاجتماعية أم لا ، وهل يسرد الشخص تاريخ حياته وذكرياته ومواقفه واهتماماته وظروف حياته بلا مقابل مادى ، أو بقصد الحصول على مكافأة ٠

ويرى دويجنكر Duijnker, أن دراســة تطور السـيرة الذاتيـة للشخص فى البيئة الاجتماعية تعد شكلا من أشكال المقابلة ، وتبغى هذه الدراسة أساسا تسجيل هدف واضح ، أى أنهـا تبغـى تحقيق غرض معين (٣٤) ٠ وهذه الدراسة منبع خصب لصياغة فروض تخضع للتفنيد ومصدر أساسى للحصول على معلومات خصبة تساعدنا على اختبار الفروض العلمية ٠ وعندمـا ينصت الباحث الى المخبرين وهـم يسردون قصص حياتهم ، عليه أن يوجه المقابلة ، ويلقى أسئلته ، ويحدد نوع المعلومات التى يريدها ، اذ أن الباحث لا المخبر هو الذى يحدد قيمـة المعلومات وأهميتها ٠ وقد تكون المعلومة ذات دلاله هامة عند الباحث ، ولا أهمية لها عند المبحوث وعلينا أن نعى تماما أن بعض المخبرين كثيرا ما يزيفون المعلومات، ويختلقون الاحداث ويرتجلون روايات لا تربط بينها علاقات محددة ، ويسردون قصصا خيالية بيد أن ذلك لا يقلل من قيمة المعلومات التى يحصل عليها الباحث المدرب ٠

---

(34) Duijnker : National Charater and National streotypes Op. Cit. p. 202.

ودارس الشخصية القومية يسعى ألا تكون كل السير مرضية وكاملة بالمعنى الحرفى للكلمة ، فنحن نجد فى السير والتراجم الشخصية الرموز التى تدل على قيم واتجاهات الافراد ، كما يمكن لنا أن نستشف منها مدى انتشار أفكار وعقائد معينة ، ولما صار الشخص على ما هو عليه • كما أن توثيق ما نحصل عليه أمر ضرورى ، لنتأكد أن مالدينا من معلومات كاف ومقبول فمن المهم أن نقوم بجهد لتفسير المعلومات ، اذ أن هذا العمل ليس بالامر السهل •

بيد أن معظم السير التى قدمها الباحثون لا تدل دلالة كافية على الشخصية الاجتماعية أو الشخصية القومية للشعوب التى درسوها ، فحتى السير الكاملة التى حللوها ليست الا انعكاسا باهتا لحياة بعض الافراد بكل ما تحمله هذه الحياة من تعقيدات وخروج على المألوف وعلينا أن نتجنب دراسة الاشخاص الذين لم يوفقوا فى حياتهم مثلما نتجنب دراسة النوابغ والشواذ ، وعلينا أن نتفادى الخطأ فى دراسة كليد كلاكهون عن الهنود الحمر ، عندما درس سير أشخاصا أكثر عجزا عن التكيف من غيرهم • ولذا فاذا أردنا أن تكون دراستنا لتحليل السير والتراجم مجدية ، فانه يتعين علينا أن نحصل على معلومات عن أكثر الاشخاص نجاحا ، وأكثرهم توافقا • اذ أن مثل هذه المعلومات تعطى لنا صورة أكثر توازنا للشخصية الاجتماعية فى المجتمع الذى تدرسه وتكشف لنا عن القيم والاتجاهات السائدة •

سابعا : تحليل المضمون

طريقة أخرى من طرق دراسة الشخصية القومية ، هى طريقة تحليل مضمون الانتاج الثقافى : وتستخدم هذه الطريقة كل أنواع الابداع الادبى والفنى مثل الحكايات الشعبية والقصص والامثال والاناشيد والاغانى والنكت والرسومات والاساطير والفنون الجميلة والافلام الثقافية ، ويهتم أنصار هذه الطريقة باستخدام أساليب التحليل النفسى بتحليل التعبيرات الادبية ومواقف الطفولة فى الثقافة •

وتقوم كل هذه الدراسات على افتراض مؤداه أن تحليل العمـل الثقافى أو الانتـاج الفكرى يؤدى بنا الى معرفة الشخصية القومية، ما دام الاديب أو الفنان ملتزمـا بالواقع الاجتماعى ، منتميا الى قضاياه ، مرتبطا ارتباطا عضويا بالمجتمع ومشكلاته . ويؤكد هذا الاتجاه أهمية تحليل الاعمال الادبية أو الانتاج الفكرى كما يتمثل فى كتابات المفكرين أو الادباء وأن حبكة العمل الادبـى أو محتوى المقـال تعكس الافكـار الخفية التى تكون الشخصية القومية . وقد قامت هيئة بحث تغير الوضع الاجتماعـى للمـرأة فى مصر المعاصره بتطبيق هـذه الطريقة فى مصر ، حيث درست صورة المرأة المصرية المعاصرة كما تظهر فى المجلات النسائية وبين هذا الفريق بعد تحليـل مضمـون بعض القصص أن الشخصيـة النسائية فى مصر أميل الى السلبية والعاطفية والغيرية منها الى الايجابية والعقلانية والذاتية (٣٥). ويرى جورر أن الافلام السينمائية التسجيلية والدعائية أكثر الوسائل تعبيرا عن الطابع القومى وتقدم مادة هامة اذا ما حللت أفكارها تحليلا موضوعيا مما يؤدى الى اكتشاف سمات معينة لا يتسنى اكتشافها من سرد القصة السينمائية التى يعبر عنها الفيلم والتى تتأثر بانحياز المنتـج . فمثـلا فـى تحليل الافـلام السينمائية البريطانية تبين أن الموضوع الرئيسى فى الافلام يدور حول الصراع بين الرغبات والضمير ، وفى الافلام الفرنسية كان محور الصراع بين الرغبات وطبيعة الحياة ذاتها ، أما الافلام الامريكية فكان الصراع يدور حول ظروف خارجية يمكن التغلب عليها ، ومن ثم بين تحليل مضمون هذه الافلام الامريكية أنها لا تعبر عن الواقع الامريكى ، وانمـا تعبر عن انحيـاز المنتج وعلى هذا الدرب سارت الافلام المصرية التى ينتجها القطاع الخاص،

---

(٣٥) مصطفى سويف (مشرف) : صورة المرأة كما تقدمهـا وسـائل الاعلام ، دراسة فى تحليل المضمون للصحافـة النسائية – القاهرة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والثقافية ١٩٧٧ .

فهى لا تعكس من قريب أم بعيد آلام وآمال وتطلعات ومعاناة وايجابيات وسلبيات الشعب المصرى ، كما لا تعبر عن أخلاق وعادات المصريين فى الريف والمدينة ، ويظهر تحليل بريد القراء فى الصحف ، مدى استياء المصريين لما تظهره هذه الافلام من صور باهتة عن المصريين ولكن تحليل بعض الافلام التليفزيونية مثل عادات وتقاليد أو بعض البرامج والتمثيليات الاذاعية مثل عائلة مرزوق أفندى ، يسهل لنا استدلال بعض سمات المصريين مثل الصبر والحزن والمعاناة والتواكلية والتماسك الاسرى .

ويمكن لنا لو حللنا النكتة المصرية ، أن نستدل أن الشعب المصرى مرح ساخر ومحب للنكتة ، كما تعبر النكتة عن ذكائه وسرعة بديهته وخفة ظله ، ويظهر تحليل النكت السائدة والرائجة بين المصريين ان النكت السياسية والنكت الجنسية هى النكت الاكثر انتشارا ، والنكت السياسية كانت وسيلة هذا الشعب للتفريج عن الغضب المكبوت ضد الحكام ، واختفائها يعنى أن المجتمع حبلى بثورة . أما النكتة الجنسية فهى تعبر عن ولع المصريين بالجنس واعتقادهم بتفوقهم الجنسى ويقول أحمد الحوفى « ان النكتة سلاح استعمله المصرى لمقابلة المناقضات والامور المختلفة والحظ العاثر والسخرية اللاذعة ، فهى بقدر ما تعبر عن التهكم والنقد والدعابة تعبر أيضا عن السخط وتمهد للثورية (٣٦) .

ويهتم دارس الشخصية القومية بدراسة الاغانى الشائعة والمواويل مثل أغانى الحب والقدرية . وتعكس هذه الاغانى عادة السمات النفسية السائدة ، وتعبر عن القيم الراسخة المتغيرة ، فهى تظهر سمات مثل التفاؤل والتشاؤل والعجز والقدرة . ولقد استدل محمد الصياد من تحليل الاغانى المصرية فى الاربعينات من هذا القرن ولع الشعب المصرى

---

(٣٦) أحمد الحوفى – الفكاهة فى الادب أصولها وأنواعها . الجزء الاول القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦ ص ٢٥ .

بالغناء ، وأن أروج الاغانى تلك التى تتميز بطابع حزين يعبر عن حرمان الشعب المصرى • ولقد أكد تحليل بعض الاغانى أن من خصائص المصريين فى تلك الفترة التعاون والهدوء والارتباط بالارض والصبر والحب العميق للنيل والشكوى من هجر المحبوب وعدم معرفة الحب الصريح (٣٧) ، وكل هذه الاغانى تصدرها المدينة الى القرية من خلال أدوات الاتصال ، كما يبين تحليل هذه الاغانى الشعبية أنها تصور تصويرا رمزيا ضياع الشعب المصرى •

ومن الضرورى أن يهتم دارس الشخصية القومية بتحليل بريد القراء فى الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية والاعمدة الرئيسية فى الصحف والتى يكتبها قادة الرأى والفكر ليعرف مواقف الجماعة ، ومدى اهتمام الناس بمشكلات معينة ، ومثل هذه الدراسات التحليلية ذات أهمية وفائدة عند دراسة الشخصية القومية ، لان تحليل الافكار التى يتضمنها الانتاج الفكرى يعكس لنا الاتجاهات السائدة ، وطبيعة عمليات التفاعل الاجتماعى فى المجتمع، مما يوصلنا الى اكتشاف صور معينة سائدة لا تفسر عادة تفسيرا سهلا اذا ما حاولنا تفسيرها باستخدام طرق بحث أخرى ، فهذه الافكار والقيم التى تنعكس فى كل ابداع فنى أو كتابات المفكرين والادباء تعطى صورة عن روح الشعب ، وتعبر عن القيم السائدة والمتغيرة •

ولكن هل نستطيع أن نفهم الخصائص القومية لشعب معين بعد تحليل مضمون الانتاج الادبى والعمل الفنى كما يظهر فى رواية أو مسرحية أو قصيدة أو مثال • لا جدال أن العمل الادبى الذى يجد قبولا لدى الناس انما يعبر عما يودون أن يسمعوه أو يتمنون أن يصيروا اليه • ولا ريب أن الاعمال الادبية والانتاج الفكرى أو الفنى الصادق والملتزم بقضايا المجتمع مصادر هامة لمعرفة الشخصية القومية اذا اخترت اختيارا

---

(٣٧) محمد محمود الصياد : نفسية الشعب المصرى من أغانيه • مجلة علم النفس • ، العدد الاول جزء ١ ، يونيه ١٩٤٥ •

سليما وفق قواعد موضوعيــة ، توصلنــا الى معرفــة القيــم المحكمات والمتشابهات ، وتعبر أصدق تعبير عن خصائص الشعب وقد اهتم الرواد في التحليل النفسي ابتداء من فرويد مــرورا بيونج ثم ابراهام رانك فرحيم بتحليل مضمون الاعمال الفولكلورية المميــزة ، وقد أمدنا عمل هؤلاء فى مجال الاسطورة والادب الشعبى ، بأبحاث قيمة فى الدراسات المقارنة فى الثقافة • ويمكن بتحليل مضمون الادب الشعبى أن نصل الى معرفة أنساق اجتماعية معينة فى المجتمع •

فمثــلا استخدم ماكليلاند وفريديمان تحليــل مضمــون القصص الشعبية للوصول لمعرفة مدى تغلغل الحاجة الى الانجاز بين سكان أمريكا الاصليين ثم تقدما خطوة أخرى بعد ذلك ، وحاولا أن يربطا بين أنماط تربيــة الاولاد (٣٨) ومدى قوة الحاجة الى الانجاز فى المجتمعات المختلفة ، وثمة محاولات كثيرة لربط الافكار العدوانية التى يعبر عنها فى الادب الشعبى مع أنماط تربية الاولاد • ثم تطور البحث من الادب الشعبى الى محاولة معرفة الشخصية القومية من تحليل مضامين القصص الشعبية •

ويعتمد هــذا الاتجــاه فى تحليل الفولكلور عــلى التحليل المركز للادب الشعبى فى مجتمع معين • ويعتمد هذا المدخل على فرضين أساسيين أولهما : أن هناك بناء أساسى للشخصية يميز المجتمع • والفرض الآخر : يؤدى التكامل الثقافى الى ظهــور نوع من الثبــات فى الادب الشعبى • وتؤدى بنا مثل هذه الدراسات التحليلية للادب الشعبى أو الانتاج الفنى الى توضيح الخصائص المميزة لكل شعب •

وثمــة سبيل الى الخطأ فى طرق دراســة الشخصية القوميــة هو الاعتقاد الخاطىء بأن طرق البحث التى طبقت بنجاح فى دراسة شعب صغير مثل شعب نوفاهو يمكن أن تطبق بالمثل عند دراســة الشخصية

---

(38) Branouw, Victor : Cultare and per sonality. op. Cit. p. 301.

القومية فى مجتمعات كبيرة مثل فرنسا أو الولايات المتحدة أو الهند أو مصر ، اذ أن طرق البحث المستخدمة فى دراسة المجتمعات البدائية الصغيرة المتجانسة ، والتى تتميز بالتنظيمات الاجتماعية البسيطة نسبيا ، لا تصلح للتطبيق فى المجتمعات التى تضم الملايين ، اذ أن الاختلاف الكمى يؤدى الى اختلاف فى نوعية البناء وطبيعة العلاقات الاجتماعية مما يتطلب أساليب للبحث جديدة ٠

ورغم تباين طرق بحث الشخصية القومية ، فقد أدت طرق البحث المختلفة التى استخدمت الى نتائج هامة ، أهمها تطوير البحوث والدراسات التى تربط بين الانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية ٠ كما أصبحت دراسات الشخصية القومية اليوم علوما تطبيقية تسعى الى فهم سلوك أعضاء المجتمع ، وما يقومون به من نشاط ، كما تدرس القيم والافكار التى تحكم سلوكهم مما يؤدى الى التنبؤ بما سيكون عليه سلوك شعب معين فى موقف معين ومن ثم فدراسة الشخصية القومية ، ليست بالشىء الهين والذى يستغرق فترة قصيرة ، اذ أن مثل هذه الدراسات تستغرق سنوات طويلة قد تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، كما تتطلب فريق بحث كبير يضم عددا من الباحثين المتخصصين فى علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والانثروبولوجيا والسياسة والقانون يطبقون طرق بحث مختلفة لدراسة طريقة الحياة القومية والفروق القومية بين القيم الافكار التى توحدت بها الشخصيات الاقليمية ٠

ومن مظاهر تطوير طرق دراسة الشخصية استعمال المقاييس الاكلينيكية ولكن لكى نقبل هذه المقاييس ، فالسؤال هو ما جدواها فى تحديد ملامح الشخصية القومية ٠

اننا لو سلمنا بجدوى المقاييس الاسقاطية مثل اختبار روشاخ واختبار تفهم الموضوع لموراى ، والتى قد توصلنا الى نتيجة ذات قيمة عن الطابع القومى للشخصية ، فستبقى رغم ذلك مشكلة استخدامها المجدى

والمثمر باقية ، وستظل المادة العلمية والمعلومات التى حصلنا عليها مجرد ايحاءات ، اذ أن طريقة الدراسة لا تعطينا معلومات شاملة ودقيقة ووافيه ويتعين لتكامل الاختبارات والمقاييس أن تضم الدراسة بجانب المقاييس الاكلينيكية أدوات أخرى، لكى يمكن أن نحصل على مادة وفيرة وغزيرة ٠

فدارس الشخصية القومية يعى أن لكل مجتمع تقاليده وجذوره التاريخية ونظامه السياسى والاقتصادى المميـز ، وتباين درجـة تقدمه التكنولوجى ٠٠٠ كما يتطلب هـذا التاريـخ الطويل ، وتلك التقاليد الاجتماعية الراسخة معاونة عالم علم النفس الاجتماعى وجهود المؤرخ وتحليلات الاقتصادى والسياسى ٠

وقد تكون مساهمة المؤرخ والمحلل السياسى والاقتصادى عند دراسة مجتمع صغير منعزل محدودة أو بسيطة أو ضئيلة ٠ ولكن اذا ما درست الشخصية القومية فى مجتمع معقد متقـدم فـان التعـاون بين العلـوم السلوكية حتمى من أجل البدأ من نقطة بداية صحيحة للتوصل الى نتائج موثوق فيها ٠ وهذا التعاون بين العلوم ، وتعدد طرق البحث يتطلب :

١ ـ اطـار نظرى مقبول ٠

٢ ـ التأكيد على الدراسة التجريبية ، من أجل جمع المـادة العلمية المتاحة ٠

٣ ـ محاولة اثبات النظرية تجريبا أو تأكيـد تساندهما ، من أجـل الوصول الى حقيقة موثوق فيها ومبرهن عليها ، ويمكن التحقق منها ٠ ويرى دويجنكر (٣٩) « اذا ما أردنا أن نحصل على صورة متكاملة عن الشخصية القومية فانه يتعين علينا الاعتماد على مجموعة من العلوم لتفسير السلوك وأيضا استخدام طرق عديدة للبحث تتلائم مع الظروف الثقافية والتى قد تتباين من مجتمع لمجتمع ٠

(39) Duijnker : National Character and National streotypes. op. Cit.

بعد هذا العرض لطرق دراسة الشخصية القومية دراسة علمية يتبين لنا أن أى دراسة فى الشخصية القومية ، لاتعتمد على طريقة واحدة ، اذ يتعين على الباحث أن يستعين بأدوات وطرق بحث مختلفة متجانسة مناسبة ، تصلح لدراسة المشكلة موضوع البحث ولا تتعارض كلية مع الظروف الثقافية والبيئة الاجتماعية حتى ولو أدى الامر الى الاستعانة بأخصائيين لتطبيق الاختبارات والمقاييس ، ثم تقديم المادة العلمية الى الباحث لتحليلها وتفسيرها · كما أن دراسة الشخصية القومية لا يعنى دراستها دراسة تفصيلية · ولكننا اما أن ندرس مظهرا معينا من الشخصية دراسة تفصيلية وعلاقة هذا الجانب بنسق اجتماعى معين ، أو جماعة معينة واما أن ندرس قطاعات معينة فى المجتمع نستخلص منها ما نسميه بتوجيهات القيم السائدة أو الافكار الرئيسية أو الرموز الاساسية أو أخلاقيات الامة ، وعلاقة كل واحد منها بنسق اجتماعى معين أو جماعة معينة · ولا جدال أن الدراسات الحالية على المستوى القومى والتى تعتمد على أساليب جديدة لتسجيل وتحليل أنماط سلوكية معينة عند جماعة معينة ، بينت أنها أكثر صوابا وأكثر دقة لوصف ما نسميه خصائص القومية للشعوب ·

أ.د محمد سعيد فرج
استاذ علم الاجتماع

الفصل الرابع

الصفوة المصرية والشخصية

- تعريفات الصفوة ٠
- الواقع المصرى الذى ثارت عليه الصفوة ٠
- دور الصفوة فى مصر ٠
- دور العلماء كصفوة فى المجتمع التقليدى ٠
- النشأة الاجتماعية للصفوة الحديثة ٠
- العناصر الاجتماعية التى دعت الصفوة اليها ٠

الباحثات في الداخل والخارج

مدى مساهمة الصفوة في تغيير ملامح الواقع المصري -

التحلل من التقليد إلى المعاصرة

التغريب / العودة إلى كتاب الله

ماذا تدرس الصفوة المصرية -

هل هي متجانسة

الفصـــل الرابـــع

الصفــوة المصريـــة والشخصيـــة

لقد عانت الصفوة فى بلدان العالم الثالث عامة ، ومصر خاصة ، فى سبيل الدعوة الى مبادىء جديدة ، معاناة شديدة ، وواجهت احباطات قوية فى سبيل أفكارها وأهدافها ، فالارض لم تكن ممهدة ، ولكنهم حرثوا أرضا وعرة ، ولقد كانت تطلعات هؤلاء الرجال كبيرة ، ولكن العقبات التى صادفتهم كانت أكبر ٠

ولقد ساهم بعض الصفوة الى حد ما فى بناء الدولة العصرية فى مصر ، وفى التحول من المجتمعات التقليدية الى المجتمعات الحديثة ، أما البعض الآخر فقد تمسك بالقديم ودعا الى العودة الى حكم السلف الصالح وكتاب الله ، وتأثر بعض الصفوة بالفكـر الغربـى ، وتشربوا بمبادئه وأخذوا عنه أفكارهم عن المجتمع الامثل ، رغم كراهيتهم للاستعمار ، فى حين نادى البعض الآخر بالرجوع الى أحكام الشريعة الاسلامية والارتباط بالدولة العثمانية ٠

هذا التباين فى مواقف الصفوة فى مصر ، دفعنا الى دراسة الصفوة المصرية ، وأثرها على الشخصية ، لاننا نؤمن بأثر الصفوة فى تشكيل النظم ، ودفع عملية التغير أو اعاقتها ، وقد دفع هذا التأثير الباحثين فى العلوم السياسية والاجتماعية والنفسية الى الاهتمام بدراسة الصفوة ، ولكننا عندما نقدم على مثل هذه الدراسة نسلم بأننا نفتقد الدراســات العلمية والابحاث الموضوعية التى توفر المعلومــات عن اتجاهات وقيــم ونزعات الصفوة المصرية ، وكيف أثرت الصفوة على الشخصية المصرية الحديثة ، وأسهمت فى اعادة تشكيلها ، ولقد حاولنا التغلب على هــذا القصور قدر المستطاع بالرجوع الى كتابات الصفوة أنفسهم ومــا كتبه المؤرخون والادباء عنهم ٠

وقبل أن نسير قدما فى عرض دور الصفـوة المصرية فى تغيـير الشخصية ، علينا فى البداية أن نعرف ما الصفوة ؟ ثم نعرض عرضـا موجزا للواقع المصرى الذى حاولت الصفوة تغييره والتمرد عليه ٠

● تعريفـات الصفـوة

[illegible] للصفوة أنها جماعة أو فئـة صغيرة من الافراد، تحتل منزلة عالية ، وتسيطر فى الوقت نفسه على بعض أو كل قطاعات المجتمع ، وقد ساهم هؤلاء الافراد الذين يكونون الصفوة فى اتخـاذ القرارات السياسية أو الاقتصادية ، أو الدعوة الى قيم وأنماط سلوكية جديدة ، وقد يتمكن بعضهم من فرضها حين تؤول اليه السلطة ٠ وهم [illegible] لا تسـاير ولا تواكب الانمـاط الاجتماعية السائدة ، فهم أحيانا متمردون على الوضع القائم وأحيانا أخرى أشـد محافظة على النظام الاجتماعى السائد ، وأشد رفضا للتغيير من جماهير الشعب، و [illegible] فى تخصصها ٠ أما « بوتومور » فيرى أن الصفوة طبقة من الناس لديها أعلى المؤشرات المتعلقة بنشاطاتها ، وهى طبقة قيادية ، وهم الاقل عددا والاكثر نفعا فى الحياة ، ولهم قوة التأثير (١) ٠ [illegible] أن الصفوة ليست طبقة ، وليست شريحة بل أقرب ما تكون الى الفئـة أو الفئات ٠ وتشترك كل فئة فى قيم ومصالح مشتركة (٢) ، وتجمع أفرادها وحدة فكرية ، [illegible] بالتماسك الجمعى والوعى الذاتى بالوضع القائم ، وبما ينبغى تغييره وما يجب المحافظة عليه وتدعيمه ، وهذا الوعى بالمصالح، وهذه الوحدة الفكرية وهذا الوعى الذاتى هو ما يجعلهم يشكلون مجـرد

---

(١) بوتومور : الصفـوة والمجتمع ٠ تأليف بوتومور ٠ ترجمـة محمد الجوهرى وآخرين، الاسكندرية دار الجامعات المصرية ١٩٧٢ ٠

(2) Boyd David : Elite and their education. Winelsor Borks Neer Publication Comp Ltd 1973. p. 22.

ظواهر في المجتمع ولا يجعل منهم ظواهر حقيقية فـي بنية المجتمع مثل بنيـة العمال والفلاحين والبرجوازيين ٠

ويرى « بويـد » أن الصفوة جماعـات صغيرة تتميـز بخصائص تفتقدها الاغلبية ، وهذه الخصائص التي تميز الصفوة هي : أنها أقلية ، وأنها تحتل وضعا وظيفيا أو مهنيا قياديا ، وانها تشغل مركزا اجتماعيا مرموقا ، وأنها تتبع طريقة مميزة في الحياة ، وأنها تتميـز بالتماسك الجمعي بين كل فئـة من الصفوة ، وأنها تقتصر على أفراد معينين ، وتنفتح في الوقت نفسه لتقبل أفرادا آخرين ، وأنها قـادرة على أعبـاء القيادة والمسئولية ، وأنها ترتفع الى مستوى المسئولية الاخلاقية ، وأنها تسعى الى السلطة (٣) ٠

وكان « باريتـو » و « موسـكا » و « بيتلز » هم أوائل الذين كتبوا في هذا الموضوع ، واعتبروا الصفوة بالضرورة صفوة حاكمة أو جماعة صغيرة ، تهيمن على الحكم ولها الكلمة العليا ٠ وتدل هذه الرؤية على التمييز بين القلة التي تملك القوة وتحكم ، والاغلبية المحكومة أي جموع الشعب الذين يحكمون والذين يفتقدون القوة وقد ميـز باريتو بـين الصفـوة الحاكمة التي كانت محـور اهتمامه ، والصفوة غير الحاكمة واللاصفوة ٠ وقد بين « موسكا » في كتابه « الطبقة الحاكمة » الانقسام التاريخي المستمر للمجتمع الى حكـام ومحكومين ، وهو يرى أن توزيع القوة يحدث بين الصفوة واللاصفوة لصالح الصفوة في اطار المجتمع كله أو داخل تنظيم معين مثل الحزب السياسـي ٠ [illegible]
وميتشل وموسكا على [illegible]
للحكم بين الاقلية والاغلبية ، وهم يرون أن الصفوة لا مفـر منها داخل المجتمع الديمقراطي ٠ كما بين موسكا أن سيادة الاقليـة المنظمـة على الاغلبية غير المنظمة أمر لا مفـر منـه ٠

(3) Boyed David : Elite and their education. Windsor Borks. Op. Cit. p. 22.

ويعتمد عدد الصفوة فى المجتمع عنـد « دوركايـم » على طبيعـة البناء الاجتماعى فالصفوة فى المجتمع التقليدى غيرها فى المجتمع المفتوح ويتزايد عـدد الصفـوة كلمـا تحـول المجتمع مـن المستوى الآلى الى المستوى العضوى ، وتعقدت مظاهر تـ المهنى وتكاثر الصفوة دالة ع ، اذ كلما تنوعت الانشطة فـ ة ، وتعددت أنواعها فى المجتمع • فبجانب الصـ الحاكمة هناك سكرية والصفوة الدينية ، وفئـة المديرين والطليعة المثقفـة ونخبة الاقتصاديين، وهذه الصفوة كلها تؤدى أدوارا أساسية ، تمثل القيادات الاكثر تخصصا والاكثر تقدما ، وهم يؤدون وظائف ترتبط بالحكم والانتاج والفكر والفن والدفاع عن البلاد ، ويرى « رايت ميلز » أن الطبقة الحاكمة تتكون من فئات ثلاث هى الصفو ، والمديرين ، ترك أفرادها فى لة ، وتجمع بينهم مصالح مشتركة ، ولا توجد صفوة منها بمعزل عن تأثير الصفوة الاخرى • وهم يحمون أنفسـهم عـادة من أجـل حماية مصالحهم كما يحمون المجتمع من العدوان الخارجى الـذى قـد يسلبهم امتيازاتهم •

ولقد رأى باريتو وميتشل وموسكا أن وجود الصفوة الحاكمة أمر بديهى (٤) وقد أكد العلماء الثلاثة أن الصفوة تدل على ، اء •

ويبـدو التكامل فـى المظـاهر الآتية : التجانس الاجتماعى ، كما يبدو فى أنماط التدعيم والتفاعل الشخصى والاجماع على قيم معينـة وتماسـك الجماعة • ويدعم كل من الاستقرار الاجتماعى والسياسى وقوة الروابط

(4) Putterman Robert : The Comparative study of political Elites. England Gliffs. Prentic Hall 1976. p. 107.

الاجتماعية تكامل الصفوة ، كما تحقق الاتصالات الشخصية والصداقات المتبادلة التناسق بينهم (٥) ٠

ومن ثم فالصفوة فى المجتمعات الصغيرة المتجانسة أكثر تجانسا ، ويبدو تكاملها فى هذه المجتمعات أكثر وضوحا ، اذ كلما كبرت المجتمعات وتعقدت شبكة العلاقات الاجتماعية ، تفككت الصفوة وتكاثرت ، وتباينت آراؤها ، الى أن تستقر وتتضح الرؤية فيها ، فيحدث التكامل والتقارب من جديد بين الصفوة حتى تظهر آراء جديدة متباينة عن آراء الصفوة القديمـة ٠

ولقد ظهرت فكرة الصفوة أول مـرة بين هؤلاء الذين رفضوا أو نقدوا نظرية ماركس عن الطبقة الحاكمة ، فأنصار الصفوة يرون أن فكرة الصفوة تقتضى وجود أفراد وجماعات يحتلون أوضاع السيادة والسلطة فى مجال معين بفضل ما لديهم من مؤهـلات ممتـازة ، ومن ثـم يـرى الماركسيون أن الهدف الاول من صياغة مفهوم الصفوة فى الفكر الغربى هو رفض المفهوم الماركسى عن الطابع الطبقى الذى يميز الطبقة الحاكمة فى المجتمعات الرأسمالية ٠ فواضعو نظريات الصفوة يحاولون احـلال النخبة الحاكمة التى تحتكر السلطة فى المجتمع محل المفهوم الماركسى عن الطبقة المسيطرة اقتصاديا وسياسيا ٠ ويتهـم الماركسيون أنصـار الصفوة بأنهم يغفلون دور الجماهير ويعتبرونهم هدفا سلبيا للسلطة بينما ينظر الماركسيون الى الشعب على أنه صانع التاريخ (٦) ٠

ان وجـود الصفـوة أو القـادة أو الرواد أو الطليعة أو النخبـة وان تباينت ظروف ظهور كل منهم واختلفت أدوارهم ، أمر طبيعى فى كل

(5) Ibid. p. 128.

(٦) أفجوست ميشين : الديمقراطية البرجوازية فى النظرية والتطبيق ، ترجمة فؤاد عبد الحليم ٠ القاهرة ٠ دار الثقافة الجديدة ١٩٨٠ ، ص ٧٤ ٠

المجتمعات ، دون أن يكون فى ذلك مساس بدور الشعب فى التاريخ ، فكل مجتمع يضم أشخاصا لديهم قدرات متباينة فبعض الافراد لديهم ردود أفعال سريعة أكثر من غيرهم ، وثمة أفراد أمهر وأقدر من الآخرين ، وأكثر وعيا بالحاجة الى البقاء ، وهناك أشخاص أحد ذكاء وأسرع فى اتخاذ القرار ، وهؤلاء يشكلون الصفوة (٧) · ولا مجال لاغفال دورهم التاريخى ، وكم من تحولات اجتماعية قادها أشخاص وكم من أفكار صدرت عن أشخاص غيرت حركة المجتمعات ، وكم من مجتمعات حبلى بالثورة أجهضت ثوراتها لعدم وجود صفوة تسيرها الى هدفها ·

ولكن هل الصفوة قادة أم نخبة أم أناس فرضتهم ظروف معينة ؟ اذا ما قبلنا أن القيادة تتضمن الحركة ، وأن النخبة قد تعنى الوضع الساكن والجمود ، فاننا أميل الى الرأى القائل بأن الصفوة تتضمن الحركة والقيادة ولها فضل الريادة والتحول بل احتلال موقع الطليعة هذا من جانب ، ومن جانب آخر فانها تدل على الثبات والجمود فى الوقت نفسه (٨) · وأفراد الصفوة لا يظهرون فجأة ولا يختفون فجأة ، بل هناك عوامل تؤهل ظهور الصفوة وعوامل أخرى تعمل على اختفائهم من المسرح ·

واذا سايرنا رأى « بيترمان » القائل بأن التفسير الكامل لكيفية ظهور الصفوة وتمسكهم بالآراء التى يدعون اليها سواء فى المسألة الاقتصادية أو السياسية أو التعليمية أو الاجتماعية يرتبط بعوامل كثيرة أهمها عملي[illegible]اهد الخاصة لتكوينهم واعدادهم (٩) ، فاننا نقول ان عملية التنشئة الاجتماعية عملية نسبية

(7) Maus Heinz : A Short History of Sociology. London Routledge & Kegan Paul 1971 p. 99.

(8) Viatanen Reino : French National Character in the twentieth Century. The Annals of the American Academy of political and sociel science. Vole 370 March 1967 pp. 82 - 92.

(9) Putterman Robert : The Comparative of political elite Op. Cit. p. 92.

تختلف باختلاف الزمان والمكان ، كما أنها عملية مستمرة لا تقتصر على طور الطفولة الاول وحده أو طور المدرسة ، وبالتالى نرفض الرأى القائل بأن الزعماء يولدون زعماء وأن القادة يخرجون الى هذا العالم منذ ميلادهم قادة ، كما نرفض الرأى القائل بأن عملية اعداد الصفوة عملية متماثلة فى كل المجتمعات ، فاذا كانت هناك معاهد متخصصة لاعداد الصفوة الارستقراطية فى بعض البلدان الرأسمالية أو هناك معاهد لاعداد كوادر الحزب فى البلدان الاشتراكية ، أو هناك معاهد لاعداد الصفوة العسكرية والتكنوقراطية فى بلدان كثيرة ، فالامر مغاير بالنسبة للصفوة السياسية والمثقفة فى دول العالم الثالث ، اذ لا توجد هذه المعاهد المتخصصة ، فالمعاهد التى درس فيها طه حسين خرجت آلافا غيره ولم يصلوا الى مكانته ، وهذه المعاهد التى تعلم فيها طه حسين غير المعاهد التى درس فيها قاسم أمين ولطفى السيد وطلعت حرب · واذا كان حسن البنا وابراهيم بيومى مدكور قد نالا شهادة دار العلوم فى عام واحد ، فشتان بين مواقف وأهداف الاثنين · وبهذا الصدد نقول ان أثر طه حسين فى مجتمعنا غير أثر أخيهرغم أنهما ربيا فى بيت واحد ، والتحقا بالازهر ، وبالمثل فأثر حسن البنا فى الحركة الاسلامية بمصر غير أثرأخيه رغم أنهما نشآ فى ظل بيت واحد ، وانخرطا فى فرق الصوفية ، وهذا كله يدعونا الى القول بأن الصفوة تحاول أن تعيد تنشئتها الاجتماعية وتعيد صياغة وتشكيل شخصيتها لتصير أكثر قبولا فى نظر نفسها وتطلعاتها وأكثر تقبلا عند جماهير الشعب التى تسعى الصفوة للعمل من أجلهم ·

ونحن أميل الى اعتبار الصفوة شريحة فى المجتمع تعبر عن أيديولوجية معينة ، ومصالح خاصة ، وتتكون من أفراد لديهم أفضل القدرات وأعلا المؤهلات فى تخصصهم ، وهم يكونون أقلية تشكل جزءا صغيرا فى البناء الاجتماعى ، أى أن [illegible] قلة محدودة ، وهم قلة أمام الاغلبية ، ولكنهم قلة منتقاة مختارة تتفوق على

الاغلبية وتسيطر عليها ، وهذه القلة منظمة (١٠) وسائدة بل تكمن قوة الصفوة فى أنها منظمة ، وأفضل تنظيما من الاغلبية ، ورغم أن أفـراد الصفوة قد ينتمون اجتماعيا الى طبقة تختلف فى مصالحها عمن يسعون اليهم . فانهم يتطلبون تقبل الجماهير وتأييدهم لما يقدمونه أو قدموه من تضحيات ، و[illegible] لاحتلال الصفوة [illegible] ، وعضو الصفوة هو من نجح فى اقناع الناس بتقبل ما يقوله ويدعو اليه ، واستطاع أن يصل الى الشريحة العليا فى التدرج الاجتماعى ، مهما تكن الوسائل التى حقق بها نجاحه ، وبذا فالشريحة العليا التى تضم الصفوة ليست مغلقة أو [illegible] تتجدد باستمرار من خلال عملية الدورة حسب [illegible] ظروف المجتمع ، فال[illegible] العاجزة ، هى التى تعبر عن [illegible] الجديد ، [illegible] المجتمع [illegible] (١١) .

الواقع الاجتماعى الذى ثارت عليه الصفوة :

أصابت الحملة الفرنسية مصر بصدمة عنيفة ، هزت أركان المجتمع التقليدى المستقر ، ثم جاء محمد على وأراد تحديث مصر فأصابها بصدمة أقوى ، وأشد عنفا ، نتيجة لذلك عايش أفراد المجتمع المصرى سلسلة من التغيرات الجذرية تتفاوت مدا وجزرا فـى مجـالات الفكر والسياسة والاقتصاد والتعليم والعادات التقاليـد ، لقد اتخـذت هذه التغيرات صورا شتى داخل المجتمع وخارجه . ففى مجال الفكر ظهرت الدعـوة الى تطبيـق المنهـج العلمـى على لسـان رفاعـه الطهطـاوى ولخصت أفكـار سـان سـيمون ثـم مـاركس ثـم ترجمت كتـابات داروين وجوستاف لوبـون ، قـرأ الناس وسمعوا بمـا يبشـر بـه ويدعو اليها جمال الافغانى ومحمد عبده وشبلى شميل ونقولا حداد وعنان وقاسم أمين وسلامة موسى واسماعيل مظهر ومصطفى المنصورى الذى ألف

(10) Boyd, David : Elite and ther Education. Op Cit. p. 18.

(11) Heinz : A short History of Sociology. Op. Cit. p. 54.

كتابا عن تاريخ المذاهب الاشتراكية . وطبق القانون الوضعي المنقول عن القانون الفرنسي فـي سـاحات المحاكم بـدلا من مبادىء الشريعـة الاسلامية ، مما أثار غضب واستياء أنصار القديم فدعوا الى العـودة الى كتاب الله . ومن الناحية الاجتماعية كانت الثورة على الحجاب التى لقيت معارضة فى بادىء الامر، والمطالبة بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل فى مجال التعليم ، والمناداة بحق أفراد الشعب من الجنسين فى التعليم ، والدعوة الى تطبيق العدالة الاجتماعية . وفى مجال الاقتصاد استبدل بالانساق التى تعتمد على المقايضة والتبـادل وملكيـة الحاكـم للارض الزراعية وانتاج القوت ، نظام جديد يقوم على التبادل النقدى والتقسيم المعقد للعمل والانظمة التجارية ، واستثمار الاموال الخاصة فى غير مجال الارض الزراعية وصاحب ذلك كله غزو الرأسمالية الاوربيـة للسوق المصرية ، ومحاولتها ربط مصر بالاقتصاد الاوربى وجعلهـا تابعة له ، ولقد أدى النمو الاقتصادى فى مصر فى أوائل هذا القـرن بعد الحرب العالمية الاولى وأثنائها الى ادراك الاهمية المتزايدة للسوق المحلية ومن ثم ظهرت صفوة اقتصادية حاولت أن تحل محل الاجانب ، ولقد استمدت هذه الصفوة قوتهـا من ملكية الارض أولا ، ثم المشـاركة فى الانشطة الاقتصادية الهامة واستثمار أموالها فى التجارة والمساهمة فى الصناعات الطفلية . ولقد أثار التحكم الاجنبى فى الاقتصـاد المصرى غضب بعض المصريين حتى أسسوا بنك مصر بعد ثورة ١٩١٩ . وفى مجال السياسة ظهرت الدعوى الى تحرير الوطن والاستقلال السياسى وضرورة تطبيق الديمقراطية والدستور ، ورفع شعار مصر للمصريين مقابل شعار مصر الاسلامية وظهر تيار يدعو الى تطبيق الاشتراكية فى مصر لحل مشكلات التخلف معارضا أنصار الاقتصاد الحـر ، ورافضا الرأسمالية الجديدة التى اهتمت بالصناعات الطفلية . وفى مجال التعليم كانت الدعوة الى نظـام تعليمى جديد يغاير نظـام التعليم الازهـرى وافتتحت الجامعـة الاهلية عام ١٩٠٨ ومن قبل بما ينوف عن ثمانية عقود أرسل محمد على البعثات الى أوربا ، وأنشأ مدارس الطب والمهندسخانة ومدرسة الالسن ، ومعاهد التمريض ... وطالب العائدين من هـذه البعثات بعد أن تعلموا

علوما غير علوم الازهر بتكوين صورة لاوربا فى مصر الحديثة وبناء الدولة المصرية (١٢) ، وكان الهدف من نظام التعليم الجديد اعداد كوادر فنية من مهنيين وعاملين بدواوين الحكومة ولقد فرخت هذه المعاهد الصفوة التى أمسكت بزمام الامور فى البلاد ·

هذا الواقع المصرى بما فيه من تناقضات وصراعات أفرز رجالا عبرت كل فئة منهم عن اتجاه معين فى هذا الصراع القائم فى محاولة اعادة بناء المجتمع ، فالبعض غالى فى التحديث ، والبعض أصر على التمسك بآراء السلفية والمحافظة على القديم وطالب البعض بتحرير الاقتصاد الوطنى وتقديس الممتلكات الخاصة ، وفئة أخرى بهرتها الفكرة الاشتراكية ، ونادت بها نظاما يحقق التحرير الوطنى ، والعدالة الاجتماعية فى البلاد ، وبين هذين القطبين المتنافرين فى كل مجال من مجالات النشاط والفكر وقفت فئة ثالثة تتوسط بينهما ·

ونحن عندما نهتم بالط [illegible]
حي [illegible] ية
والاقتصادية التى كانت سائدة ، فا [illegible]
[illegible] سية
القومية (١٣) · بيد أننا فى دراستنا للصفوة وأثرها على الشخصية القومية المصرية لا نسلم برأى وايزمان القائل « بأنه مهما كانت طبيعة بناء الشخصية الاساسية للشعب ، فان أى مجتمع كبير يضم أفرادا لهم القدرة على تحقيق الاغراض العظيمة ، وتصور أهداف سامية ، ويستطيعون ممارسة وسائل أكثر عنفا ، وتحمل التضحية واذا واتتهم الظروف التاريخية استطاعوا أن يتحركوا مستغلين فى ذلك ضعف

---

(١٢) محمود فهمى حجازى : أصول الفكر العربى الحديث عند رفاعة الطهطاوى · القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ص ٢٠٥ ·

(13) Fyfe . The illusions of National character. London Watts. 1946.

الاغلبية وانقيادها لقائد قوى » (١٤) فمهما كانت طبيعة البناء الاجتماعى، ومهما كانت قدرة الصفوة ، فهذه القدرة محدودة بقيود صارمة يحكمها التراث الاجتماعى فى البلدان النامية ، وقد تصدق هذه الدعوة الى حد ما فى المجتمع الامريكى والمجتمعات الجديدة المستحدثة ، ولا يمكن تعميم رأى ويزمان الا اذا أغفلنا الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتباينة ، وتجاهلنا دور الشعب فى تكوين الصفوة ونجاحها أو اخفاقها ٠

ولقد برز أثر الصفوة المصرية فى التحولات الاجتماعية والسياسية فى مصر الحديثة أربع مرات ، ففى المرة الاولى كان العلماء هم الصفوة المصرية فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، يشاركون صفوة الاتراك والشراكسة فى نفس المكانة ، والمرة الثانية عندما قامت الصفوة العسكرية بتأثير أفكار الافغانى والصفوة المثقفة بثورة عرابى ٠ والمرة الثالثة فى بداية القرن العشرين حين ظهرت البدايات الاولى من حركات وتحولات وتغيرات فى كافة نظم المجتمع بفضل جهد وفكر بعض رجال مصر ، والذين مهدوا لكل ما حدث بعد يولية ١٩٥٢ ٠ وكانت المرة الرابعة قيام الصفوة العسكرية بثورة ١٩٥٢ ٠

وكل نوع من هذه الصفوة التى قادت التحولات والثورات فى مصر تنتمى الى فئة من الناس ،لها مصالح وآراء وأفكار فى السياسة والاقتصاد والتعليم ومكانة النساء فى المجتمع تختلف عن نظائرها من الصفوة الاخرى ٠ ومن ثم كان هدف كل حركة هو ما صاغته

---

(14) Reisman David : Some Questions about the study of American National character in the 20th centurry. The annals of the American Acadymay of political and social sciences. Vol. 370. pp. 36 - 47.

ونادت به صفوتها من أجل تحقيق مجموعـة مـن الاهـداف السياسية والاقتصادية والاجتماعية (١٥) ٠ ونحن نهتم بدور الصفوة المثقفة فى مصر فى النصف الاول من القرن العشرين غير غافلين دور بعض الصفوة السياسية والاقتصادية للاسباب الآتيـة :

١ ـ ان هؤلاء الرواد ، وهـذه الصفوة هى التى مهـدت لثورة ١٩٥٢ ، وقد اعترف بذلك محمد نجيب حين خاطب بعض رجال الفكر المهنئين له بنجاح حركة الضباط الاحرار قائلا : « ان هذه الثورة التى قامت بها الصفوة العسكرية ما هى الا نتيجة أعمالكم وثمرة جهدكم»(١٦)٠

٢ ـ أن أفراد الصفوة العسكرية التى قادت ثورة ١٩٥٢ ، والذين ولدوا فى الفترة من ١٩١٧ الى ١٩٢٢، كانوا طلابا فى المدارس الابتدائية والثانوية فى الثلاثينات وقد أخذ فكر وسلوك هؤلاء يتبلور رغم تفاوت انتماءاتهم الطبقية بفضل قراءة أو متابعة الحوار عمـا يكتبه قاسم أمين وطه حسين وسلامه موسى وحسن البنـا وتوفيق الحكم ، بل اتصـل بعضهم بحسن البنا شخصيا ، مما ساعد على تنمية روح التمرد الاجتماعى لديهـم ٠

٣ ـ أن الصفوة تلعب دورا هامـا وبـارزا فى تكوين الشخصية القومية ، بالرغم من أن الشخصية القومية تحـد من أفعال الصفوة ، بيد أن القرار السياسى أو الفكرة الاجتماعية التى تبشر بها الصفوة، وتؤثر على تطوير المجتمع لن تكون له نتائج على مكونات الشخصية القومية لدى عدد كبير من المواطنين الا عندما تتغير الظروف الاجتماعية التى يعيش

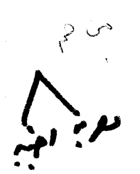
(15) Abou Laugh. I : The Transformation of the Egyptain Elite : Prelude to the Arabs Revolt. Middle East Journal Vol. 21 No. 3. 1967 pp. 325 - 344.

(١٦) عبد اللطيف حمـزة : أدب المقالـة الصحفيـة فى مصر ٠ الجـزء السادس ، القاهرة دار الفكر العربى ١٩٥٤ ص ٤٠ ٠

فيهـا الاغلبية (١٧) ، ونحن لا نستطيع أن ننكـر أثـر شعارات تحرير المـرأة ، وأن التعليم كالماء والهواء ، والعودة الى أحكام القرآن ، وسيادة الدولة أو مصر للمصريين أو الانفتاح على الغرب ، أو فتوى محمد عبده فى الادخار ، أو أفكار طلعت حرب فى بناء اقتصاد وطنى حر لا نستطيع أن ننكر أثر هذه الشعارات على تغيير بعض مكونات الشخصية عند غالبية المصريين بدرجات متفاوتة ، وما كان لهؤلاء الرجال الذين نادوا بهـذه الشعارات أن يخلدوا أفكارهم ، ويكتب لها الخلود لولا أن هذه الافكار كانت تعبر عن احتياجات أفراد الشعب التى ساندت أفكـار الصفـوة وتوحدت بها ، وكان لتقبل الناس لشعارات وأفكار الصفوة أثـره على سلوك الاشخاص وتاريخ المجتمع ٠

● دور الصفوة فى مصر :

ويبين تحليل الواقع المصرى أن الصفوة من أبناء مصر لم تختف يوما ما من مسرح الاحداث ، وأن الشخصية المصرية لم تطمس أبدا رغم ما طرأ عليها من تغييرات ، فالى جانب ما كان يوجد مـن صفـوة أجنبية شركسية، وتركية ثم أوربية فى مطلع القرن الماضى، كانت تتحكم فى مقادير البلاد ، وتحتل المناصب العليا كانت هناك صفوة مصرية (١٨) من أبناء الشعب تتكون من العلماء والتجار وأرباب الحرف ، هى التى تؤثر فى الشعب وتشكيل شخصياته ، وه[illegible] [illegible] ، والصفـوة المصرية كانت أقرب اجتماعيا [illegible] ، فالصفوة المصرية كانت تتحدث اللغـة العربية لغـة الشعب فى حين كانت الصفوة



(17) Reisman David : Some questions about the study of the American National character in the 20 The Century. op. cit. p. 47.

(18) Abou Laughed : The Transformation of The Egyptain Elite. Op. Cit.

الاخرى سواء أكانت تركية أم أوربية لا تتحدث لغــة الجماهير ، وكانت متعالية عليهم • وتتميز عن أفراد الشعب اقتصاديا كما كانوا يحيون حياة أرقى من جموع الشعب • وقد قاد بعض العلماء فى بداية القرن التاسع عشر الصراع ضد الظلم الاجتماعى والجمود قبل محمد على ، كما تحمل بعضهم مسئولية قيادة عملية التحديث أثناء حكمه ومن أبرز هؤلاء رفاعة الطهطاوى ، أول مؤلف عربى فى تأصيل الفكر السياسى فى العالم العربى (١٩) ، وأول من نظر الى العمل باعتباره الاساس الاول للانتاج والازدهار ، وآمن بضرورة التغير وتحرير المرأة (٢٠) ، وطالب بالاقلاع عن المثل السلبية ، والسعى الى مثل ايجابية • كان صاحب هذه الافكار من مواليد قرية بجنوب مصر ، تعلم فى البدأ بالازهر ، ثم رحل الى فرنسا مع من أوفدهم محمد على • ولقد تعلمت هذه الصفوة التى احتضنها ودعمها محمد على فى فرنسا علوما غير علوم الازهر (٢١) ، وعملت على بناء مصر الحديثة مقتدية بصورة أوربا حينئذ (٢٢) ، ثم انكمشت هذه الصفوة المثقفــة فى الظل بعد هزيمة محمد على ثم ظهرت صفوة كبار المــلاك والاعيان والصفوة العسكرية التى تمردت وثارت على حكم الوالى وقتئذ ، ولكنها فشلت فى مقصدها ، ثم ظهرت صفوة جديدة فى بدايــة القرن العشرين تتكون من كبــار الملاك وكبار التجار ، وبانتشار التعليم اهتزت مكانة هؤلاء ، وبدأت الصفوة تتكون وتتبلور [illegible] الصفوة المثقفة على من نالوا قسطا كبيرا من التعليم الحديث [illegible] المصرية (٢٣) والاجنبية ، ولكى نفهم الدور الذى لعبته الصفوة المثقفة

---

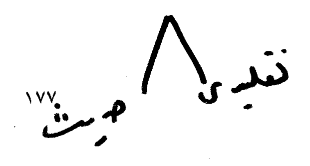
(١٩) محمود فهمى حجازى : أصول الفكــر العربــى الحديث ، المرجع السابق ، ص ٣٦ •

(٢٠) نفس المرجع ، ص ٧٩ •

(٢١) نفس المرجع ، ص ١٦ •

(٢٢) نفس المرجع ، ص ٢٥ •

(23) Akhavi Shahrough : Egypt New - Patrimonial Elite : In Frank Chateau (ed) Political Elites and Political Developement in the middle East.



فى مصر وتأثيرها على الشخصيات المصرية منذ أوائل القرن العشرين حتى منتصفه علينا أن نعرض لـدور العلماء فـى مجتمع مصر التقليدى قبل التحديث لندرك مدى التغير فى تأثير الصفوة على شخصيات المصريين ٠

● دور العلماء كصفوة فى مجتمع مصر التقليدى :

تعد العقود الاخيرة من حكم المماليك بعد انهزامهم من الفرنسيين حتى تولى محمد على الحكم العصر [illegible] الحديثة (٢٤) ، لان القوة السياسية للعلماء ظهرت بصورة لم يسبق لها مثيل أثناء هذه الحملة ، ولقد كانت هذه الصفوة الدينية محصلة البناء الاجتماعى فى مجتمع اسلامى ٠ وكانت السلطة فـى هـذا المجتمع التقليدى فى يد جماعتين كبيرتين لهمـا السلطة عـلى الشعب ٠ أولاهما الجيش وهؤلاء [illegible] ة وكانوا من غير المصريين والجماعة الاخرى [illegible] الاجتماعية والثقافية ، وتطبيق الشريعة ٠ وكان منهم القاضى والمفتى والمعلم ، وكانت صفوة العلماء هى الواسطة بين الشعب والقوة العسكرية الحاكمة٠ وكان الحاكم القوى يستخدم العلمـاء لتبرير أفعالـه أو مساعدته على تبرير طغيانه ، لمـا لهم من تأثير معنوى وأخلاقى على سلوك الناس ٠ وكان وضع العلماء كصفوة معترفا به فى هذا المجتمع التقليدى ، ولقد كان السبب الرئيسى لسلطتهم هو التأثير الذى يمارسونه على الشعب ، وقدرتهم على ارساء السلام بين القوى المتنازعة ، وتوعية الناس بأمور الدين والتأثير عليهم باسـم الدين ، اذ فـى مجتمع تؤمن فيه جماهير الشعب بالدين ايمانا قويا ٠ وكان العلماء فيه حراس العقيدة الدينيـة ، والحافظـين للقرآن ، والمفسرين لـه كان لابـد لجماهـير الشعب أن تلتمس منهـم البركة وتخضع لهم خضوعا كاملا، وتسلم بما يقولونه أو يفعلونه بلا

---

(24) Afaf Loutfi El Sayed : The Role of Ulama in Egypt during the early Nineteenth century. In P.N. Holt (ed). Political and Social change in Egypt. London. Oxford in 1968.

جدل ، وكانت الطو[illegible]ة هى وسيلة العلماء لفرض سلطتهم فى الحضر ، أما فى الريف فكا[illegible]سيلتهم فى ذلك ، وكان القرويون يلجأون اليهم فى الازمات • وكان من هؤلاء العلماء من يشغل أوضاعا رئيسية فى سلم الوظائف الدينية مثل شيخ الازهر وشيوخ المذاهب الاربعة ونقيب الاشراف ثم مشيخة الطرق الصوفية • وكانت ألقاب العلماء من شيوخ الطرق الصوفية ونقيب الاشراف وراثية ، فالشيخ البكرى تحمل عائلته هذا اللقب منذ القرن الحادى عشر الهجرى ، وكان بعض العلماء أثرياء باعتبارهم نظار أوقاف ، أو مما يمتلكونه من ثروة ، وكانت أوضاعهم الرسمية تضفى عليهم المكانة والثروة والنفوذ السياسى •

[illegible]

ال[illegible] ، وبلغت مكانتهم ذروتها حتى تمكن عمر مكرم من تنصيب محمد على واليا على مصر ، ولكن نفوذهم بدأ يتقلص منذ حكم محمد على عندما بدأ فى تغيير بناء الدولة ، وكان لاصلاحاته رد فعل قوى على الحياة التقليدية السائدة وقتئذ ، فقد هزت اصلاحات محمد على الانساق الاجتماعية التى تكون المجتمع التقليدى هزا عنيفا ، وأنشأ طبقة جديدة من المتعلمين تكونت منها الصفوة الجديدة المثقفة بدلامن صفوة العلماء التى عجزت عن التكيف مع الوضع الجديد ، وحاولت اعاقة التغيير فى محاولة للحفاظ على مكانتهم • ولقد كانت الصفوة الجديدة علمانية الفكر والسلوك ، تقليدية النشأة أما صفوة العلماء فكانت صفوة دينية يستند سلوكها وتفكيرها على فهم العلماء لنصوص الدين •

والحقيقة أن بعض العلماء قبل محمد على لعبوا دورا فى حياة المجتمع وخاصة فى مجال الحكم والدين ولكنهم لم يؤثروا التأثير نفسه فى مجال الفكر، ولا حتى فى تغيير السلوك الاجتماعى • فالشرقاوى مثلا ظل أسير الخرافات (٢٥) ، ورأى الجبرتى فى سلوك الفرنسيين « بدعة لا يسعها

---

(٢٥) محمود فهمى حجازى : أصول الفكر العربى الحديث ، المرجع السابق ، ص ٩ ـ ١٠ •

عقول أمثالنا » (٢٦) ، كما حجبوا عن أنفسهم المعارف العلمية لعدم تقبل عقليتهم التقليدية لها ، ولانها بعيدة عن علوم الازهر · مقابل هؤلاء العلماء الرافضين للتغيير الذين يؤكدون على قيم المجتمع التقليدى المغلق ، نجد علماء آخرين بهرهم ما عند الفرنسيين من علم ورأوا ضرورة معرفة ما عند الفرنسيين من معارف من أجل بناء مجتمع أفضل · كما طالبوا بتوسيع مجال المعرفة والانفتاح الثقافى للتغلب على الركود الفكرى ·

هذا الوضع الذى وجد فيه العلماء الدينيون أنفسهم بعد دخول الحملة مصر ، هو نتيجة طبيعية للصدمة الحضارية التى فاجأتهم بها الحملة الفرنسية ، فبعضهم اتسع فكره ، وقبل التغير أملا فى مجتمع أحسن ، والبعض الآخر رفض التغيير ورآه بدعة وضلالة ·

ولقد تقلص النفوذ السياسى للعلماء أثناء حكم محمد على عندما غير من بناء الدولة وأنشأ طبقة من المتعلمين هى الصفوة الجديدة بدلا من العلماء الذين عجزوا عن التكيف مع الوضع الجديد ، وحاولوا اعاقة التغير فى محاولة للحفاظ على مكانتهم · ولقد ترتب على الاصلاحات والتغيرات التى أجراها محمد على فى الانساق التعليمية والاقتصادية والعسكرية والادارية الى تغيرات لاحقة فى بناء الصفوة المصرية وتكوينها وقيمها ومهاراتها وسلوك أفرادها ، فلم يعد العلماء يحتلون المكانة الاولى ، ولم تعد بعض مراكز الصفوة بالوراثة ، ولم يعد نفوذ الصفوة الجديدة مستمدا من مكانتها الدينية أو ثروتها ، ولم يقتصر دورها على الوساطة بين الحاكم والشعب ، ولم تعد الصفوة المصرية جماعة مغلقة ، ولكن تكونت صفوة جديدة من هؤلاء الذين أرسلهم الوالى الى الخارج للتعليم أو ممن تخرجوا من المعاهد التى أنشأها ، وتقبلت هذه الصفوة الجديدة ، القيم الجديدة ، ولو بحرص ووصلت الى مكان القيادة فى

---

(٢٦) محمود فهمى حجازى : نفس المرجع ، ص ٨ ·

الوظائف الادارية وشغلت وظائف قيادية كانت قاصرة على المماليك والشراكسة ، وأصبحت بعض الصفوة الجديدة هى المسئولة عن عمليات التحديث فى مصر (٢٧) ، ونتيجة لتفاعل الصفوة الجديدة مع عمليات التحديث ، ضعفت مكانة أغلبية العلماء ، وتهافتت فئة منهم وصعدت فئة ثانية تكيفت مع التغيرات الجديدة وعلى رأسها رفاعة الطهطاوى ، وتكيفت فئة ثالثة مع المتغيرات الجديدة وان بقيت محتفظة بمكانتها الاجتماعية وأصبحت تمارس نشاطا غير رسمى ، مما أدى الى ظهور صفوة تتفاوت قدراتها فى التأثير على الجماهير ، وظهرت [illegible] فهناك مجموعة تتمسك بالقديم، ومجموعة ثانية توائم بين الجديد والقديم ، ومجموعة ثالثة تضع أوربا أمام عينيها عند بناء الدولة العصرية ، وهذه الفئة الثالثة تتباين تكويناتها ، بعضهم أمن بعظمة فرنسا وبعضهم الآخر أمن بقوة انجلترا ، وفى مجال السياسة والثقافة كانت هناك صفوة تنادى بمصر الفرعونية مخالفة فى ذلك تيارا يدعو الى مصر الاسلامية ، وهناك صفوة أعملت فكرها فى أسباب تأخر البلاد وأرجعت التأخر الى الابتعاد عن الدين ، وفى الجانب الآخر رأت صفوة أخرى أن التقدم يرجع الى قوة الاخلاق فى الغرب واخلاص الحكام ، ومركز النساء فى المجتمع ، وأن داء الشرق هو الاستبداد (٢٨) ٠

وهكذا فالصفوة المصرية كانت شرائح متباينة فى تطلعاتها وأفكارها وقيمها ، متجددة ومتغيرة فى قدراتها وتأثيراتها على الجماهير « نتيجة عملية الغربلة الاجتماعية » التى طرأت على المجتمع (٢٩) ٠ ويعكس

(27) Akhave Shahrough : Egypt Neo - Patrimonial Elite, op. cit. p. 81.

(٢٨) صبحى وحيده : فى أصول المسألة المصرية ـ طبعة جديدة ـ مكتبة مدبولى ، ص ٢٥٩ ٠

(29) Maus Heinz : A Short History of Sociology op. cit. p. 99.

التجديد فى الصفوة وتعايش أفكار الصفوة السلفية مع أفكار الصفوة المغالية فى التحديث تباين الاتجاهات التى كانت تتصارع فى المجتمع ، مما ساعد على عدم تجانس الافكار والاتجاهات والقيم والنزعات التى تتوحد بها شخصيات الشعب ·

واذا ما تساءلنا هل يعبر تجدد الصفوة وتغيرها وتباين شرائحها باستمرار عن دورهم الذى يقوم على أساس نفسى أى على « الخصائص السيكولوجية (٣٠) لافراد الصفوة والخصائص السيكولوجية لافراد المجتمع ، أم يعكس تغير الصفوة التحولات التى تحدث فى البناء الاجتماعى التاريخى ، وهل هذه التغيرات تحدث صدفة ، أم تعبر عن تحولات اجتماعية وتاريخية ؟ اننا نرى أن الصفوة فى كل مرة لم تظهر صدفة ، وليس من قبيل الصدفة اختفاء العلماء فى الظل وظهور صفوة جديدة مثقفة متباينة الاتجاهات الى جانب صفوة كبار الملاك فى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، وظهور صفوة المثقفين والمتعلمين فى النصف الاول من القرن العشرين ، ثم ظهور الصفوة العسكرية فى الخمسينات من هذا القرن ، [illegible] فى المجتمع ، ومن ثم ليس صدفة تغير الصفوة ، وليس عرضا أن تظهر صفوة جديدة هى محصلة تغيرات طرأت على نظام ملكية الارض ونظام التعليم والنظام السياسى والنظام الادارى والنظام الاقتصادى · ولذا فالاساس الاقتصادى والاجتماعى للصفوة يختلف من دورة لاخرى ولذا فالضغوط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية المتزايدة من أجل التغيير التى تعذر السيطرة عليها ، ولها ضعف مهارات وقدرات الصفوة المثقفة فى النصف الاول من القرن العشرين

---

(٣٠) محمد على محمد : دراسات فى علم الاجتماع السياسى ، الاسكندرية دار الجامعات المصرية ، ص ٣٥٠ ·

هى التى ولدت الصفوة العسكرية التى استولت على السلطة فى يولية ١٩٥٢ .

هذا التغير فى الصفوة المصرية يدفعنا الى أن نتبنى بتحفظ رأى بوبد القائل بأن الصفوة تتضمن دائما نزعة الى الانقسام والتفكك تتيح خروج أعضاء قدامى ودخول أعضاء جدد، « وهى تتغير عدديا، كما تتغير أفكارها لتوائم التغير » (٣١) الحادث فى المجتمع باحلال فكر جديد بجانب الافكار القديمة . وهذا واضح وجلى فى المجتمعات المتغيرة . ولقد حدثت انقسامات وانشقاقات عديدة فى الصفوة المثقفة والدينية والسياسية فى مصر الحديثة فى القرن العشرين. فلقد تفككت قيادات جماعة الاخوان ، وانقسمت الطليعة الاشتراكية ، وانشق طه حسين عن الاحرار وانضم للوفد ، كما حدثت انقسامات عديدة فى الصفوة السياسية ، ثم انقسامات الصفوة العسكرية على نفسها منذ ١٩٥٤ وهذا أوضح دليل على الانشقاق الذى تعرضت له الصفوة المصرية ، ولأبلغ برهان على عدم التجانس بين أفراد الصفوة فى مصر . وهذا التغير فى الصفوة يدل على أنهم لا يغيرون من جلودهم فحسب ، بل يغيرون من أفكارهم ومواقفهم .

ولكن هل هذا الانقسام والتباين يرجع الى اختلاف النشأة الاجتماعية لافراد الصفوة ، وبالتالى هل أثرت النشأة الاجتماعية فى أفكارهم ؟ أم يرجع هذا الانقسام الى ظروف البناء الاجتماعى (٣٢) .

● النشأة الاجتماعية لأفراد الصفوة الجديدة :

تبين لنا قراءة سير ومذكرات أفراد الصفوة المصرية أن أغلبيتها [illegible] ويمكن لنا أن نقول أنهم تأثروا بعقلية مجتمع

---

(31) Merton Robert : Social Theory and Social Structure. Revised edition. Glencoe. Free Press. 1963. p. 499 .

(32) Boyed David : Elite and their education op. cit. p. 286.

ريفى يخطو خطوات بطيئة نحو مجتمع الصناعات الطفلية ، أكثر مما تأثروا بعقلية المجتمع الصناعى ، وان أكثر أفراد الصفوة يجمعون بين الفكر الغربى والفكر الشرقى ، وقيم المجتمع الاقطاعى ، ولكنها قيم غير محكمة سببت كثيرا من المواقف المتناقضة ٠

كما ظهر لنا من قراءة سير ومذكرات أفراد الصفوة اختلاف نشأة بعض أفراد الصفوة المثقفة من طليعة الاشتراكيين عن نشأة وتجارب جماهير الكادحين من عمال وفلاحين ٠ فتلك الطليعة الاشتراكية من أبناء الموسرين الذين نهلوا من الثقافات الغربية ، واطلعوا على ما كتبه المفكرون الغربيون ٠ وكذلك فالطليعة الاشتراكية فى مصر مثل كل الطلائع فى بلدان العالم الثالث لم تكن من العمال فقط بل من المثقفين الذين جمعتهم جميعا وحدة الهدف وكانت تضم فئات مثقفة غير متجانسة ابتداء من رجل الدين وانتهاء بالمثقف الذى آمن بالغابية ، وبالمثل كما تباينت آراء الاشتراكيين تباين آراء ومواقف وأفكار الصفوة الدينية ، بين التزمت والجمود والتحرر والانفتاح الفكرى ٠

واذا ما حللنا الجذور الاجتماعية لبعض أفراد الصفوة فى مصر ، تبين لنا [illegible] ورة ، بل [illegible] الاول من [illegible] ، وتعارضهم معا مع [illegible] من جان[illegible] ، بل احيانا تضارب تجارب [illegible] ورة [illegible] الذين يسعون الى [illegible] ٠ ولقد كانت مصالح اليسار الاشتراكى فى مصر تتعارض مع مصالح التيار السلفى ومع مصالح بعض أفراد الصفوة المثقفة مثل طه حسين والعقاد ولطفى السيد ، وهؤلاء الثلاثة كانوا يعلنون العداء صراحة للتجربة الاشتراكية ، ويرفضون

---

(33) Boyed David : Elite and their education, op. cit. p. 134.

تطبيقها فى مصر ، ويطلبون بالحلول المعتدلة لحل مشكلاتنا ، وكان طه حسين ينادى بأن وقت تطبيق الاشتراكية فى مصر بعيد ٠

وكان محمد عبده الزعيم الدينى الذى أثر على عقول عدد كبير من المصريين والمسلمين عامة ابنا لعائلة عاشت بحصة شبشير بمحافظة الغربية ، ولكنه تربى ونشأ بقرية محلة نصر من قرى شبراخيت بمحافظة البحيرة ولقد مارست هذه القرية العيش فى ظل نظام الاقطاع (٣٤) وهو ينتمى لعائلة كانت من الطبقة الجديدة فى مصر الحديثة (٣٥) ولقد نشأ محمد عبده فى بيت من بيوت الريف المتوسطة ٠ وتعلم القراءة والكتابة فى منزل والده ، ثم انتقل الى دار حافظ القرآن ، وحفظه فى عامين ثم أرسل فى طلب العلم وتجويد القرآن فى المسجد الاحمدى بطنطا ، ثم رحل الى القاهرة والتحق بالازهر ــ وهناك تتلمذ على يد جمال الدين الافغانى ، وسافر الى أوربا منفيا ٠

وولد سعد زغلول فى أبيانه مركز فوة بكفر الشيخ ، وتعلم فى كتاب القرية ، وذهب الى دسوق لتجويد القرآن ، ودخل الازهر الشريف، وأثناء التحاقه بالسلوك الوظيفى تعلم الفرنسية ، ونال الليسانس فى القانون ، وكان جده لأمه من ذوى الثراء الطائل والغنى الوافر ٠ ومن أغنى الاغنياء (٣٦) وهذه النشأة فى بيئة ريفية موسرة تمتلك الارض ، جعلته يجرى على « سنة الصور الاقطاعية فى زعامته لابناء بلده (٣٧) ٠

(34) Horani, A : Arabic Thought in the Liberal thought. 1799 - 1939 London. Oxford Uni press. 1962. p. 131.

(٣٥) عباس العقاد : محمد عبده ، القاهرة ، مكتبة مصر (سلسلة أعلام العرب ، العدد الاول) ١٩٦٢ ص ٧٠ ٠

(٣٦) زكى فهمى : صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر ، القاهرة ، مكتبة الاعتماد ١٩٢٦ ، ص ٥٣٦ ٠

(٣٧) عباس العقاد : سعد زغلول ٠ القاهرة ، مكتبة حجازى ١٩٣٦ ، ص ٤٩ ، ٥٠ ٠

أما قاسم أمين الارستقراطى الطبقة ، الفرنسى الثقافة ، صاحب دعوة تحرير المـرأة فكانت نشأته بمدينة الاسكندرية والقاهرة • أبـوه تركى عثمانى ، وجده كان يحمل البكوية ، تعلم فى الاسكندرية ، وقضى بها سنوات دراسته الاولى ، والتحق بمدرسة رأس التين ، وكانت يومئذ « مدرسة أبناء الارستقراطية » (٣٨) ثم انتقل الى القاهرة ، وأقام بحى أرستقراطى ، والتحق بالمدرسة الخديوية ثم مدرسة الحقوق ، وسافر فى بعثة الى فرنسا لاستكمال دراسته القانونية حيث قضى أربع سنوات ، وفى فرنسا تعرف على الحضارة الفرنسية وتعلمها •

وأحمد لطفى السيد صاحب دعوة مصر للمصريين من قرية من أعمال السنبلاوين بمحافظة الدقهلية ابن عمدة نال رتبة الباشوية (٣٩) وأبوه رجل عصامى توفى عن ألفى فدان ، وتعلم فى قرية قرين ، وحفظ القرآن، ثم تعلم فى مدرسة المنصورة ثم الخديوية ثم مدرسـة الحقوق ، وعمل بالنيابة ، وأنشأ حزب الامة معبرا عن طبقة الاعيان التى ينتمى اليها ، وهى طبقة جديدة النشأة لا يمتد تاريخها الى أبعد من عصر اسماعيل ، وأسس الجريدة ، وكانت بداية نهضة أدبية •

وولد طه حسين فى عزبة الكيلو مركز مغاغـة بمحافظة المنيـا ، بصعيد مصر ، وهى أقرب المراكز الى بنى مزار موطن على عبد الرازق • كانت عائلة طه حسين فقيرة ، كبيرة العدد ، وقد عاش طه حسين طفولة قاسية فى مجتمع متخلف ، بل هو نفسه ضحية هذا التخلف • فقد عاش طه فى مجتمع ساءت فيه الخدمات ، وكان الحلاق هو طبيب الناس ، وكان هذا وحده السبب فى ذهاب بصره ، كما شاعت فى هذا المجتمع الخرافات والسحر ، كان سابع أخوته ، ولم يكن أصغرهم ، أرسلهم أبوهـم الى

---

(٣٨) محمد عماره : الاعمال الكاملة لقاسم أمين • تحقيق ودراسة محمد عمارة ، بيروت ــ المؤسسة العربية سنة ١٩٧٦ ، ص ٢٠ •
(٣٩) زكى فهمى : صفوة العصر ، المرجع السابق ، ص ٣٨٦ •

المدارس المدنية أو الازهر للتعليم • وكان يستدين لتعليمهم ، واضطرت أمه لبيع حليها لسداد الدين أحيانا • وقد فقد طه حسين بصره وهو طفل • ثم التحق بكتاب فقيه القرية ليحفظ القرآن • وحفظه ولم يبلغ العاشرة ، ثـم حفظ المأثـورات الشعبية والاوراد وأناشـيد الصوفية والقصص الفولكلورية •

ثم رحل من القرية الى الازهر فى فترة الصراع بين الجديد والقديم التى فجرها محمد عبده وكان الازهر يمثل « التحدى الاكبر الذى كان عليه أن يواجهه اذ كان يعتبره مهد العلم المطلق الذى لا حدود له ، ولكنه ما لبث أن احتقر هذا العلم (٤٠) وأثناء تواجده بالازهر سمع تفسير محمد عبده للقرآن ، وهو تفسير جديد لم يعرفه الازهر من قبل ، وسمع عن تحرير المرأة ، وقرأ ترجمات عن الكتب الاوربية • وكان يتردد على دار الكتب ليقرأ فى الوقت نفسه المتون القديمة والحديثة وبايجاز لقد عاش فترة اضطراب ذهنى ، وتعاطف مع محمد عبده ، وسخط على معارضيه ثم بدأت روح التمرد تتكون عنده ، فثار على الازهر ، وسئم مما يدرس له هناك ، وطرد مرات من محاضرات بعض الشيوخ ، وتعرف وقتئذ على لطفى السيد صاحب الجريدة ، ثم اندفع الى الجامعة المصرية والتحق بها، وعرف نوعا جديدا من العلوم ، وهناك عرف المستشرقين • ثم سافر بعد ذلك الى فرنسا ، ودرس الادب وعلم النفس والفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع ، وهناك تعلم المنهج العلمى فى التفكير ! •

أما حسن البنا صاحب دعوة العودة الى تعاليم السلف الصالح ، ومؤسس حركة الاخوان المسلمين ، فقد ولد بقرية المحمودية بمحافظـة البحـيرة ، وكان أبوه يحترف صناعة الساعات ، ويشغل وظيفة مأذون الناحية وامام المسجد ، ومنذ الثامنة حفظ القرآن فى كتاب القرية على

---

(٤٠) حمدى السكوت : طه حسين ، تأليف حمدى السكوت ومارسـدن جونز ــ القاهرة ، قسم النشر بالجامعة الامريكية ١٩٧٥ ، ص ٤ •

يد الشيخ زهران . ثم التحق بالمدرسة الاولية وكان يقسم وقته بين الدرس نهارا وتعلم صناعة الساعات ليلا ، ويحفظ حصته من القرآن بعد صلاة الصبح حتـى يذهب الى المدرسـة (٤١) ، وتعرف على اخوان الحصافية وهم طريقة صوفية ، وجذبته حلقة الذكر وقرأ كتبهم ، وانخرط فى نشاطهم لمدة ٢٠ عاما كما أسس جمعية منع المحرمات ، وفى بداية حياته اصطبغت رؤيته للامور بصبغة صوفية بتأثير تعاليم أبى حـامد الغزالى . ورأى أن الدعوة الصوفية هى علم السلوك والتربية . ثم التحق بمدرسة المعلمين الاولية بدمنهور ، ليعد نفسه ليكون مدرسا بالمدرسة الابتدائية ، ويصف أيام المدرسة فى هذه الدار بأنها أيام الاستغراق فى عاطفة التصوف والعبادة ومطالعة الكتب الدينية . ثم ترك دار المعلمين والتحق بدار العلوم بالقاهرة وعايش كل أحداث ما بعد الحرب العالمية الاولى وانشاء الجامعة المصرية ، وظهور حركة كمال أتاتورك ، وانتشار بعض الحركات الفكرية الغربية ، ثم تحرك من القاهرة الى الاسماعيلية للعمل مدرسا بالمدرسة الابتدائية وقضى هناك أربع سنوات كون خلالها جماعة الاخوان . ثم عاد الى العاصمة ليمارس نشاطه الدينى والسياسى .

وتبين لنا ظروف نشأة أفراد الصفـوة المصرية اختلاف الجـذور الاجتماعية » (٤٢) لهؤلاء الذين أثروا فى المجتمع المصرى أكبر تأثير ، فمعظمهم لم يكونوا أبدا من أبناء المدن على خلاف ما يدعى العروى الذى يرى أن « النخبة تكاد تكون دائما من أبناء المدن (٤٣) وهم وان كانوا من غير مواليد المدينة ،فا نهم رحلوا من الريف الى المدينة ليتعلموا فيها

---

(٤١) حسن البنـا : مذكرات الدعوة والداعية . القاهرة ، دار الشهاب، ص ١٥ ، ١٦ .

(42) Putterman Robert : The Comparative study of Political elite. op. cit. pp. 76 - 78.

(٤٣) عبد الله العروى : أزمـة المثقفين العرب تقليدية أم تاريخانية . ترجمة ذوقان قرقوط . بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٨ ، ص ٤٦ .

وتأثروا بمناخها ، بعضهم طرق صحن الازهر وتعلم فيه . وبعضهم التحق بمدارس التعليم الجديـدة ، لكن اقامتهم فى المدينـة لم تقطع صلاتهم وجذورهم بالريف ، فهناك المصالح الاقتصادية التى ارتبط بها البعض ، وهناك الاهل والاقارب ، فأحمد لطفى السيد ابن العمدة ، وحفيد العمدة استطاع أن يؤثر فى فكر وضمير بعض المصريين ، ونشأ طه حسين وعلى عبد الرازق فــى قريتين متجاورتين بصعيد مصر ، ألف كل منهما كتابا أحدث انقلابا كوبرنيكيا فى حياة وفكر المصريين ، الاول ابن رجل فقير والآخر من عائلة موسرة ، وولد رفاعة الطهطاوى مثلهما بالصعيد ونزح الثلاثة الى القاهرة للتعليم بالازهر .

وتبين قراءة السير أن قلة من الصفوة المصرية ولدت ونشأت فى الحضر مثل قاسم أمين وطلعت حرب ، بعض هؤلاء الرواد الذين أثروا فى تفكير المصريين وسلوكهم ينتمون الى أسر كادحة ، ومجموعة ثانية تنتمى الى أبناء الموظفين ومجموعة ثالثة من أبناء كبار ملاك الارض ، وبعضهم كان أكبر اخوتهم مثل لطفى السيد ، أما طه حسين فكان ترتيبه السابع بين اخوته .

- **العناصر الاجتماعية التى نادت بها الصفوة الجديدة :**

ماذا يعنى هذا ؟ ان أغلب أفراد الصفوة ، نشأوا بالريف ، وحفظوا القرآن [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] ، ومنهم ابن كبار ملاك الارض الزراعية . والريفيون منهم قدموا الى القاهرة من أجل التعليم ، وهناك صدموا حضاريا ، وكان وقع الصدمة الحضارية عليهم متباينا ، البعض بهرته الحضارة الغربية الوافدة الى القاهرة فأعجب بها اعجابا مطلقا فتمرد على حياة الفلاحين ، وتقاليد وقيم المجتمع الاقطاعى ، والبعض الآخر لم ير فى القاهرة الا مظاهر الانحلال فتمرد عليها .

[illegible]
[illegible] ، والاهتمام بالتصنيع والعمل من أجل اللحاق بالدول المتقدمة واستهجان اللامبالاة والتواكل والتماس العذر للكسل وذكر القضاء والقدر والاتكال على الله والتعليل بالمعاذير والاعتماد على السلطة • بعضهم نادى بالتخلص من الخلافة الاسلامية وتأكيد الشخصية المصرية ورأى بناء دولة مصرية عصرية تماثل أوربا باعادة الثقة بين المصريين لان عدم الثقة بين المواطنين من طبائع الاستبداد (٤٤) ومنهم من نادى « باسلام قوى حاكم » (٤٥) •

ولا ريب أن هؤلاء المثقفين لهم الفضل فى هز الركود الذى كان طابع البناء الاجتماعى فى مصر ، وأحدثوا هزة ثقافية أثارت وحركت فكر فئات الشعب كلها ولو بدرجات متفاوتة • وهذه الصفوة فى مصر على اختلاف مبادئهـا حاولت أن تندمج فـى المجتمع ، وتبث أفكارها ، واستقطبت المؤيدين لقيمها واتجاهاتها ، وقدمت المثل والنمـاذج التى يجب أن تحتذى من أجل خدمة المجتمع ، مما كان له أثره فى تغيير مكونات شخصيات المصريين •

ولقد انطلق أفراد الصفوة المثقفة أمثال طه حسين ولطفى السيد وعبد الرازق وقاسم أمين من القاهرة ، [illegible]
[illegible] ، وقد تعالى بعضهم على الجماهير ، [illegible]
[illegible] وهو لطفى السيد الذى لم تسمح له أرستقراطيته أن ينزل الى مستوى الجماهير لمخاطبتهم ، بل ظل طوال حياته يخاطب الصفوة المثقفة والمتعلمين بعيدا عن الجماهير يطل عليها

---

(٤٤) محمد عمارة : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، الجزء الاول ، تحقيق ودراسة محمد عمارة • بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص ٣٣٠ •

(٤٥) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية ، المرجع السابق ، ص ٧ •

من عل ويخاطبها بلغة لا تفهمها ، وكان أرستقراطى الفكـر والملبس ، أرستقراطيا فى طريقة حياته وتطلباته ، وهو فى هذا كان معبرا عن طبيعة الاعيان التى ينتمى اليها ، وترغب فى الاقتراب من الصفوة التركية التى تحكم وتسيطر • ورغم هذا التعالى ، فان أفكار هذه الصفوة كانت تصل الى الناس، واندمجت فى شخصيات أفراد المجتمع من المثقفين شيئا فشيئا، ووجدت من يتقبلها رويدا رويدا ، وان كان أفراد المجتمع الحضرى وأفراد الطبقة الوسطى من القرويين المتعلمين أسرع فى قبولها ، ومن ثم فـلا غرابة أن يتقبل ويساير هؤلاء أفكار قاسم أمي[illegible] ، ويرسلون بنات[illegible] ، ويعجبون بأفكـار لطفى السيد وطه حس[illegible]أو طلعت حـرب ومحمـد عبـده عن الاقتصـاد و[illegible] ، أما حسن البنـا وطليعـة الا[illegible]خاطبـوا مباشرة البرجوازية المصرية الصغـيرة من أهـل الريف والمدن ، وتغلغل نفـوذ الاشتراكيين والاخوان مباشرة الى مجتمع الطلاب العمال والفلاحين ، ولقد جاب حسن البنـا البلاد من أقصاها الى أدناها يدعو لدعوته بتأثير تربيته الصوفية ، ونشر دعوته بين العمال والفلاحين وقام برحلات الى الصعيد مبررا تنقلاته « لا ينفع فى بناء الدعوة الا ما بنيت لنفسى » (٤٦) • منطلقا فى ذلك من أيديولوجية قادرة على التأثير على عدد كبير من الناس ، وانضم الى جماعته النجار والجناينى والمكوجى والطالب والمثقف وتوغل بين العمـال الذين يعملون مع قـوات الاحتـلال فـى أبى صويـر واهتـم بالاطفال (٤٧) ودعا الى تحفيظهم القرآن ، هذا الجهد الذى قام به أدى الى تكوين جماعة توحدت شخصياتهم بما بشر به ودعا اليه حسن البنا ، وهى جماعة بلغت عضويتها فى أقل من ٣٠ عامـا حـوالى نصف مليون عضوا •

---

(٤٦) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية ، المرجع السابق ، ص ١٣٥•

(٤٧) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية ، المرجع السابق ، ص ١٦٧•

ولم يكن حسن البنـا مبدعا فى طريقته لنشر دعوته بل سبقه اليها الاشتراكيون منذ عام ١٩٢٠ فقد نشروا أفكارهم عن الاشتراكية مباشرة بين العمال والفلاحين والطلاب ، وتغلغلوا فى المدن ومراكز التجمع فى طنطا ودمنهور وبورسعيد وسمنود والعطف والمحلة وشبين الكوم وأبو كبير، منطلقين من القاهرة والاسكندرية ، وعملوا فى الريف سط الفلاحين(٤٨) وكان منهم الطبيب والمدرس والعامل والازهرى ٠ هذا الاختلاط المباشر بالجماهير ، هو السبب وراء عمق تأثير كل من زعامة الاخوان والطليعة الاشتراكية على الجماهير ، بالرغم مما تعرضت له الجماعتان من خصومة شديدة مع السلطة ٠

لقد كمنت قوتهما فى عدد أتباعهمـا الذين لقنـوا المبادىء تلقينا مباشرا وتوحدوا بها وبالرغم من الصراع مع السلطة ، تزايد أنصار مبادىء حسن البنـا كما تؤكد ذلك استمرار الجماعات الاسلامية فى نشاطها ٠ وفى الجانب المقابل نجح ثلاثة اشتراكيين فى انتخابات مجلس الشعب عام ١٩٧٦ ٠ وهذا كله يدل على اعجاب الناس بأفكار متناقضة ، وتوحد جمهور لا يمكن انكاره أو الاستهانة به بالافكار السلفية أو الاشتراكية ، وان جهود زعماء الاخوان والطليعة الاشتراكية وجهت الى نفس المجموعات من الكادحين وأبناء البرجوازية الصغيرة ، ولكنهما استخدما قيما وحلول مختلفة ، مما يثبت لنـا أن شخصيات المصريين توحـدت مع عناصر غير متجانسة ومتنافرة بتأثير الصفوة غير المتجانسة ٠

هذا اللاتجانس بين فكر وقيم واتجاهات الصفوة المصرية صـورة مصغرة للمجتمع الكبير المملوء بالمتناقضات بعد انفتاحـه على الثقافـة

---

(٤٨) حسن البنا : مذكرات الداعى والداعية ٠ القاهرة ، دار الشهاب ، ص ٢٥٧ ٠
رفعت السعيد : تاريخ الحركة الاشتراكية فـى مصر : ١٩٠٠ – ١٩٢٥ ، الطبعة الثانية القاهرة ، دار الثقافة الجامعية ، ص ٢٤٦ ٠

الغربية ، ونتيجة لحركات المد والجذر الاجتماعية وحركات الصحوة والركود التى كانت تنتاب البلاد سياسيا واقتصاديا ٠

~~وعلى نقيض المجتمع المصرى~~ نجد فى المجتمعات التقليدية الاكثر بساطة أو الاصغر ~~[illegible]~~ ٠ فمثلا نجد فى العربية السعودية ودول الخليج واليمن ، أن الصفوة تقتصر على أبناء العائلات الحاكمة والحاشية التى تحيط بها والمقربين منها ، وفى هذه المجتمعات نلاحظ تجانس فكر وسلوك الصفوة ، ومحافظتها وتدعيمها لقيم مقدسة متوارثة ٠ وفى ايران قبل رحيل الشاه كانت ثمة صفوة رسمية حكرا على عائلة الشاه ومؤيديها ، ومن اقترب منها ممن نال تعليما غربيا ، وتعلم فى معاهد أوربا وأمريكا كانت هذه الصفوة متجانسة فكرا وسلوكا حتى جاءت ثورة الخومينى ، فاحتلت اللاصفوة مكانة الصفوة ٠ أى احتل هؤلاء الذين كانوا يبثون أفكارهم فى الخفاء وبعيدين عن السلطة ، وكانت لهم الغلبة على الصفوة الحاكمة ، مكانة الصفوة بعد الثورة ٠

أما فى مصر ودول العالم الثالث التى تموج بالتغيرات ، فكما رأينا تخرج الصفوة وتفرز فى كل دورة من طبقات عديدة ، ومن ثم فهى غير متجانسة ، وغير مستقرة وليست وراثية وليست حكرا على جماعة أو طبقة ٠ اذ كانت الصفوة يتجدد بعضها دائما فى مصر ، وهؤلاء المجـ[illegible]

[illegible] ٠ ويحاول هذا البعض المتجدد أن يقصى الصفوة القديمة العاجزة عن الاستمرار ، والتكيف مع القوى المحركة للتاريخ، ويسعى الى الحصول على موافقة وتقبل شخصيات الجماهير لافكاره وقيمه ٠ والصفوة المصرية التى ظهرت ابتداء من مطلع

---

(49) Chateau Frank : Political elite and Political developement. Princton Uni, Priston N.J. 1965. p. 6.

هذا القرن والتى حاولت تحريك المجتمع من رقدته ، كانت غير متجانسة سويا لانتقادها الوحدة الفكرية ، بل كانت قيم بعض أفرادها غير متكاملة، ولذا فمن الطبيعى أن يطرح بعضهم جانبا الحل الثورى ــ ما عدا الاشتراكيين ــ بل يرفضونه ، لهذا خشى سعد زغلول العنف الثورى الذى صاحب ثورة ١٩١٩ وطالب محمد عبده بالاعتدال ، وأعلن لطفى السيد كراهيته للعنف ونادى بالاصلاح العقلى، ووقف طه حسين الثائر ضد الازهر والجامعة والتقالية موقفا معتدلا من حل مسائل الجماهير الملحة ٠

فأغلب أفراد الصفوة التى كانت تناوىء وترفض المجتمع التقليدى ورواسب العصور الوسطى فى الدين والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية وأشكال السلوك التقليدى كانت تنادى بالاعتدال فى حل المسألة المصرية ومشكلات المجتمع الاجتماعية ، وترفض الحلول الثورية ، وكانوا ينادون بالاصلاح من أجل بناء الامة « علميا وفكريا » (٥٠) ، فهم كانوا يؤمنون بالتطور ويخشون الطفرة ٠

وهناك نماذج عديدة تدل على تناقض أفراد الصفوة المصرية مع أنفسهم ، وترمز الى أن حالة اللاتجانس التى عاشها المجتمع ، ظهرت جلية عند الزعماء ، والقادة الذين توحدوا بقيم متشابهات انعكست على سلوكهم وانكارهم ٠

فطلعت حرب الذى حاول بناء بنك وطنى لن تكون بدونه مصر حرة ، والذى آمن بالتحرر السياسى والاقتصادى ، رفض حرية المرأة ، وآمن بالحجاب وكان من دعاته ٠

---

(٥٠) محمد عماره : الاعمال الكاملة لقاسم أمين ، المرجع السابق ، ص ١٣٣ ٠

وكان سعد زغلول متناقضا مع نفسه في موقفه من كتاب الشعر الجاهلي ، فسعد صاحب دعوة الاستقلال السياسي رفض استقلال الفكر ٠ فعندما ثارت ثائرة المحافظين ضد المجددين المتمردين على المجتمع التقليدى بعد ما نشر الكتاب برز موقف سعد المتناقض ، كرجل آمن بالقانون الوضعى وطالب بادارة الدولة ادارة عصرية ونادى بالاستقلال السياسى ، اذ سمح بمناقشة قضية هذا الكتاب فى المجلس النيابى وأيد مصادرته واتهم طه حسين « بالجنون » (٥١) ٠ وقد وصف العقاد سعد زغلول الزعيم فى كتابه « رجال عرفتهم » بأنه قوى الفكر ولكنه قد يكون فى بعض تقديراته واحتمالاته قوتين متعارضتين (٥٢) ٠

وكان طه حسين مؤلف « المعذبون فى الارض » وصاحب دعوة التعليم كالماء والهواء ينتمى حتى الثلاثينات الى مدرسة الجريدة الصادرة عن حزب كبار الملاك ٠ ولقد وعى طه حسين بهذا التناقض فبين أنه لم ينتم الى الكيان الحزبى لحزب الاحرار الدستوريين لانه من متوسطى الحال ٠ ولكن جريدتهم أنسب البيئات لمذهبه العقلى الذى يرفض البيئة الازهرية (٥٣) ٠ ومثلما كان سعد وطلعت حرب وطه حسين ، كان لطفى السيد ٠ ولقد تناقضت مواقفه السياسية مع مواقفه الفكرية (٥٤) فانتماء لطفى السيد السياسى الى حزب من أحزاب الاقلية فرض عليه أن يقف موقفا ضد الحركات الوطنية والشعبية ، ولكن موقفه السياسى لم يحل بين ظهور لمحات ديمقراطية تحررية له ، وتبنيه

---

(٥١) عبد العزيز شرف : طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ٠ القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٧ ، ص ١٦٥ ٠

(٥٢) عباس العقاد : رجال عرفتهم القاهرة ، كتاب الهلال ، ١٩٦٣ ٠

(٥٣) عبد العزيز شرف : طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ، المرجع السابق ، ص ٩٢٨ ٠

(٥٤) رفعت السعيد : تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ، ١٩٠٠ ـ ١٩٢٥ ، المرجع السابق ، ص ٣٢ ٠

للمذاهب والافكار الجديدة ، ودعمه لتحرير المرأة أثناء رئاسته لجامعة القاهرة كما ساهم فى انشاء الجامعة الاهلية ، بل جذب واستقطب الكتاب المعارضين له سياسيا للكتابة معه فى « الجريدة » وجعل منها مدرسة فكرية .

واذا كان بعض العلماء النظريين قد ادعوا أن وحدة الصفوة ضرورية ، واذا كانت بعض الدراسات الامبريقية قد بينت أن تكامل الصفوة هو الصورة المميزة فى الدول الصناعية والرأسمالية والمجتمعات الصغيرة، فاننا لا نجد ما يماثل هذا التكامل عند الصفوة فى مصر والبلدان النامية وحديثة العهد بالاستقلال ، ففى المجتمعات المتغيرة تتصارع الصفوة ، وتتباين أراؤها وتتعارض ازاء أنماط السلوك المقبولة والمرذولة الى أن يستقر المجتمع ويتحقق التكامل ، مما ينعكس أثره على مكونات الشخصية مع عناصر متشابهات وتؤدى الى البلبلة الاجتماعية وسيادة ظاهرة الازدواج الاجتماعى .

ويدعونا عدم التجانس بين الصفوة المصرية الى القول بأنها لم تكن أبدا جماعة منظمة ، ولم تكن جماعة متكاملة (٥٦) ، وليست حكرا على عائلات بعينها بل هى جماعة مفتوحة ، مقبولة اجتماعيا فرضت نفسها بكدها وأفكارها عندما تمردت على الواقع التقليدى أو عارضت التحديث مستندة على أحكام الشريعة ، وكانت دائما تعانى من الصراعات والتنافس وكم اتهم أنصار الانفتاح على الغرب بالعمالة ، وكم اتهم لطفى السيد فى وطنيته بسبب اعتداله ، وكم اتهم الاشتراكيون بالالحاد . وكم أتهم السلفيون بالجمود ، وكم اتهم المجددون فى عقائدهم وأعراضهم ! ؟ هذا التباعد فى الافكار والسلوك بين الصفوة الذى كان سائدا وقتئذ ، هو نتيجة طبيعية لكون المجتمع يعايش فترة من التحول ، ومحصلة حتمية

---

(55) Leonard Binder : Egypt The integrative Revoulition. in Lucian W. Pye & Sindney Verba. Political Culture and political Development. Princton Uni princton N.J. 1965 p. 419.

للتباين البنائى فى مصر ، وتفاوت تأثير ندرة الموارد على بناء هذه الصفوة(٥٥) مما يترتب عليه أن كانت مصر مجالا لافكار متصارعة ، وبيئة لانماط سلوك متباينة تباينا شديدا ، تفرز دوما صفوة لا تجمعها وحدة فكرية ولا وحدة هدف ٠

ه[illegible] [illegible]ات بين [illegible] [illegible]الة [illegible] العالم الثالث تميز الصفوة فى هذه البلدان ، فالصفوة فى البلدان المتقدمة صناعيا والمجتمعات التقليدية تتكون من أفراد نشأوا نشأة متجانسة ، وتعلموا تعليما متقاربا يعبر عن خط فكرى واحد واضح بالنسبة لهم ٠ ورغم وجود تباين فى حياتهم الوظيفية وأساليب حياتهم ، فثمة أسس نفسية واجتماعية لهذه الوحدة الفكرية والتجانس الاجتماعى ، وتقوم هذه الاسس على حقيقة أنهم نشأوا من نمط اجتماعى واحد ، وأنهم يمتزجون سويا ، ويعبرون عن مصالح مشتركة كشريحة اجتماعية ، بل كثيرا ما يتصاهرون سويا ، هذا الى جانب أنهم يتعلمون فى معاهد خاصة تؤهلهم لاحتلال مكانة الصفوة (٥٧) أ[illegible] مثل غيره من المجتمعات النامية ، فلم يؤهلوا فى معاهد خاصة ، فالتعليم الذى نهلوا منه كان متباينا ٠ فهناك من اقتصر تعليمه من الصفوة على التعليم الازهرى وهناك من درس فى المدارس الحديثة ، وهناك من جمع بين هذين النوعين من التعليم وهناك من اقتصر تعليمه على مصر ، وهناك من سافر الى الخارج ولكن التعليم وحده لم يكن كافيا لصنع الصفوة فى مصر ، فهناك من تعلم تعليما أزهريا وكان أكثر انفتاحا وتحررا فى تفكيره

---

(56) Tachatau Frank : Introduction. Political Elites and political. Development in the Middle East. In Frank (ed) op. cit. p. 4.

(57) Putterman : The comparative study of political elite. op. cit. p. 108.

ممن لم يتعلم تعليما أزهريا • فعلى عبد الرازق ومحمد خالد، تعلمابالازهر، ولكنهما كانا أكثر تحررا فى أفكارهما ممن تعلموا تعليما عصريا من أبناء الكادحين والموسرين بل ممن تعلموا فى الخارج •

وبالرغم من تفشى الامية والجهل بين غالبية الشعب ، بدأت اعداد الصفوة المثقفة تتزايد عاما بعد عام ، واحتلت مكان القيادة ، وحلت محل الصفوة الاجنبية فى مواقع العمل والانتاج والفكر ، ويعكس تزايد الصفوة المثقفة طبيعة المجتمع المتغير (٥٨) [illegible]
[illegible] ، اذ لعبت الجامعة دورا فى تنشئة وتوجيه الصفوة المصرية توجيها جديدا الى الفكر الغربى والانفتاح على تيارات فكرية عديدة تعلموا منها المنهج العلمى فى التفكير ، كما عرفوا النظم السياسية والاجتماعية الجديدة • وقد تبنى هؤلاء المثقفون بدورهم أفكارا ترضى حاجات الجماهير الى التغيير ، رفعت بهم الى مكانة غير عادية ـ رغم ابتعاد البعض عن الجماهير ـ فهم كانوا سادة المعرفة وأصحاب الخبرة فى البلد • و[illegible]
[illegible] بهم •

ولقد كانت الصفوة المثقفة والشبان المتعلم فى مصر ، وكل بلدان العالم الثالث ، يرون فى أنفسهم الصفوة المختارة التى أفرزها التاريخ لقيا[illegible]ت
لها ، فهم حكامه السياسيون ، وحكامه المتحررون ، وصفوتـه الفكرية والادارية والفنية ، فهم «العقل الواقعى الصادق الموجه للمجتمع» (٥٩) الذى ينبغى أن يتولوا قيادته ، لانهم يمثلون الرأى العام الحقيقى ، تلك الصفوة وليست [illegible] التى تحتل وضعا يمكنها من التأثير على

(58) Goldthorde J.E. : The Sociology of third world, Cambridge. Cambridge Uni press. 1975. pp. 13 - 14.

(59) Heinz Maus : A short History of sociology. op. cit. p. 58.

أخلاقيات ومعنويات الناس تأثيرا فعالا ، فهؤلاء المثقفون أكثر مهارة فى صياغة صور بديلة عــن الواقع الذى [illegible] أكثر [illegible] قعية ٠

ولقد مارست هذه الصفوة المثقفة قيادتها الفعلية للجماهير طوال النصف الاول من القرن العشرين تفرز دوما آراء متعارضة حتى اصطدمت بالصفوة العسكرية فى مارس ١٩٥٤ ، فتقوقعت وانعزلت عن الجماهير ٠ ومن ثم ظهرت صفوة جديدة تحت شعار جد[illegible] أهل [illegible] ال[illegible] (٦٠) ومصــالح جديدة ــ حسب تعبير موسكا ــ ي[illegible] جديدة ، تدعو الى توحد الناس بها وتطلب قبولهم لها ٠

ولقد كانت هذه الصفوة المثقفة تنادى بقيم جديدة ، وهاجمت قيما سائدة ولكن القيم التى دع[illegible] م[illegible] ٠ ان ا[illegible] ا الصفوة ، يعبر عن المجتمع المتغير أكثر مما يعبر عن اختلافات التنشئة الاجتماعية ٠ وهذه الافكار المتباينة التى تدعو اليها الصفوة ، توحدت بها شخصيات أعجبت بها ، مما ولد شخصيات اجتماعية قلقة تتوحد مع قيم متباينة وأفكار متعارضة ٠

ويبين لنا تحليل الافكار التى نادت بها الصفوة المثقفة بأن لها ثقلا لا ينكر ، فقد [illegible] ، الذين حاولوا اعادة بنائه ، وتغيير مكونات الشخصية المصرية ، [illegible] [illegible] ها ، وزعز[illegible] يم السائدة ، وأضفت الشك على الهالة التى كانت تضفى على أنماط السلوك

---

(60) Leonard Binder : Egypt. The integrative Revolutoin op. cit. p. 443.

التى كانت تعتبر مقدسة والرواسب الاجتماعية التى توجه سلوك الاشخاص وطرحت قضايا جديدة ، أخذت تستقطب المؤيدين والمعارضين لها يوما بعد يوم ، مما مهد الطريق للتغير والتمرد على المعايير التقليدية والافكار المتوارثة وأشكال السلوك اللاعقلانى • وكان من الطبيعى عندئذ ظهور الدعوة التى تقاوم التحديث مستندة على أفكار السلفيين التى نادت بأن أساس البلاء الاتجاه الى الغرب ، وان احياء هذه الامة بالرجوع الى القرآن (٦١) ، وكان ذلك التيار السلفى الذى يضم كثرة من الشباب يعارض جيل الشباب الذى دعا الى التغيير ، ورفض القديم ، وبهر بالحضارة الغربية •

هذا الاندفاع الى الغرب انبهارا واعجابا بحضارته ، وهذا الانجذاب الى الماضى البعيد ممثلا فى العودة الى السلف الصالح يكشف عن الظواهر الآتية : [illegible] عن مدى رفض وتمرد الصفوة على الواقع المصرى ، وأن المجتمع التقليدى مجتمع القرن الماضى لم يعد كافيا لاشباع حاجات الناس، [illegible] عن تمرد هؤلاء بحثا عن قيم جديدة وفكر جديد واقتصاد جديد وأنماط حياة جديدة ، [illegible] أن القيم التى كانوا يدعون اليها ليست متكاملة وليست متجانسة ، وليست محكمة بل قيم متشابهات ، مما أدى الى توحد شخصيات المصريين بقيم متعارضة كان لها أثرها على مدى استقرار سلوكها •

وكان أشد المجالات صراعا ، [illegible] ، ومكانة الدين فى المجتمع ، ومدى التسامح بين الاديان •

ولقد ظهرت صفوة مثقفة تؤمن بأن الدين ضرورة اجتماعية وأن الدين لله والوطن للجميع ، وأن الدين من أهم مكونات الشخصية القومية المصرية ، ولكنهم دعوا الى ضرورة الفصل بين الدين والحضارة ، والدين

(٦١) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية ، المرجع السابق ، ص ٦٩ •

والعلم، وأن نبعد أمور الدين عن أمور الدولة ، وأنه لا سيطرة للدين على المجتمع ، « فالدولة هى مصر » ، وكان على عبد الرازق فى كتابه « الاسلام وأصول الحكم » صاحب صيحة تردد صداها حتى صار مبدأ الدولة وتبنته الاحزاب ، ومؤداها ضرورة فصل الدين عن الدولة وادعى أن هذا الفصل يتطابق مع تعاليم القرآن ، وأن الدين فى جوهرة روحى خالص لا علاقة له بالسلطة السياسية ، كما جعل من الشورى والانتخاب أمرا ممكنا ،ومن قبل على عبد الرازق ، أصدر محمد عبده ، عددا من الفتاوى الهامة فيما يختص بالاهداف التى تساعد على تفسير القانون الدينى وفق متطلبات العصر ، أثرت فى تفكير واتجاهات عدد كبير من المصريين سلبا أو ايجابا ، وأصبح له تلاميذ ومريدون توحدوا بأفكاره .

لقد وقف محمد عبده موقفا مؤيدا وواضحا من حركة التجديد الدينى وطالب بفتح باب الاجتهاد فى فهم النصوص الدينية ، ورأى [illegible] (٦٢) وألا نسير مع الاوهام والخرافات ، وطالب بالتخلى عن الجمود وبصر الناس بأن العيب ليس فى الدين بل فيمن لا يفهمه ، كما أن الاسلام يدعو الى الاصلاح ولا يرفضه ، ووعى الناس بأن الاسلام لا يقف حجرة عثرة فى سبيل المدنية (٦٣) ، بل ان أى اصلاح يجب أن يستند على الدين حتى يمكن قبوله لدى العامة، ودعا الى تحرر العقل من قيد التقليد ، وفهم الدين بالرجوع الى ينابيعه (٦٤) ، وال[illegible]

---

(٦٢) محمد عماره : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، الجزء الاول ، المرجع السابق ، ص ٣٥٧ .

(٦٣) محمد عماره : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، الجزء الاول ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩ .

(٦٤) محمد عماره : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، الجزء الثانى ، المرجع السابق ، ص ٣١٨ .

الى الحقيقة ، وأعلى من شأن العقل لفهم القرآن ، بل فهم حقيقة ما يحدث فى هذا العالم ٠

ولقد بدأ محمد عبده نزعته فى تفسير الحياة الاجتماعية وربطها بالدين مراعيا فصل الدين عن الدولة ٠ وهو كرجل دين آمن بالتغير ، وسبق جيله ودعا الى الانفتاح على الغرب ، لان هذا الانفتاح يتيح لنا التعرف على أنماط سلوك جديدة ٠ وطالب بضرورة اصلاح المجتمع من الداخل ، وتنقيح الفكر الاسلامى ليستوعب الحاجات المدنية ، وأعلن أن البدع تناقض الدين ، وحارب الافكار التى تخالف الشريعة وأصر على تطهير الدين من المستحدثات ، وهو كرجل دين طالب بالتخلص من العادات السيئة والبدع وأنماط السلوك المرذولة التى تعوق التقدم (٦٥) ، مثل التملق والرشوة ، وأدلى بدلوه فى العلاقات الزواجية مسترشدا بنصوص قرآنية فرفض تعدد الزوجات ، لان الزواج يقوم على المودة ، كما أعلن حق المرأة فى الطلاق ٠ وتلك أفكار وقيم وأنماط لم تعد محكمة فى بناء الشخصية المصرية بعد أكثر من ٧٥ عاما من الدعوة اليها فلا زال الجدل مستمرا حول حق المرأة فى الطلاق وغيره من الحقوق ٠

هذا الاتجاه فى فهم الدين ، أيده واسترشد به ، ودعا اليه خالد محمد خالد عندما نادى بأن أحد الاسس التى نبدأ منها بناء مجتمع جديد ، هو ألا نجعل من الدين عائقا أمام التغيير ، لكيلا ننفر الناس من الدين (٦٦) ، ولقد آمن محمد خالد بسلطة العقل ، لان العقل يعطينا الحرية فى البحث والمناقشة (٦٧) ، كما كان من الرافضين لاتخاذ الدين

---

(٦٥) محمد عماره : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، الجزء الاول ، المرجع السابق ص ١٤٨ ٠

(٦٦) خالد محمد خالد : من هنا نبدأ ٠ الطبعة التاسعة ٠ القاهرة مؤسسة الخانجى ١٩٥٨ ، ص ٤٤ ٠

(٦٧) نفس المرجع ، ص ٤٤ ٠

وسيلة للدفاع عن مكاسب ومزايا الرجعية الاقتصادية والاجتماعية أو لتبرير أوضاع الفقراء ٠

لقد أيد طه حسين اتجاه التحرر الدينى ، ورفض تقديس السلف والقدماء وثار على الازهر وعلومه ، وآمن بالتجديد العقلى متفقا فى ذلك مع التيار الذى قاده محمد عبده ، وناصره قاسم أمين الذى يرى ضرورة عدم نسخ القديم والاحتذاء به كمثال بل علينا أن نقيم الحضارة الاسلامية القديمة بميزان العقل (٦٨) ٠

وكرد فعل لهذا الاتجاه قويت اتجاهات السلفيين ، ولم تستطع زعامة السلفية أن تهاجم هذا الاتجاه الذى يؤمن بالعقل لفهم الدين هجوما صريحا ، بل حاولت أن تتمسك فى هذا الاتجاه المفتوح على الغرب ، واتخاذ الهجوم على الغرب ، وسيلة لنشر أفكارهـا ٠ وصفـوة الصفوة لهؤلاء السلفيين المعاصرين هو حسن البنا ٠ وهو باعتراف خصومه السياسيين من أذكى الشخصيات (٦٩) بل وصفه أحد الاشتراكيين بالزعيم ، وكان اتجـاه حسن البنا يعالج كل شيء معالجة وجدانية من منظـور الدين ، وكانت له قدرة شخصية فى التأثير على الناس (٧٠) واقناعهم ٠ وترجع أهمية حركة حسن البنا الى أنه رغم وفاته منذ نيف وثلاثين عاما فلا زال له أنصار وأتباع ، وما زالت دعوته كدعوة اسلامية محمدية قرآنية (٧١).

---

(٦٨) محمد عماره : الاعمال الكاملة لقاسم أمين ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ٠

(٦٩) رفعت السعيد : حسن البنا من ٠٠٠ كيف ٠٠ ولماذا ؟ ٠ القاهرة ٠ مكتبة مدبولى ١٩٧٧ ص ٤٩ ٠

(٧٠) ميشيل ريتشارد : ايديولوجية جماعة الاخـوان المسلمين : تأليف ريتشارد ميتشد ، ترجمة منى أنيس وعبد السلام رضوان ، الجزء الثانى ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، ص ٢٧٨ ٠

(٧١) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية، المرجع السابق، ص ١٤٥ ٠

حية لم توؤد ، بل ان نشاط الجماعات الاسلامية التى تنطلق من فكر حسن البنا ، لا يمكن تجاهلها أو انكار قوتها ، ولهـذه الجماعات أيديولوجية قادرة على الدخول الى قلوب الجماهير من باب لا يغلق أبدا هو الدين ، ولذا نجحت هذه الجماعة فـى بث فكـرة أن الاسـلام دين ودولة فى شخصيات أفراد كثيرين ٠ ونادت بأن مصر جزء من المجتمع الاسلامى(٧٢) ونادوا بضرورة العمل بالاسلام ، والعمل بـه فـى كل نواحى الحياة ، ومحاربة الغزو الفكرى (٧٣) ، كما أن احياء هذه الامة يعتمد أساسا على الرجوع الى الاسلام (وهم يريدون البيت المسلم والشعب المسلم) ٠ أما فصل الدين عن السياسة كما يطالب المجددون فبدعة أوربية فى فكـر صفوة الاخوان ، كذلك فالتحرر العقلى مرتبط بالتحلل فى النفوس وفى الآراء وفى الافكار (٧٤) ولذا فمن الضرورى تغلغل الدين فى تسيير حياتنا ، فالقرآن دستورنا والرسول قدوتنا (٧٥) ٠

وازاء هذا التضارب بين القول بأن الدين لله والوطن للجميع وما يترتب عليه من فصل الدين عن الدولة من جهة ، والقول بأن الاسلام دين ودولة ٠٠٠ من جهـة أخـرى ، وجـد الناس أنفسـهم حائرين بين قيـم متشابهات تصدر عن صفوتهم تحدد علاقة الدين بالدولة ٠

وثمة ظاهرة ساهمت الصفوة ب

---

(٧٢) حسن البنا : من رسائل الاخوان المسلمين ، القاهرة ، دار الطباعة والنشر الاسلامية ، ص ١٦ ٠

(٧٣) حسن البنا : أيديولوجية جماعة الاخوان المسلمين ، الجزء الثانى ، المرجع السابق ، ص ١٤٥ ٠

(٧٤) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية ، المرجع السابق ، ص ٥٣ ٠

(٧٥) حسن البنا : من رسائل الاخوان المسلمين ، المرجع السابق ، ص ٧٩ ٠

محمد عماره : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٣١٧ ٠

فى تغيير مسار التعليم فى مصر ، ونقلت نظم التعليم الغربية ، وأنشأت مدارس ومعاهد تعليمية سارت على الطريقة الغربية ، مما ساعد على تكوين صلة فكرية بيننا وبين الغرب وساعدت على نقل الانظمة وأساليب الحكم وتشكيل أنماط السلوك . ولقد هز نظام التعليم الجديد الهالة القديمة المتوارثة عن الازهر والقيم التقليدية . وأقبل الناس على تعليم أولادهم فى المدارس الجديدة ، وأصبح عددهم يتزايد عاما بعد عام . وكان أخطر ما ترتب على هذا الاتجاه ، فصلنا عن التراث ، حتى التراث العلمى ، وابتعادنا عن أمجاد حضارتنا وجهلنا بمقومات ثقافتنا .

[illegible] المصرى بعد رفاعة الطهطاوى [illegible] . الذى ألح الى أن أسباب التخلف فى المجتمع ترجع الى الجهل . وبالتعليم يمكن أن نبنى كل شى (٧٧) ، (وهو السلاح الذى يحاربنا به الاعداء، وانتشاره أكبر دليل على رقى الامة) (٧٨) ولقد سعى محمد عبده الى انشاء المدارس الخاصة ولتعليم أولاد الفقراء تعليما عاما الى مستوى معين وليتعلموا حرفة يتكسبون منها وأعلن أن الدولة لن ترقى الا بتربية الطبقات الفقيرة ، والتعليم لكل الطبقات حتى أولاد الفقراء (٧٩) ، لاعدادهم لكسب العيش ، مما أثار غضب المحافظين ضده (٨٠) .

[illegible] باعتبارها خطوة عظيمة نحو اصلاح التعليم فى مصر ، لاعداد رجال قادرين على كسب أرزاقهم لا للعمل الحكومى ، وليتحملوا مسئوليه الاعمال التى يزاولونها .

---

(٧٧) محمد عماره : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، المرجع السابق ، الجزء الاول ص ١٥٩ .

(٧٨) محمد عماره : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ١٠٢ .

(٧٩) محمد عماره : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٣٦٠ .

(80) Horani, A : Arabic Thought in Liberal thought. op. cit p. 134.

وأكد أن الجامعة تعمل على تحويل الشعوب من حال الى حال (٨١) ونادى طلعت حرب بالاتجاه الى التعليم الحديث ورفض التعليم التقليدى لانه عقيم لا يحقق المراد منه ، وأعلن أن الغرض من التعليم ليس اعداد الموظفين فقط ، ولذا فمن الضرورى الاهتمام بالتعليم الصناعى لاعداد أيدى مدربة.

ن التعليم أساس الاصلاح ، والاستقلال وضرورة اصلاحه ، ولقد أعطى سعد اهتماما ملحوظا لتعليم المرأة ، واهتم بتعريب التعليم ، وزود مـن عـدد المدارس ، ونشر التعليم بين أبناء الفقـراء (٨٢) .

وكان أحـ يد يكتب باستمرار مؤكدا أنه لا شيء أدل على مدنية ٨٣) وبالتعليم نبنى كل شيء (٨٤) ، وهو السلاح الذى يحاربنا به أعداؤنا ، وانتشاره دليل على رقى الامة ، وأن الغرض من التعليم اصلاح الاخلاق ، وتقويم العادات ، لان التعليم يعلم الانسان أنه انسان ، ودعا الى الاهتمام بفتح المدارس لتخريج أعداد كبيرة من الطلاب وطالب بالمساواة فى التعليم بين الجنسين ، وشدد على تعليم الفتاة ، وأعلن أن الاب الذى يعلم ابنته يخدم أمته (٨٥) ، لان هدف التعليم أن يكون الانسان ، ويعد التعليم خطوة نحو تحريرها من استبداد الرجل . ~~ولقد نادى لطفى السيد الارستقراطى بالتعليم الاجبارى حتى « تمحى الفروق السيئة التى جاءت من تعليم البعض دون البعض»~~ (٨٦) .

---

(٨١) محمد طلعت حرب : مجموعـة خطب محمد طلعت حرب . جمعتها والتزمت بطبعها مطبعة مصر ١٩٢٧ ص ١٣٧ .

(82) Horani, A. : Rrabic Thought in Liberal thought, op cit. p. 210.

(٨٣) لطفى السيد : المنتخبات ، الجزء الاول القاهـرة مكتبة الانجـلو المصرية ١٩٣٧ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٥ .

(٨٤) لطفى السيد : المنتخبات ، الجزء الاول ، المرجع السابق ص ٨٨ .

(٨٥) لطفى السيد : المنتخبات ، الجزء الاول المرجع السابق ص ١١٦ .

(٨٦) لطفى السيد : المنتخبات ، الجزء الاول ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

ينسى على التعليم والمتعلمين فى مصر ، بل البلاد العربية كلها ، فبفضل الشعار الذى رفعه طه حسين « التعليم كالماء والهواء » ، فتح الباب على مصراعيه لابناء المصريين الذين تعلموا ثم علموا أبناء وطنهم وحملوا مسئولية أبناء الدول العربية ، وساهموا فى يقظتها ٠ وقد دعا طه حسين الى المساواة فى التعليم بين المواطنين مساواة كاملة، ذكورا واناثا، أغنياء وفقراء، وبفضل طه حسين وتطبيقه نظام التعليم المجانى انتشر التعليم فى مصر وآمن به المواطنون ، ودعا الى فرض ضرائب من أجل التعليم المجانى ٠ وبجهده تقرر انشاء ٣ جامعات(*)٠ وكان ايمان طه حسين بأهمية التعليم منطلقا من دعوته بأن الجهل عقبة فى سبيل تقدم المجتمع (٨٧) ، وأن التعليم هو وسيلتنا للحفاظ على المقومات القومية للشخصية المصرية ، ولقد حمل طه حسين الدولة مسئولية التعليم حتى لا ينحرف التعليم عن غرضه ، ويحقق أهدافا غير الاهداف المرسومة له (٨٨) ، وكان لدعوته بمجانية التعليم أكبر الاثر على تقريب الفوارق بين الطبقات وزيادة الحراك الاجتماعى ٠

ولقد صاغ طه حسين أفكاره عن التعليم فى كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » ، ويعبر هذا الكتاب عن محاولة لاعادة بناء الشخصية المصرية الجديدة ، وتحديد ملامحها ووضعها فى قضية الانتماء الحضارى ، وهو يرى أن سبب تأخر حياتنا العقلية يرجع الى ازدواجية التعليم، حيث يقف كلاهما من الآخر موقفا معاديا ، فالتعليم العصرى يعرض قضايا تعارض كل المعارضة ما يدرس فى المعاهد الدينية ، وهما يضمان ويشكلان مجموعتين متعارضتين متنافرتين من الطلاب ، فالمعاهد العصرية تعد جيشا من المستنيرين أما المعاهد الاخرى فتجهز جيشا من الجامدين (٨٩) ، هذا

(*) هى جامعات الاسكندرية وعين شمس وأسيوط ٠

(٨٧) عبد العزيز شرف : طه حسين ، زوال المجتمع التقليدى ، المرجع السابق ص ١٧٣ ٠

(٨٨) عبد العزيز شرف : نفس المرجع ، ص ٢٢٥ ٠

(٨٩) عبد العزيز شرف : نفس المرجع ، ص ١٧١ ٠

الرأى الذى أدلى به طه عن تجربته حيث بدأ أزهريا ثم تعلم فى المدارس المدنية ـ يقودنا الى تأكيد أن الشخصية المصرية تضم فى مكوناتها قيما متعارضة متنافرة ·

~~ولقد وجدت أفكار طه حسين من التعليم تقبلا قويا~~ ، وتأييدا شعبيا وتوحدت بها غالبية الشعب ، وتعد نقطة الانطلاق الى التغير الاجتماعى والتحولات الاجتماعية التى طـرأت على البنـاء الاجتماعـى والشخصية المصرية · ولقد بين عاطف غيث فى دراسته عن القرية المتغيرة ، الزيادة المطردة فى أعداد الذين يذهبون الى مختلف مراحل التعليم العصرى من القرية الى المدينة ، وأصبح القروى ينظـر الى التعليم العصرى كوسيلة لحصول ابنه وأسرته على مزايا اجتماعية واقتصادية متعددة تتعلق بالمركز الاجتماعى الذى لم يعد مستندا على العلاقات القرابية · كما أن القروى أصبح يبيع أرضه ليواجه نفقات تعليم ابنه فى المدينـة (٩٠) · هـذه النظرة الى التعليم العصرى والتحول من التعليم الدينى تكشف لنا على مدى التغير الذى طرأ على الشخصية المصرية بفضل فكرة آمن بها ودافع عنها بعض صفوة مصر ·

وفى الطرف الآخر كان لجماعة الاخـوان رأى فى الجامعة المصرية · ويقول حسن البنـا فى موقف عرض الموجة الاباحية فى مصر « وكانت للبحث الجامعى والحياة الجامعية حينذاك فى رؤوس الكثيرين صـورة غريبة ، مضمونها أن الجامعة لن تكون علمانية الا اذا ثارت على الدين وحاربت التقاليد الاجتماعية المستمدة منها ،واندفعت وراء التفكير المادى المنقول عن الغرب » (٩١) ··· وكنت متألما لهذا أشد التألم بسبب تأرجح مصر بين اسلامها الغالى العزيـز والغـزو الغربـى المسلح » (٩٢) وهو

---

(٩٠) محمد عاطف غيث : التغير الاجتماعى فى المجتمع القروى، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر ، ص ٣٨٠ ·

(٩١) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية : المرجع السابق ، ص ٥٣ ·

(٩٢) نفس المرجع ، ص ٥٤ ·

يستنكر انقسام التعليم بين تعليم دينى ينتهى بالازهر وتعليم عصرى ، يتميز كل منهما بخصائصه والتعليم الاول هو أثر الاسلام الباقى فى هذه الامة ، أما التعليم الآخر فهو نتيجة الاقتداء بالغرب ، وهو يطالب بتوحيد التعليم فى مرحلته الاولى على أساس التربية الاسلامية (٩٣) ٠

[illegible] ، ودافعت
[illegible] ين ، ودعت الى
انشاء بنك وطنى بأموال مصرية يعمل لمصر ولمصلحة مصر تستهدف انشاء صناعات وطنية وتفضيل المصنوعات الوطنية على المصنوعات المستوردة (٩٤) ولقد كان النشاط الاقتصادى فى مصر عقب الحرب العالمية الاولى ثمرة الفكر الاقتصادى الحر ، فهم آمنوا بالديمقراطية السياسية ، وطالبوا بسياسة اقتصادية أصيلة تحمى الدولة من المنافسة الاجنبية، وتبغى ابعاد الاجنبى عن اقتصاديات البلاد ! ! ٠ ولقد كان طلعت حرب قمة هذه الصفوة ورائد النهضة الصناعية المصرية والاقتصادية التى تؤمن وتبشر باقتصاد وطنى أصيل ٠ ولقد دعا طلعت حرب فى مقالاته وخطبه وكتابه الى حاجة مصر الى بنك وطنى يعمل لمصلحة مصر ، ولفت نظر المصريين الى قيمة استثمار المال فى غير الثروة العقارية لتحقيق الكفاءة الاقتصادية التى هى أساس نهضة البلاد ، ودعا الى ضرورة تصنيع خامات البلاد لتزيد الثروة القومية ، وطالب بضرورة خفض استهلاك الكماليات والى ايداع الاموال الفائضة عن الحاجة فى بنك وطنى ، و [illegible] » ٠
وقد مهدمحمدعبده لهذهالفكرة السبيل عندماأفتى بأنالادخار ليسبربا،وأن

---

(٩٣) حسن البنا : من رسائل الاخوان المسلمين : المرجع السابق ، ص ٣٢ ٠

(٩٤) محمد طلعت حرب : علاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك المصريين أو بنك الامة ٠ القاهرة ، دار الجريدة ١٩١٣ ــ مجموعة خطب طلعت حرب ــ المرجع السابق ٠

ايداع الاموال فى البنك لا يتعارض مع الشريعة ، اذ أن استغلال الاموال فى البنوك يعود بالنفع على المودعين والعاملين والمستثمرين (٩٥) ٠

ولقد نادى طلعت حرب بضرورة استبدال العمل الآلى بالعمل اليدوى واستخدام الآلات الحديثة فى الانتاج ليزداد الدخـل ، وتحويل بعض المراكز الى مدن صناعية وانشاء بنك برأسمال مصرى ، ولقد سبق طلعت حرب فى دعوته الى الاهتمام بالتصنيع محمد عبده رجل الدين الذى طالب بضرورة الاهتمام بالصناعة لتحسين مستوى المعيشة (٩٦) ٠

يقابل هؤلاء المؤمنين بالاقتصاد الفردى فى العشرينات ، اتجـاه معارض ينادى بالاقتصاد الاشتراكى ، ويدعو الى تغيير البنية الاجتماعية الاقتصادية ، ورفع شعار الاشتراكية نموذجا لحل مشكلات مجتمعنا ٠ هذه الفكرة الاشتراكية آمن بها بعض الاشتراكيين من المثقفين ، وهؤلاء بثـوا بين الناس أفكارا تؤكد أن عوائق المجتمع هى التفاوت الطبقى ، والملكيات الزراعية الشاسعة وجشع الاقطاعيين والرأسماليين ٠

وهذان الرافدان المتناقضـان الساعيان الى التغلب على التخلف الاقتصادى وايقاظ المجتمع من رقدة العدم ، تركا بصماتهما واضحة على الشخصية المصرية ٠ فكان أمام الناس أفكار متصارعة على كيفية اتساع الحاجات الاقتصادية واستثمار الموارد ٠

وكانت هناك فئة تؤمن بالتفكير العلمى ، قرأ أفرادها النظريات العلمية الحديثـة وبهروا بها ، كما اطلعوا على قواعد التفكير العلمى واقتنعوا به ، وبشروا بالعلم مناهجه فى مصر ، ودعوا الى التخلص من رواسب الفكر، وكانت هناك كتابات شبلى شميل عن النشوء الارتقاء التى ظهرت فى عام

---

(٩٥) محمد عمارة : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، جزء أول ، ص ٦٧٦ ٠

(*) البـاء للمتروك ٠

(٩٦) محمد عمارة : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، جزء أول ، ص ٦٧٤ ٠

١٩١٠ وكتابات سلامه موسى ، واسماعيل مظهـر وغيرهـم • وهؤلاء حاولوا شرح النظريات العلمية وتبسيطهـا ، وضرب الامثلة على صحـة النظريات العلمية والمنهج العلمي ، وأكدوا أن التطور مذهب حيـوى ، والارتقاء ضرورة اجتماعية ، وأن الجمود يخالف سنة الوجود ويعارضها ، وان التفكير العلمي يؤكد أنه لا حـدود للمعرفة ، وأن كل شيء خاضع للتفنيد أو الاثبات ، ولكن هؤلاء كانوا يحرثون في أرض وعرة ، فرغم أن محمد عبده رجل الدين ساندهم ودعا الى محاربة الاوهام والخرافات التي تعوق التقدم ، فلا زالت الافكار اللاعلمية مسيطرة على عقول بعض الناس خاصة في الريف •

[illegible] بكافة أنواعها وكان للبعض فضل في تحريرها ، واحتلالها مكانة جديدة ، ورغم أن أول صيحة لتحرير المرأة كانت صيحة رفاعة الطهطاوى في عهد محمد على ، الا أنها لم يكتب لها الاستمرار والقبول ، حتى نادى قاسـم أمين بتحرير المرأة في كتا[illegible] ، انطلاقا من ايمانه بالحرية السياسية والحرية الاجتماعية ، وتأثره بعادات الفرنسيين ، وقد جاهر بأن انحطاط مكانة الامة هو انحطاط للامة كلها (٩٧) ، وأن انحطاط المرأة بعيد كل البعد عن تعاليم الاسلام ، وأشار الى أن الشرع الاسلامى كان سباقا على كل الشرائع في تقدير مساواة المـرأة بالرجل ، فأعلن حريتها ، وأكد مساواتها وكفاءتها الشرعية مع الرجل ، فهو كان يبرر دعوته مستندا على قواعد الشريعة خشية أن يثار حوله اتهام بالانحلال الخلقى • كما كشف عن ضرر الحجاب لانه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها (٩٨) معلنا أن القول بأن « الحجاب موجب للعفة وعدمه مجلب

---

(٨٧) محمد عمارة : الاعمال الكاملة لقاسم أمين ، المرجع السابق ، جزء ٢ ص ١٤ ، ١٥ •

(٩٨) محمد عمارة : المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٩٧ •

للفساد لا يمكن الاستدلال عليه (٩٩) ، لان الفساد لا يرتبط بالحجاب وحده ٠ وأكد أن الحجاب حائل بين المرأة وارتقائها ومانع بين الامة وتقدمها ومن ثم فأول خطوة نحو الانطلاق هو تحرير وتمزيق الحجاب ٠

وطالب قاسم أمين بمساواة بالرجل فى جميع مجالات الحياة بما فى ذلك حقها فى التعليم حتى الجامعة ، ونفى أن التعليم يفسد أخلاق المرأة ، وطالب كل أب أن يعلم ابنته بقدر ما يستطيع، لان التعليممطلوب (١٠٠)٠ ونادى بعمل المرأة ، وان خصص لها العمل فى تدريس الاطفال وصناعة الطب ٠

ولقد بنى قاسم دعوته على مقولة هامة ، اعتبرها قاعدة التقدم والانطلاق ، وهى تحرير النساء من قيود الجهل والحجاب (١٠١) ، واذا كانت دعوة قاسم أمين قد قوبلت بالتهجم والاعتراض فى زمنه ، فان الحال تغير ، وخرجت المرأة من أسرها ورفعت الحجاب ، وتعلمت وعملت وتزايدت أعداد المتعلمات عاما بعد عام ، وتوحد الناس رويدا رويدا مع فكرة تحرير المرأة والمساواة بين الرجل والمرأة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وهذا التغير فى مكانة المرأة يعكس التغير فى البناء الاجتماعى ومكونات الشخصية المصرية٠ولكن وبعد أن رفعت المرأة الحجاب واختفى فى الثلاثينات والاربعينات حتى الستينات انعكس الحال ابتداء من السبعينات ، وبدأت بعض النساء يرتدين الحجاب بعد أن خلعته الجدات ٠

وكان محمد عبده هو من شجع قاسم أمين على كتاباته مبررا له أن تحرير المرأة لا يتعارض مع الاسلام ، وهو يقول « لو أن فى الشريعة

---

(٩٩) محمد عمارة : نفس المرجع : جـ ٢ ، ص ٥٨ ، ٥٩ ٠
(١٠٠) محمد عمارة : نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٧١ ٠
(١٠١) محمد عمارة : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ ٠

الاسلامية نصوصا تقضى بالحجاب ، على ما هو معـروف الان عند بعض المسلمين لوجب اجتناب البحث فيه (١٠٢) ، ولان الاوامر الالهية يجب الاذعان لها ٠٠ ولكننا لا نجد نصا فى الشريعة يوجب الحجاب ٠٠ وانما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الامم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضـارة وأكد أن الشريعة خولت للمرأة ما للرجـال من حقوق وألقت عليها تبعة أعمالها المدنية والجنائية (١٠٣) ، وللمرأة الحق فى ادارة أموالها ٠٠٠ وكان محمد عبده يستشهد بنصوص من القرآن وروايات من الحديث وأقوال أئمة الفقه وكلها واضحة جلية تؤكد عنده أن الله تعالى قد أباح للمرأة كشف وجهها وكفيها ، وذلك للحكم التى لا يصعب اداركها على كل منسى عقـل ٠

[illegible] ب المرأة ليس [illegible] ل ٠

ودافع لطفى السيد وطه حسين وطلعت حرب وخالد محمد خالد عن حق المرأة فى التعليم وناصروها فى الجامعة ، فهى انسانة لها مثل ما للرجل من حقوق وعليها ما عليه من واجبات مدنية وسياسية ٠

[illegible] ، فقد ثار رجال الدين وغيرهم ، بل [illegible] وكتب كتابه عن « تربية المرأة والحجاب » (١٠٤) يدعو فيه الى الحجاب وأن تغيير وضع المرأة المسلمة بدعة ينشرها المستعمر الاجنبى لتنحل المقومات الاجتماعية

---

(١٠٢) محمد عماره : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، الجزء الاول ٠ المرجع السابق ، ص ١٠٧ ٠

(٣٠١) محمد عمارة : الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ ٠

(١٠٤) محمد طلعت حرب : تحرير المرأة والحجاب ٠ القاهرة ١٨٩٩ ٠

للمجتمع ، كما أن اقتباس الحضارة الغربية لا يلائمنا لان البناء الاجتماعى الغربى لا يناسبنا ، وهو يؤكد رأيه مستشهدا بالنصوص القرآنيـة • فالدين يرفض المساواة بين الرجل والمـرأة ، فللرجل سـيادة على المرأة أكدتها الطبيعة نفسها ، فالفروق الجسدية بينهما واضحة ، ووظائف كل منها فى الحياة أكثر وضوحـا • ويؤكد طلعت حرب أن الاسـلام يؤكد مشروعية الحجاب باعتباره أصل من أصول الادب ، وسبب عفتها ، ولكن الحجاب لا يمنع تحصيل العلم •

أما الاتجاه السلفى فيؤكد النهوض بالرجل والمرأة جميعا واعلان المساواة بينهما (١٠٥) ، وتحديد مهمة كل منهما تحديدا دقيقا ــ والتزويد بالعلم والمعرفة لكل مسلم ومسلمة اما عن الزى فيطالبون باحياء ما أطلقوا عليه العادات الاسلامية واماتة العادات الاجنبية فى كل مظاهر الحياة ، مثل التحية ••• والزى ••• وأن يتحرى السنة المطهرة (١٠٦) •

وهكذا نرى أن القيم التى طالبت بفك أسر المرأة والنهوض بها كانت قيما متشابهة ، تجلى أثرها فى ظهور الحجاب بعد اختفائه •

من عرض القيم التى نادت بها الصفوة فى مصر ، نجـد أن حركة التجديد والتغير بعد كبوة عرابى بدأت بشخصية محمد عبـده ولكن ما نادى به محمد عبده لم يجد اجماعا من الصفوة ، بل أوجـد حركات فكرية مضادة ، وتعارض القيـم والنمـاذج والسلوك التى ينادى بهـا الصفـوة ، مما أدى [illegible] تناقضات فكرية ، وتخالف الصورة السـائدة عـن المجتمـع التقليـدى المستقـر ، وشـخصياته الآمنـة ، ولقـد انعكس هـذا التعـارض بين الافكـار التى تنـادى بها الصفوة على الشخصيات المصرية التى توحدت بقيم غير محكمة • وقد عبر يحيى حقى عن هذا التناقض ممثلا فى بطل قنديل أم هاشـم • هـذا البطل الذى يؤمن بالعلم والخرافات، كما وضح فى شخصيات أحفادالسيد عبدالجواد عند نجيبمحفوظ فىقصة السكرية كمابينت دراسةسعيدفرح

---

(١٠٥) حسن البنا : رسائل الداعى والداعية • المرجع السابق ، ص ٤١
(١٠٦) حسن البنا : نفس المرجع ، ص ٩١ •

عن توجيهات قيم الصبية (١٠٧) ، أن القيم التى توحد بها الصغار قيم متشابهات ، نفس النتيجة توصل اليها غنيم وأبو النيل (١٠٨) اللذين بينا أنه ثمة تباين فى القيم عند العمال المصريين وبالتالى تباعد بين قيم العمال المنتجين ، وغير المنتجين وقد أوضح حمدى ياسين (١٠٩) أن المجتمع المصرى تحكمه قيم سالبة وقيم موجبة ، وانهما يتعايشان معا ، كما أن الاحساس بالقيم السالبة والموجبة يتباين بين الطلبة والعمال والفلاحين والعمال والموظفين ولكنهم أبناء مجتمع واحد. عند أفراد شعب واحد.

---

(١٠٧) محمد سعيد فرح : البناء الاجتماعى والشخصية ، راجع الفصل الثامن ، رسالة دكتوراه ، المرجع السابق .

(١٠٨) سيد محمد غنيم : بحث علاقة القيم بالكفاية الانتاجية لدى العمال الصناعيين ، اشراف سيد محمد غنيم ومحمود السيد أبو النيل . جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، ١٩٧٨ .

(١٠٩) حمدى ياسين : دراسة بعض السمات المميزة للشخصية المصرية . جامعة عين شمس . كلية البنات ١٩٧٩ .

الفصل الخامس

تكوين الشخصية القومية

- التفسيرات المختلفة لعملية تكوين الشخصية القومية .
- مدى تقبل التجديد فى أساليب التنشئة الاجتماعية .
- أساليب المعاملة الوالدية فى طور الرضاعة .
- أساليب المعاملة الوالدية فى طور الطفولة الاول .
- أساليب المعاملة الوالدية فى طور الطفولة المتاخر .

أ.د. ... سيد فرج
استاذ ... اع

أ.د. محمد سيد ...
استاذ علم ...

الفصل الخامس

تكوين الشخصية القوميــة

التفسيرات المختلفة لعملية تكوين الشخصية

كيف نفسر الانتشار الواسع لسمات أو خصائص أو دوافع معينة عند أفراد شعب واحد ، وافتقادها عند شعب آخر ؟ وما العوامل التى تساعد على تكوين هذه السمات والخصائص ؟ وهل القوى التى تشكل الشخصية القومية هى المناخ أو البيئة الجغرافية أو التكوين البيولوجى أو التنشئة الاجتماعية للاطفال ؟ وهل التنشئة الاجتماعية للاطفال هى السبب أو النتيجة للشخصية القومية أم هى الاثنان معا فى آن واحد ، وما الذى يكون الشخصية القومية ، هل تنتج بتأثير الميراث الاجتماعى وتأثير عملية التربية أو المشاركة فى ثقافة عامـة أو مواجهـة ضغوط تنظيمية عامة أو بتأثير أسباب أخرى (١) • وهل تطبع هـذه المؤثرات الشخصية بطابع واحـد متماثل ، أم أن هنـاك فروقـا بين الخصائص النفسية للافراد الذين يكونون الدولة الحديثة • تلك الاسئلة من الصعب علينا الاجابة عنها مباشرة ، بل أن اجابة أى عالم من علماء الاجتماع عليها ليس بالامر الهين •

فالشخصية الاجتماعية أو القومية محصلة قوى عديدة ، ابتداء من أساليب التنشئة الاسرية والنظام الاقتصادى السائد والاتجاهات الفكرية الغالبة والعادات السائدة ، وهذه القوى هى التى تشكل العناصر البنائية التى تكون الشخصية الاجتماعية • وهذه العناصر البنائية هى التى تدفع الشخصية الى أداء سلوك معين مقبول من الجماعة أو التفكير بطريقة يرضى

---

(1) Inkles, A. : National Character and Political Systems op. cit. 205 - 206.

عنها المجتمع أو التعبير عن المشاعر الوجدانية بطريقة تلقى قبـولا مـن الاغلبية ولا تتعارض مع قيم البناء الاجتماعى ومعاييره .

وهناك رأى غالب وشائع بين علماء الاجتمـاع والانثروبولوجيين الذين تأثروا بآراء فرويد وتلاميذه من المحدثين يرى أن أنماط الشخصية الاجتماعية أو القومية هى محصلة أساليب التنشئة الاجتماعية الاسرية وحدها . والاسرة هى التى تهيـأ لاولادها التعود مع الحياة الديمقراطية أو اللاديمقراطية والاسرة هى التى تنمى عند أبنائها اتجاهات الخضوع والخنوع الذى يؤدى فى النهاية الى حكومة وشعب يتقبل الخضوع للحاكم الفرد المستبد والمسيطر على أفراد مجتمعه ، والاسرة هى التى تكون عند أولادها سمة الاسراف أو البخل ، وتنمى عند أطفالها المشاعر العدوانية أو التعاونية . لذا يمكن لنا أن ندرس أساليب تنشئة الاطفال كوسيلة لفهم قيم المجتمع ولدراسة تكوين الشخصية القومية (٢) .

وهناك محاولتان مشهورتـان (٣) تهدفـان الى تحقيق الصلة بين أساليب تنشئة الاطفال وشخصية البالغ ونظام الثقافة السائدة : وكانت المحاولة الاولى دراسـة الشخصية القسرية المزعومـة التى يشتهر بهـا اليابانيون بها . والتى تعبر عن الشخصية القوميـة والنظـم الثقافية السائدة فى اليابان . ولقد صاغ جورر أثناء الحرب فرضـا مؤداه أن أسلوب تعويد الطفل على الاخراج يفسر التناقض بين الدماثة الاخلاقية الزائدة عند اليابانيين والتى تجذب انتباه كل زائر ومظاهـر الوحشية والسادية المفرطة عندهم والتى تبدو أكثر وضوحا فى سلوك اليابانيين أثناء الحرب .

ووفقا لرأى جورر فهذه الوحشية ترتبط بالتدريب المبكر القاسى الصارم على الاخراج والتى تغرس ثورة مكبوتـه مكتومـه عند الاطفال

(2) Mead. M. : National Character. Op. Cit.

(3) Harris Marvin : The Rise of Anthropoligical theory. second printing N.Y. Thomas. Y. Crowell Company. 1969.

لقسرهم على التدريب المبكر على النظافة المفرطة ، وقسرهم على ضبط العضلات العاصرة للاست أيضا، قبل أن يتم نضج قدراتهم العضلية والفكرية ٠ ولقد وصف لابار اليابانيين بأنهم أكثر الشعوب قسرا فى العالم ٠ ولقد بينت روث بندكيت فى كتابها زهرة الاقحوان والسيف دليلا مماثلا على الصرامة والتزمت فى التدريب على الاخراج عند اليابانيين ولم تفسر ذلك تفسيرا نفسيا ، بل على العكس رأت أن مظهر التدريب المبكر على الاخراج هو أحد مظاهر اهتمامهم بالنظام والنظافة ٠

أما المحاولة الثانية فكانت دراسة الشخصية القومية الروسية التى قام بها جورر وريكمان ٠ وقد حاول الباحثان فهم الشخصية القومية الروسية من خلال القماط المشدود شدا محكما حول وسط الطفل والتى يقال أن الروس يمارسونها على أولادهم ٠ ويرى جورر وزميله أن القماط يقترن بالهوس والكآبة اللذين ينضحان على الشخصية الروسية نتيجة لشد القماط شدا محكما حول وسط الطفل ٠ فالطفل الروسى يعانى من تقييد شديد لحركاته أثناء لف القماط ، ثم حرية مفرطة بعد فكه ٠ فالقماط الملفوف بشدة يولد عنده الغضب المكبوت الذى ينفجر مباشرة بعد فك القماط من حول وسطه ونيله حريته المسلوبة فى الحركة فجأة ٠ وهذا الغضب موجه الى موضوع عام مشوش ٠ فالطفل الروسى قد عومل أثناء لف القماط وفكه بطريقة موضوعية مجردة من مشاعر العطف والضعف الابويين ، ومن ثم فلن يجد الطفل ما يبرر القاء اللوم على أبويه أى معذبيه ٠ وهذا الغضب يولد عنده الشعور بجريمة الغير ولكن هذا الغير مجهول عنده ٠

ورغم أن الدراسات التى أجريت على الشخصية اليابانية والشخصية الروسية هى مجرد دراسات عن بعد ، وتفتقد الدراسات الحقلية ٠ الا أن هاتين الدراستين تعبران عن أهمية الاسرة فى عملية تنشئة الصغار فى مجتمعين كبيرين ٠

وثمة دراسة عرض لها كلاكهون عن كيفية تكوين الشخصية فى مجتمع نوفاهو (٩) البدائى . وتعتمد هذه الدراسة على نتائج أبحاث قام بها فريق بحث مكون من مجموعة من علماء الطب النفسى وعلماء علم النفس والانثربولوجيا عن ظاهرة نمو الطفل فى نوفاهو . وقد درس الباحثون عينة افترض أنها تمثل هذا المجتمع فى كل أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية وترتيب المولود فى الاسرة وأعمار الوالدين وقد استخدمت فى هذه الدراسة الطريقة السوسيومترية والملاحظة والمقابلة واختبارات الذكاء واختبار روشاخ .

ومن هذه الدراسة استقرأ الباحثون أن مظاهر الشخصية المثالية بين الاطفال فى نوفاهو تختلف عن مظاهر الشخصية المثالية عند أطفال هوبى وباباجو . ويرجع ذلك الى العوامل الرئيسية الآتية :

١ – أثر الثقافة فى التنشئة الاجتماعية وما يترتب عليهـا من تباين أنماط التربية من ثقافه لاخرى .

٢ – تباين المواقف ، أى أن المشـكلات الموضوعيـة التى واجهت هذا الشعب أثناء الدراسة كانت مختلفة من مجتمع لمجتمع .

٣ – التكوين الوراثى .

وهنا يثـار سؤال هـام : كيف تظهر الاختلافات بين شخصيات الافراد الذين نشأوا فى بيئة واحدة ؟ للاجابة عن هذا السؤال نقول ان هناك مجموعة من العوامل بعضها ثابت وبعضها متغير . فالثوابت ترجع الى عوامل معينة فى البيئة بمعناها الواسع والشامل ، ذلك لان الاطفال يتعرضون تقريبا لنفس الضغوط من حيث المناخ والتضاريس والمعيشة

(4) Kluckhoon Clyde : Culture and Behavior N. Y. The Free Press. pp. 177 - 181.

فى منطقة أيكولوجية واحدة ، ويشاركون ويعايشون الاحداث التاريخية لجماعتهم • وينالون نفس القدر من الخدمات الصحية الى جانب ما يستخدمونه من أدوات تكنولوجية متقاربة فى مستوى تصنيعها • ولنا أن نعتبر أن الجزء الاكبر من الثقافة ثابت ، فثمة أنماط متفق عليها عن كيفية التعامل مع البالغين وسلوك الذكور والاناث وأداء أدوارهم فى المجتمع فى مختلف أعمارهم •

أما المتغيرات فتبين أن هناك فروقا ملحوظة بين العائلات والجماعات المختلفة ، بل أن الفروق توجد بين أفراد الاسرة الواحدة ، فالذى يذهب الى المدرسة يختلف سلوكه الظاهرى عمن لم يذهب اليها لتأثر الاول بالمنهج الدراسى والنشاط المدرسى حيث أن الذى يذهب الى المدرسة يختلف سلوكه الظاهرى عمن لم يذهب اليها ، ومن العوامل المتغيرة الاخرى غير التعليم المكانة الاجتماعية للاسرة والتى ترتبط الى حد ما بمستواها الاقتصادى، الذى يؤثر على نوع الغذاء ، ومن ثم يؤثر على مستوى الطاقة والصحة العامة للشخص •

وثمة متغيرات أخرى لنا أن نصفها بالحوادث التاريخية التى تعايشها الشخصية يمكن أن تؤثر على نمو الشخصية تأثيرا واضحا وهى :

١ ـ القدرة العقلية للوالدين • فكما يؤثر الاب الذكى فى ابنه يؤثر الاب الغبى على أولاده لتعثره فى فهم النمط الثقافى السائد •

٢ ـ موت الاخوة ، سوا أكانوا كبارا أم صغارا •

٣ ـ فقد الام •

٤ ـ التاريخ الصحى للشخص وما تعرض له من أمراض •

٥ ـ ترتيب الطفل بين اخوته ، والفترة الزمانية بين طفل وآخر •

٦ ـ تفاعل الطفل مع الآخرين •

٧ – فقد الاب اما بالطلاق أو الوفاة ٠

٨ – عمر الوالدين عند ميلاد الطفل ٠

وهذه العوامل العرضية لا يمكن التنبؤ بها اطلاقا ، فهى لا تنشأ من الوضع الاجتماعى للاسرة ٠ ولا تسببها الثقافة المحيطة لها ، ولا يحدثها الموقف فهذه المتغيرات تقع ضمن فئة الظروف الاجتماعية والمواقف التى يصعب التحكم فيها فهى ترجع الى الثقافة بالمعنى العام ، ولذا يبدو للثقافة أهمية عظمى فى تحديد المتغيرات الاجتماعية التى تحدد بالتالى سمات شخصية الافراد ٠

ويرى كلاكهون أن عملية تكوين الشخصية القومية فى المجتمعات المستقرة عملية سهلة ما دامت الثوابت – وهى نسبية – التى تؤثر فيها معلومة ومعروفة ٠ أما المتغيرات – مثل التعليم فهى تختلف من وقت لوقت ٠ ويخرج كلاكهون بنتيجة مؤداها ان اعطاء أهمية للحوادث التاريخية الفردية فى تشكيل الشخصية القومية أمر يحتاج الى برهان موثوق فيه ٠

أما فى المجتمعات المتغيرة ، فالامر مختلف فهناك قوى تتداخل مع الاسرة وتؤثر فى انفرادها بعملية تكوين الشخصية القومية ٠ فبجانب الاسرة ، هناك المدرسة ووسائل الاعلام والنظام السياسى وكلها عوامل مؤثرة فى تكوين الشخصية ٠

ولذا يمكن لنا أن نقول أن الشخصية القومية تتشكل وتتكون بفعل النظم الاجتماعية السائدة ، فهى ليست من صنع الظروف الطبيعية أو البيولوجية لان القومية ليست من صنع نفسها وليست تلقائية ٠ كما أن العناصر الاجتماعية ليست عناصر وراثية فطرية ٠ ومن ثم فعلينا أن نطرح جانبا كل فكرة تدعى أن القومية والشخصية تعبران عن وحدات

فيزيقية فهمــا وحدتان اجتماعيتان (٥) ، يتكونان بفعل عوامل مادية وعوامل روحية • وعلينا أن نعترف بأن الشخصية القومية التى تتشكل وتتكون نتيجة الخضوع للنظام الاجتماعى والقيــم الاخلاقية والنظــام الاقتصادى الســائد تكون فى النهاية مجموعة مــن النزعات المكتسبة وأنماط السلوك التى تستند على أسس قومية ، وعندما تتكون الشخصية القومية تتحقق وحدة السلوك بين أفراد المجتمع ، أما اذا تنافر سلوك المواطنين فهذا يعنى أن الشخصية القومية لــم تتبلــور بعد • وتعبــر الشخصية القومية دائما عن نفسها من خلال السلوك ، ومن ثم فان تشكيل الشخصية القومية دائما ليس مسألة اختيار واع وارادة حرة مثــل شخصية الفرد • ولكن المجتمع يكون شخصياته من خلال تفاعل عقول الاعضاء والتى تعلن عن نفسها من خلال وحدة التقاليد ووحدة الفكــر واضطراد السلوك وتكامل القيم ، لكن هذه الشخصية ما أن تتشكل وتستمر لفتــرة زمانية قد تطول حتى تبدأ فى التغير عندما تعجز عناصر اجتماعية معينة عن اشباع حاجات الناس ، ويعــاد صياغتها من جديد بتأثير عوامل التغير ، ومن ثم فهى ليست خالده وليست سرمدية ولكنها دائمة التغير بتأثير أساليب اجتماعية محددة •

بيد أن الرأى الذى يرجع عمليــة تكوين الشخصية القوميــة الى أســاليب التنشئة الاجتماعية الاسرية وحدهــا ، قــد وقف منــه بعض الاجتماعيين موقف الرفض منذ دوركيم • ويرى هربرت هيمان (٦) أن هناك عددا من العوامل غير العوامل الاسرية تساعد على تشكيل الشخصية القومية ، ومن أهمها التجارب التى يمر بها الشخص فى مرحلة النضج • ولقد استند هيمان فى استخلاص تلك النتيجة على عدد من الدراسات

---

(5) Barker, Earmet : National charaster. op. cit.

(6) Inkles : National character and political systems op. cit. p. 234.

الحقلية ، التى تبين أن هناك عوامل أخرى تؤثر فى الشخصية القومية عند الشخص البالغ أهمها تأثير التوجيه السياسى للدولة ، بتأثير وسائل الاعلام السائدة سواء أكانت حكومية أم تجارية ... وعلينا ألا نغفل أيضا أن تاريخ الامة يلعب دورا هاما فى عملية تشكيل البناء الاساسى للنظم السياسية التى تؤثر بدورها على الشخصية القومية ، ولقد أكد أريك فروم هذا الاتجاه ، اذ ربط عملية تكوين الشخصية القومية بعدد من العوامل أهمها تأثير الثقافة الكلية وأساليب التربية والمدرسة والآداب والفنون والدين والعادات التقاليد (٧) . وبعبارة أخرى ما يسميه ماركس البناء الفوقى الايديولوجى . وهذه المكونات الثقافية أى البناء الفوقى هى التى تؤكد استقرار سلوك الشخصية القومية والتى يرى ماركس أنهـا انعكاس للبناء الاقتصادى والاجتماعى الذى يطلق عليه ماركس البناء التحتـى . فالشـخصية القومـيـة لا يشـكلها البنـاء التحتى وحـده ولا البنـــاء الفوقـى بمفـرده فهنـاك ارتبـــاط وتفـاعل بـــين البناء التحتى والبناء الفوقى وهذا التفاعل ينعكس على طريقة الحيـاة السائدة ، ويدعم بدوره من ظهور نمط للشخصية الاجتماعية ذات طابع معين ، يعكس تأثره بالتفاعل بين البنـاء الاقتصادى والبناء الاجتماعى . ونخلص من ذلك أن عملية تكوين عناصر الشخصية الاجتماعية لا يحددها العناصر المادية وحدها ، ولا تعكس البناء الثقافى بمفرده ، ولكنها مرآة للتفاعل بين القيم الثقافية والنظام الاقتصادى .

ولكن كيف يتمثل الشخص ثقافة المجتمع ، ويرتبط بها ، وكيف يكتسب طابع الشخصية الاجتماعية ؟

تعد الاسرة أول الانساق الاجتماعية التى ينشأ فيها الطفل ، وبذا فهى أول نسق يؤثر على الطفل ويدمج فيه العناصر الاجتماعية السائدة حوله ، ولكن هذه الاسرة لا تعيش بمعزل عما حولها ، فهى تتأثر بدورها بعوامل اجتماعية عديدة ابتـداء من الاقتصاد حتـى السياسة والثقافة

(7) Fromm : Social character in a Mexican village. op cit. p. 18.

والثقافة الكلية ، ومن ثم لنا أن نساير فرويـد الى حد ما فى أهمية الطفولة فى تكوين الشخصية اذ أننا نرى أن الطفل عندما يبدأ فى النمو يكتسب باستمرار عناصر اجتماعية جديدة تبعـا لاتسـاع علاقاته فى البناء الاجتماعى ، ولكن بعض هذه العناصر يظل قويا والبعض يضعف والبعض يبقى مسيطرا وفعالا والبعض يكمن ، كما علينـا أن نعى أن أساليب التنشئة تتغير من جيل الى جيل بأسرع مما تتغير الشخصية القومية ، ولذا فان ادعاء جورر أن الابناء يرثون ثقافة مماثلة لثقافة والديهم ويعملون على تخليدها ، لا يصدق على الا على المجتمعات المستقرة التى لم تصب بهزات ثقافية وحضرية ، فالابنـاء فى هـذه المجتمعات تمارس عليهم أساليب تنشئة اجتماعية لا تختلف كثيرا ، ان لم تطابق أساليب التنشئة الاجتماعية التى نشأ عليها الكبار ، وهؤلاء الكبار فى المجتمعات المستقرة يرسمون خطوط مستقبل أولادهم ، ويخلد هؤلاء تجارب والديهم وثقافتهم • أما فى المجتمعات المتغيرة فرغـم مساهمة الآباء فى رسم مستقبل أولادهم حسب توقعاتهم المستقبلية فان الصغار لا يخلدون ثقافة الآباء ، اذ أن التغـير الاجتماعـى السريع يؤثر على أساليب تربية الاولاد وينعكس على شخصيات أبناء الجيل القادم •

ونحن نؤمن بأن أساليب التنشئة الاسرية أى أساليب التوجيه فى الاسرة لا تكون وحدها الشخصية القومية،ولا تغيرها من جيل لجيل • فالشخصية القومية ليست محصلة جهود الوالدين وحدهما • اذ تؤثر مناهج التعليم والتجارب المهنية ووسائل الاعلام على العناصر الاجتماعية التى تتوحد بها الشخصية ، فأساليب التنشئة الاسرية وما يتوحد به الطفل والصبى من قيم وعناصر اجتماعية وما يطبع عليه من سمات فى محيط الاسرة لا تندثر ولا تتلاشى اذا ما تعرض الصغير لتأثيرات المنهج المدرسى أو تفاعل مع زملاء المدرسة أو أعضاء النسق المهنى • فالشخصية القومية هى محصلة المـاضى والحاضر • فأساليب التنشئة هى المدخـل لفهم تكوين شخصية البالغ (٨) لاننـا لا نستطيع أن نتجـاهل أثـر

(8) Barnouw Victor : Culture and personality op. cit. p. 164.

الوالدين فى تكوين بناء الشخصية (٩) ومـا يدمج فيهـا من عناصر اجتماعيـة ٠

ولكن كيف تتكـون الشخصية المصرية ؟ وكيف ينشىء المجتمع أطفاله ليتكيفوا مع القيم السائدة والراسخة والقيم المتغيرة ؟ ومتى تحدث التغيرات فى أبنيـة الشخصية ؟ هل بعد الالتحاق بالمدرسة أم فى بداية طور المراهقة ؟ وما العوامل التى تؤثر فى تكوين شخصيتنا ، وهل ثمة فروق بين العناصر المكونة للشخصية فى الريف والحضر ؟ ٠

اننـا نؤمن برأى فروم وماكوبى بأن ظروف الحياة والمطالب التى يتوافق معها الطفـل تتباين وفقـا للاعمـار المختلفة ٠ ويرجع ذلك الى الارتباط الوثيق بين نمو الطفل فى حد ذاته وتغير وعيه وتطور قدراته العقلية وتوقعاته الثقافية لمـا ينبغى له أن يقتدى به فى سـلوكه ، كما تتغير المطالب التى تدعو الطفل الى التكيف والتوافق تبعا لمكونات بناء شخصية الوالدين وطبقتهما الاجتماعية والاقتصادية (١٠) ، ولذا فمعظم الآباء فى الريف المصرى يسلكون فى تربية أولادهم فى أغلب المواقف نفس الاساليب التربوية التى ربوا عليها ، أى أنهم ينتهجون فى معاملاتهم لاولادهم ما يرون أنه نفس المنهج الذى عوملوا بـه ، ولكنهـم يفسرون الانماط الثقافية فـى اطـار توجيهات شـخصياتهم ، كذلك فالمستوى الاقتصادى والاجتماعى للاسرة ومستوى التقدم الحضارى عاملان هامان فى تكوين العناصر الاجتماعية والثقافية فـى شـخصية الصغير ٠ وفى التأثير على ظروف الحياة التى تحيط بالطفل ، لان المناخ النفسى الذى يحيط بالاسرة متأثر بمدى الوفرة الاقتصادية التى تنعم بها الاسرة ، ومدى الانسجام أو التنافر بين الوالدين ، وينعكس ذلك على علاقات الصغير

(9) Barnouw Victor : Ibid. p. 116.

(10) Fromm Erich : Social character in a Maxican Village. op. cit.

بوالديه ومدى شعوره بالطمأنينةأو القلق ، ومن ثم يؤثر ذلك كله على ما يتوحد به من عناصر اجتماعية وثقافية ٠

مدى تقبل التجديد فى أساليب التنشئة الاجتماعية :

وتهدف أساليب التنشئة التى تمارس فى مجتمعنا الى اعداد الطفل والصبى لاداء أدوارهما المقبلة ٠ وتبين المادة الاثنوجرافية التى جمعها عبده محجوب عن المرأة والتنشئة فى الريف المصرى أن الام الريفية تقف من مسألة الطبع والتطبع فى تربية أولادها موقفا يميل الى تأكيد أثر الطبع فى تكوين شخصية الابن أكثر من تأكيدها أهمية التطبع فى اكسابه الخصائص التى يتميز بها ٠ وهذه الام الريفية تؤكد وتلح دائما على اكتساب الطفل منذ الميلاد لقيم وخصائص أسرته ، وخصائص المجتمع الريفى ، وتحاول أن تؤكد وتدمج فى شخصيات أولادها القيم الاخلاقية وسمات وطباع مجتمع الريف ابتداء من الشهامة حتى الارتباط بالارض والتماسك العائلى القروى حتى ولو انتقل الابناء الى المدينة (١١) ٠

وهذا الاهتمام بدمج الميراث الاجتماعى فى شخصية الابناء ٠ واستمرار الطباع القروية للابناء نقية بلا شوائب عند جيل الابناء تتعارض مع الدراسات التى أجراها سعيد فرح عن أساليب التنشئة فى الاسكندرية ثم المنيا (١٢) ، فقد بينت دراسات احتياجات الطفولة فى المنيا أن التجديد فى أساليب التنشئة فى المدينة أسرع منه فى

---

(١١) محمد عبده محجوب : المرأة وأساليب التنشئة فى المجتمع الريفى ٠ جامعة الاسكندرية كلية الآداب ٠ أبحاث بناء الانسان المصرى ١٩٧٩ ٠

(١٢) محمد سعيد فرح : دراسات فى المجتمع المصرى ، الدراسة الثالثة ، احتياجات الطفولة ، الاسكندرية ٠ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٦ ٠ البناء الاجتماعى والشخصية رسالة دكتوراه ، جامعة الاسكندرية ٠ كلية الآداب ١٩٧١ ٠

الريف ، ولكن القرويين ليسوا جامدين ، فهم يجددون فى أساليب توجيه الابنـاء ، ولكن معدل التجديد فى أساليب التنشئة عندهم أبطأ وأقل سرعة من معدل التجديد فى أساليب التنشئة الاسرية بالحضر ، ولقد بينت الدراسات الميدانية وأساليب تربية الصغار فى المنيـا أن الآباء والامهات فى المدينة أكثر قبولا من نظائرهم فى الريف للقيم التى تؤكد تعـود الطفل على المسئولية • فأسر المدينة أكثر تقبلا للقيم التى تؤكد حق التعبير والاختيار • وأكثر تقبلا للقيم التى تدعو الى تنظيم الوقت وبالتالى فأبناء أسر المدينة أكثر توحـدا مع القيـم التى تؤكد النشاط العملى من أطفـال الريف الاكثر توحدا مع النشاط الآنى • كما بينت دراسة سعيد فرح عن أطفال المنيـا ، أن ثمة فروقا حضرية ريفية فيما يتعلق بممارسة السلطة الوالدية • اذ كان الوالدان فى المدينة أشد ايمانا بتعويد أولادهم على المشاركة فى القرارات الاسرية التى تخص أمورهم وأكثر سماعا لآرائهم من الوالدين فـى ريف المنيـا ، ولقد كانت أهـم نتائج دراسة أساليب التنشئة فى المنيـا ريفها وحضرها ، هى عدم ايمان الوالدين بصلاحية أساليب التنشئة المتوارثة فى توجيه الابناء نحـو المستقبل ، فلم يعد الآباء والامهات يربون أولادهم وفقـا للقيـم التى نشئوا عليها ، اذ ظهر أن كثرة من الآباء والامهات لا تقتـدى بأساليب الاهـل المتوارثة فى التمييز بين البنت والولد فى مجالات التعليم والعمل، ولا ترضى على طريقة الاهل فى تعويد الابن على التبعية • كما ترفض أن يرث الابن مهنـة أبيـه • ولقد أدت معايشة الآباء فى ريف وحضر المنيـا لتجربة التغير ـ مهما كان ايقاعها الى رفض الاساليب المتوارثة فى توجيه الأبنـاء ، وسعوا الى أساليب جديدة لتنشئة الصغار ، وبحثوا عن بدائل سلوكية جديدة بدلا من أنماط السلوك المرفوضة والمتوارثة عن الآباء والاجداد والتى لا تتكيف مع التغيرات الاقتصادية والاجتماعية •

وتتقارب هذه البيـانات التى جمعت مـن حضر وريف المنيـا مع البيانات التى حصل عليها من مدينة الاسكندرية ، رغم سرعة التغير فى

مدينة الاسكندرية عن المنيا ولقد أظهرت البيانات المتاحة تباين أساليب التنشئة التى توجه الابناء نحو المستقبل لدى أسر المجتمع السكندرى ٠ وأبانت الاجابات عدم اجماع الامهات سواء العامـلات أو المتفرغات على أساليب موحدة لتوجيه سلوك الابناء ٠ ولقد أوضحت اجابات الامهات أن كثرة منهن قد استبدلن بأسـاليب التنشئة الاجتماعيـة التقليدية التى نشأن عليها أساليب جديدة تتوافق مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية أى أن التطبع غلب الطبع عند الامهـات فى المدينـة سـواء فى مدينـة الاسكندرية أم فى مدينة المنيـا ٠ بيـد أن التغير فى أساليب التنشئة الاجتماعية لا يعنى أبدا أن الامهات رفضن أساليب التنشئة التى نشأن عليها كل الرفض ، ونبذتها كل النبذ ، فهن لم يقبلن الاساليب الجديدة قبولا مطلقا ، فالبناء الجديد يحمل بين جوانبه أساليب تنشئة اجتماعية جديدة وأخرى تقليدية ٠

هذه الاوضاع الاجتماعية التى تحيط بعملية التنشئة الاجتماعية والتـى تؤثـر بدورهـا على عمليـة تكوين الشـخصية ، أدت بأحمـد أبو زيد (١٣) الى القول بأن الطفـل المصرى يواجـه أوضاعـا اجتماعية واقتصادية متباينة ٠٠٠ بل كثيرا ما يجد الوالدان أنهمـا فـى مواقف تكشف عن عجزهما فى التعرف على أفضـل الاساليب والطرق لتوجيـه الصغير أفضل توجيه والخروج به من عثرة عـدم التوفيق بين العناصر الثقافية الجديدة والعناصر الثقافية التقليدية ٠وهذه الاساليب المتشابهات غير المحكمة فى توجيه الصغار تبدو أكثر وضوحا فى المدينة من القرية ، وهذا الرأى يتفق مع أنعام عبد الجواد (١٤) عندما بينت أن الامهات فى

---

(١٣) أحمد أبو زيد : التنشئة الاجتماعية واحتياجات الطفولة ٠ دراسة اثنوجرافية قام بها قسم الانثروبولوجيا بجامعة الاسكندرية ضمن أبحاث بناء الانسان المصرى ١٩٧٩ ٠

(١٤) أنعام عبد الجواد : تنشئة الاطفال لدى المرأة العاملة وغير العاملة رسالة ماجستير ، القاهرة ٠ جامعة عين شمس ٠ كلية الآداب ٠ ١٧٠ ٠

مدينة القاهرة يجمعن بين أساليب التنشئة التقليدية والجديدة ، وأن أساليب التنشئة الاجتماعية فى القاهرة تقع بين طرفى متصل الجمود والتحديث ، بينهما أساليب للتنشئة الاجتماعية تتباين قربا أو بعدا من التحديث أو الجمود . وقد أوضحت أنعام أن الام العاملة ليست مجددة كل التجديد ، وأن الام المتفرغة ليست جامدة كل الجمود أو أسيرة أساليب التنشئة المتوارثة ولكن الام العاملة فى القاهرة مثل مثيلتها فى الاسكندرية أكثر انفتاحا على الاساليب الجديدة فى توجيه الصغار من الام المتفرغة .

وتبين لنا نتائج الدراسات الميدانية فى المجتمع المصرى أن العناصر الاجتماعية التى تدمج فى شخصيات الصغار ليست متماثلة وليست متجانسة وليست متكاملة وأن شخصيات الصغار تتوحد فى وقت واحد مع عناصر تقليدية متوارثة وعناصر اجتماعية جديدة ، فمكونات الشخصية الاجتماعية عندنا ليست متجانسة كل التجانس وليست محكمات كل الاحكام ، بل عناصر اجتماعية متشابهات .

ويتعين علينا أن نظل اطلالة سريعة على أساليب المعاملة الوالدية للصغار ابتداء من طور الرضاعة وحتى طور الطفولة المتأخرة ، لما لفترة الطفولة من أهمية فى تكوين عناصر اجتماعية أساسية فى بناء الشخصية الاجتماعية . فكل أساليب التوجيه من خلال المنهج المدرسى أو النشاط فى النادى أو نسق العمل أو وسائل الاتصال تحاول أن تدعم قيم الاسرة أو تنسخها . بيد أن عملية النسخ أو احلال قيم جديدة محل القيم الوالدية ليست عملية هينة . ولن نذهب بعيدا فى أعماق التاريخ ، بل نتراجع الى سنوات قليلة حتى الستينات ، ففى تلك السنوات خططت المناهج الدراسية فى كل مراحل التعليم ، ووجهت برامج وسائل الاعلام لتدعيم القيم الاشتراكية فى شخصيات التلاميذ والطلاب ، بيد أن جهد المخططين ذهب هباء ولم يأت بنتائجه بسبب ما كان يوجه من نقد الى

عملية التطبيق الاشتراكى فى بيوتنا أحيانا وعدم حماس المدرس بسبب نشأته الاسرية أحيانا أخرى ٠

أساليب المعاملة الوالدية فى فتـرة الرضاعة :

فترة الرضاعة هى الفتـرة التى تلبى فيها رغبات ومطالب الرضيع فى الحال وبدفء ويدلل الرضيع من كل أعضاء الاسرة ، ويصير محور اهتمامهم ورعايتهم ٠ وتتميز هذه الفترة بتكوين رابطـة قوية بين الام ورضيعها فى كل الاسر ٠ فالامهات يحببن أولادهن كل الحب ٠ ويدللن صغارهن كثيرا ٠ وتعطف الامهات على الابناء الصغار وتبالغن فى اضفاء المزيد من مظاهر الحب والحنان الذى يصاحب دائما ترديد الكثير من الاغانى ٠ والطفل حتى العام الثانى من عمره أكثر وداعه وأكثر حاجة الى الام ٠ وتشعر الامهات بالتناقض الوجدانى وتذبذب سلوكهن بين الارتياح والقلق عندما يؤدى صغارهن سلوكا مستقلا ، مخالفا لارادتهن ٠ وتؤثر شخصية الام تأثيرا قويا وحاسما على النمو النفسى والاجتماعى للصغير ، كما يؤثر الاعتماد على الام فى تكوين اتجاهات الصغير وقيمه ٠

ولقد أوضحت المادة الاثنوجرافية التى جمعها محجوب (١٥) أن الام فى ريف مصر تقوم بالدور الاكبر فى عمليات التنشئة الاجتماعية ، ويشمل هذا الدور العناية بالطفل منذ ولادته وتدريبه على عادات الرضاعة والنظافة الشخصية والنوم واللعب والتعامل مع الآخرين وأداء السلوك المقبول ، وحتى المجالات الاجتماعية التى يتعين أن يشارك فيهـا ودمج القيم الاجتماعية السائدة فى شخصيته ٠ فالام المصرية أكثر ارتباطـا بصغيرها من أبيـه وأكثر تأثيرا على سلوكه وتوجيها له من غيرها ، ويرى أبو زيد أن الام المصرية لا يقتصر دورهـا وتأثيرهـا على مرحلة الطفولة

(١٥) محمد عبده محجوب : المرأة وأساليب التنشئة فى المجتمع الريفى ، المرجع السابق ٠

الاولى ، بل تتجاوز تلك الفترة الى ما بعدها فهى مصدر الحنان والحب الذى يفتقده الابناء عند الآباء (١٦) ٠

وتعتنى الام المصرية برضيعها منذ اليوم الاول ٠ فهى ترضعه منذ ولادته لفترة تقصر أو تطول حتى تقترب من العامين أحيانا ٠ ولقد بين محمود عبد القادر (١٧) أن الام المصرية تعتبر الرضاعة من الثدى من المهام الاساسية التى يتعين عليها أن تقوم بها ٠ وهناك عدد من الامهات يرضعن أولادهن رضاعة طبيعية ٠ وهنـاك فئـة من الامهـات يرضعن أولادهن رضاعات صناعية بجانب الرضاعة الطبيعية ٠ وهؤلاء بـدأ عددهن فى التكاثر ٠ ثم يأتى فى المرتبة الاخيرة فئـة من الامهات يقتصرن فى رضاعة أولادهن على الالبان الصناعية والاطعمة المهروسة ٠ ولم تعد عملية الرضاعة عملية ارتجالية غير منظمة تقدم الام ثديها لوليدها متى صاح ، بل أن كثرة من الامهات وخاصة المتعلمات والعـاملات ينظمن مواقيت رضاعة الصغير ، ولا يتركن ذلك لرغبة الطفل ، والرضاعة الطبيعية هى الاسلوب الامثـل عند القرويات والاسلوب الغالب والاكثر انتشارا عند الامهات فى الحضر ، اذ هنـاك فئـة قليلة من الامهـات ترضع صغارها ألبـانا صناعية ٠

ولقد أوضح حامد عمار أن الابن الذكر فى قرية سلوا يتميز على الابنـة الانثى فى كل شىء عدا عملية الرضاعة ٠ فالطفل الذكر يرضع فترة أقل من الابنة ٠ ويرجع ذلك الى الاعتقاد السائد بأن الابنة ينبغى أن ترضع من ثدى الام فتـرة أطول من الابن والرغبة فى تعجيل نضوج

---

(١٦) أحمد أبو زيد : التنشئة الاجتماعية واحتياجات الطفولة ، المرجع السـابق ٠

(١٧) محمود عبد القادر : الاساليب الشائعة للتنشئة الاجتماعية فى الريف المصرى ، دراسة مقارنة بين الريف والحضر ٠ مجلة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، المجلد ١٣ ــ العدد ١٢ ٠

الولد وبلوغه طور الرجولة وخضوعه للنظام الاجتماعى فى طور مبكر ٠ وقد كشفت دراسة عمار أن ثمة اتجاهات مختلفة بالنسبة لعملية الرضاعة عند الام والاب ٠ فالام ترغب فى اطالة فترة الرضاعة تعبيرا عن الحب والمودة بينها وبين صغيرها ٠ أما الاب فيرى أن اطالة فترة الرضاعة تؤدى الى انغلاق عقل الابن ٠ وهذه النتيجة التى توصل اليها عمار من سلوا تختلف مع المادة الاثنوجرافية التى جمعها محجوب من مجتمع مغاير ٠ فالبنت فى العادة تفطم فى عمر أصغر من الولد ويتراوح السن التى تفطم فيها البنت اذا لم تكن هناك ظروف خاصة ١٨ شهرا أو سنتين ٠ بينما نجد الولد قد يستمر فى الرضاعة حتى يكمل الثلاث سنوات الاولى من عمره ٠ ولقد لاحظ عمار أن عملية الرضاعة رغم أنها تشبع حاجة أساسية عند الطفل ، فهى لا تخضع لاى ترتيب أو تنظيم مسبق، فالام فى سلوا مثلها مثل كل القرويات والاميات لا تتقيد بمواعيد فى ارضاع طفلها ٠ بل تقدم له ثديها متى طلبه ٠ ومهما كان انشغالها بأمورها أو بأمور أسرتها ، كما تختلف طريقة الرضاعة من طفل لطفل ، بل وأم لام ، ومن يوم ليوم ٠ هذه الطريقة فى الرضاعة فى جنوب مصر تتفق مع طريقة الرضاعة فى ثلاث مجتمعات ريفية فى شمال الدلتا (١٨) فالامهات فى تلك القرى لا يعرفن نظاما معينا للرضاعة ٠ ولا يحددن وقتا محددا لرضاعة الصغير فبكاء الطفل رمز لبدأ عملية الرضاعة ٠

ولقد كشفت الدراسات الميدانية فى مجتمعنا عن فروق واضحة فى عملية الرضاعة ومدتها ، فالامهات فى مدينة المنيا مثلا يفطمن أولادهن بعد العام الاول أما فى ريف المنيا فيبدآن الفطام بعد عام ونصف من الميلاد ، بعضهن يرضعن الصغار حولين كاملين ثم يفطمنهن بعد ذلك ٠

---

(١٨) محمد عبده محجوب : المرأة وأساليب التنشئة فى المجتمع الريفى ٠
Ammar. H. Growing up in an Egyptain Village op. cit.

السيد عبد العاطى : احتياجات الطفولة فى المجتمعات الريفية البدائية ٠ القاهرة ، وزارة الزراعة ، الادارة العامة لتكوين وتنمية المجتمع ، ١٩٧٧ ٠

وهذا الاختلاف فى طريقة عملية الرضاعة وأسلوب الفطام ، اكتشفه نجيب اسكندر منذ الخمسينات (١٩) ، اذ كشفت دراسته أن معظم الامهات يفطمن أولادهن فى سن يتجاوز العام الاول ويقل عن العام الثانى • وقد أظهر البحث أن هناك فروقا طبقية ذات دلالة احصائية ازاء سن الفطام • فالطبقة المتوسطة تفطم أطفالها فى سن مبكر عن السن الذى تفطم فيه أمهات الطبقة الفقيرة أولادها • فالامهات الفقيرات يفطمن أولادهن فى سن أكبر من أمهات الطبقة المتوسطة ، وهذه النتيجة أيدتها أنعام (٢٠) بعدما يقرب من عشرين عاما ، اذ بينت أن أمهات مدينة القاهرة يبدأن الفطام بعد بلوغ الصغير العام الاول ، وهناك قلة تفطم أولادها بعد بلوغهم العامين ، ويخالف هؤلاء الامهات قلة قليلة من الامهات تفطم أولادها فى سن مبكر قبل بلوغه الشهور الستة الاولى •

وليس العامل الاقتصادى وحده هو العامل الحاسم فى اطالة فترة الرضاعة أو أن الجهل هو الدافع وراء رغبة الام فى استمتاع الطفل بثدييها ، فالعقيدة الدينية « الوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » والعادات والتقاليد كلها عوامل أساسية لتأجيل عملية فطام الطفل • وقد تكون الرغبة فى منع الحمل هى السبب وراء تأخر وقت الفطام • وهناك أسلوبان للفطام فى مصر • أولهما الفطام التدريجى والدافع اليه هو خوف الامهات من الصدمة الانفعالية للطفل عند الفطام ، ورغبتها فى تعويد الطفل على تناول الاطعمة تدريجيا ، ثم الخوف من كراهية الابن لها ، وبجانب الفطام التدريجى هناك الفطام الفجائى • عندما يوضع الصبار حول حلمة الثدى أو دهانها بمادة تقزز الطفل من ثدى أمه وتبعده عنها : وهذا هو الاسلوب الاكثر شيوعا فى ريفنا •

---

(١٩) نجيب اسكندر : الاتجاهات الوالدية فى تنشئة الاطفال ، تأليف نجيب اسكندر وعماد اسماعيل • القاهرة ، دار المعرفة ١٩٥٩ •

(٢٠) أنعام عبد الجواد : تنشئة الاطفال لدى المرأة العاملة وغير العاملة المرجع السابق •

ولقد بينت الدراسة المسحية لاحتياجات الطفولة التى قام بها المركز القومى للبحوث الاجتماعية أن الفطام التدريجى أكثر شيوعا فى المدينة • بينما الفطام الفجائى أكثر انتشارا فى الريف (٢١) ويتم الفطام فى الريف المصرى بوضع مادة تنفر الوليد من ثدى الام • كأن يدهن الثدى بالبن أو الشطة أو هباب الفرن الاسود ، مما يرهب الصغير من ثدى الام • وهذا الخوف وتلك الرهبة يقابلها فى الوقت نفسه رغبة من الام فى تناول صغيرها الاطعمة حلوة المذاق • وهذا الاسلوب القاسى له آثاره الضارة على الطفل ، اذ يجعله يواجه مواقف تتناقض فيها الخبرة الوجدانية بالمصدر الرئيسى للحياة وهو ثدى الام ، وتكون عنده صدمه انفعالية تولد آثارا سيئة على الشخصية الاجتماعية للطفل (٢٢) •

ولقد كشفت لنا الدراسات الميدانيــة تباين الخبــرات المرتبطة بعمليتى الرضاعة والفطام بين الريف والحضر وحسب درجة تعليم الام أو مهنتها • ولذا يمكن أن نقول أن تباين الآثــار المترتبــة على عمليتى الرضاعة والفطــام واعتبارهما مواقف تحول فى حياة الطفل يرمزان الى تحول خبرات الطفل من أمه الى مجتمع أعضاء أسرته واتساع علاقته من دائرة الام الى دائرة الام والاب والاخوة ــ يعنى تباين الآثار النفسية والاجتماعية لهاتين العمليتين ، مما يؤثر بالتالى على العناصر الاجتماعية التى يتوحد بها الرضيع فى مجتمعنا •

أساليب المعاملة الوالدية فى طور الطفولة الاول :

يتميز الطفل فى هذا الطور بأنه كثر اعتمادا على النفس وأكثر استقلالا عن الام ويبدأ الطفل فى هذا الطور التعود على الاستقلال فى

---

(٢١) المركز القومى للبحوث الاجتماعية : بحث احتياجات الطفولة فى المجتمع المصرى ، المرجع السابق •

(٢٢) أنعام عبد الجواد : التنشئة الاجتماعية لدى المــرأة العاملة وغير العاملة ، المرجع السابق •

حركاته والاعتماد على النفس وأن لم يقطع صلته بأمه اطلاقا ٠ فالصلة بين الطفل وأمه لا زالت وثيقة ، وهو فى كل مـا يواجهـه ويقابله من مشكلات بسيطة سواء عند التبول أو التبرز أو تناول الطعام يلجأ الى أمه لحل مشكلاته ، ويبدأ الطفل فى الاستقلال عن أمه بتقليد أفعال الكبار ومحاكاتهم ٠ وقد بينت المـادة الاثنوجرافية التى جمعها محجوب أن الام فى الريف المصرى لازالت تنفرد بمسئوليات تربية الاطفال من الجنسين حتى سن الالتحاق بالمدرسة ، أى حتى نهاية طور الطفولة الاول ، أما الام فى المدينـة ، فقد تشاركها المربيـة أو دور الحضانة أو بديل الام من الاقارب مما يؤثر تأثيرا مباشرا على توجيهات الام لاولادها (٢٣) ٠

والاطفال الصغار فى ريفنا مثلهم مثل أبناء الاسرة التى تعانى من الحرمان المـادى فى الاحياء المتخلفة بالمدينة ، ينامون مع والديهم فى غرفة واحدة « فكثيرة من أبناء الاسر الفقيرة ينامون معا فى فراش واحد ، لا يفصل بينهم عند النوم فى فراش مستقل قبل الخامسة عشر » (٢٤) ، ولذا يأخذون الحياة الجنسية مأخـذ المـأكل والمشرب باعتبارها أمورا ضرورية ٠ وهم غالبا ما يسيرون عـراة ، بلا سراويل تغطـى أعضائهم التناسلية ٠ الا أن تصرفات الاطفال فى الاحياء المتخلفة بالمدينة والريف المصرى لا تعمم على كل أطفالنـا ، فقد أبانت الاجابات التى حصلت عليها أنعـام (٢٥) من مدينة القاهرة ان ما يزيد عن نصف أمهات مجتمع البحث الذى درسته أجبن بأن أولادهن لا يأتون أفعالا وتصرفات تشـير الى سلوك جنسى غير مرغوب فيه ، أى السير بدون ملابس فى المنزل أو ترديد بعض الالفاظ التى ترمز الى الجنس والاعضاء التناسلية أو اللعب

(٢٣) محمد عبده محجوب ٠ المرأة وأساليب التنشئة فى المجتمع الريفى ٠ المرجع السابق ٠

(٢٤) نفس المرجع ٠

(٢٥) أنعام عبد الجواد : أساليب التنشئة عند المرأة العاملة وغير العاملة المرجع السابق ٠

بها ، كذلك بين لنا محمود عبد القادر (٢٦) تباين وتنوع تصرفات الامهات الريفيات ازاء رغبة الاطفال فى التخلص من الملابس واللعب عراه ، فهى تتراوح بين أقصى التساهل الى أقصى التزمت • والنمط الشائع هو تحريم كشف الاعضاء التناسلية • ولكن ثمة فروقا واضحة بين الريف والحضر فيما يتعلق باستجابات الرفض من الامهات فى هذه المواقف • فالام فى المدينة قد تعاقب ابنها أو تحرمه من امتيازاته أما الام فى الريف فأكثر تشددا فالضرب والتعذيب هما الاكثر شيوعا •

ورغم أنه من المألوف أن يسير الاطفال فى الاحياء المتخلفة فى المدينة والريف وهم عراه ، وأن يناموا سويا على فراش واحد ، فقد أبانت اجابات بحث احتياجات الطفولة فى المجتمع المصرى أن أغلب الآباء والامهات فى الريف ينكرون انكارا قاطعا اقدام أولادهم على التساؤل أو الاستفسار حول موضوعات ترتبط بالجنس • اما فى المدينة فالحال يختلف اذ يعترف ما يقرب من خمس الاباء والامهات بأن أطفالهم يوجهون اليهم أسئلة تتعلق بالجنس • ولقد ذكر عدد قليل من الاباء والامهات ان هذه الاسئلة يكثر توجيهها قبل أن يبلغ الطفل العام السادس من عمره • وهذا يعنى أن التحريم الجنسى هو أحد ركائز عملية تنشئة الاطفال وتوجيههم فى مصر ريفها وحضرها (٢٧) ويؤكد هذه النتيجة محمود عبد القادر ويرى أن هذا التزمت له تأثيره الواضح على النضج الانفعالى للطفل المصرى وعلى بعض السمات السلوكية المتعلقة بنموه النفسى (٢٨) •

---

(٢٦) محمود عبد القادر : الاساليب الشائعة للتنشئة الاجتماعية فى المصرى • دراسة مقارنة بين الريف والحضر • مجلة المركز القومى للبحوث الاجتماعية • **المجلد ٣ ، العدد ١٢** •

(٢٧) المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية : بحث احتياجات الطفولة فى ج• ع• م• المرجع السابق ، ص ٢٢٧ •

(٢٨) محمود عبد القادر : الاساليب الشائعة للتنشئة الاجتماعية فى الريف المصرى ، المرجع السابق •

وتبدأ فى هذا الطور أولى خطوات الطفل للتوافق مع البيئة الاجتماعية التي حوله ، أى أولى خطوات الطفل لاكتساب مهارات اجتماعية تمكنه من الاندماج مع أعضاء أسرته ، واذا ما تقصينا ما يتعلمه الطفل فى هذا الطور ، لتبين لنا أنه يبدأ فى تعلم النظام واتباع وطاعة أوامر الام • كما يدرب كيف يضبط الامعاء وكيف يتبول سواء أكان ولدا أم بنتا ؟ ، كما يتعلم كيف يفرق بين ما يخصه ، ومالا يخصه ، وما يخص غيره، أى ما يمتلكه وما لا يمتلكه• والاطفال فى هذا الطور ينالون قدرا كبيرا من اهتمام النساء وعطفهن ويؤكد النمط الثقافى فى مجتمعنا على شدة ارتباط الطفل بأمه ثم أبيه فأخته وأخيه • وقد بينت المادة الاثنوجرافية التى جمعها محجوب أن الام تقوم بدور بارز فى عملية تدريب الطفل على عادات معينة ، ابتداء من عادات الذهاب الى الفراش والنظافة الشخصية • وتلك العادات التى تكتسب فى سن مبكرة من عمر الطفل تنمو معه ، وترسخ بمضى الوقت ، وتستمر معه هذه العادات لتصبح مسئولة الى حد بعيد عن كثير من أخطر المشكلات الصحية فى المجتمع المصرى (٢٩) •

ولقد بدأ الآباء والامهات فى مجتمعنا يعطون البنات نفس الرعاية والاهتمام الذى يعطى للذكور • ولقد أبانت الاجابات التى حصل عليها فريق بحث احتياجات الطفولة أن ما يقرب من ثلثى الآباء فى الحضر ونصف الآباء فى الريف لا يفرقون بين أولادهم البنين والبنات (٣٠) ، يقابل هؤلاء فئة تميز أولادها من الذكور مخالفين فى ذلك مجموعة تؤكد على تمييز الاناث أكثر• وهذه التفرقة فى معاملة البنين والبنات تؤدى الى توحد الفتيات بقيم ترفع من شأن الذكر • وتقلل من شأن الانثى ،

---

(٢٩) محمد عبده محجوب : المرأة وأساليب التنشئة فى المجتمع الريفى • المرجع السابق •

(٣٠) المركز القومى للبحوث الاجتماعية : بحث احتياجات الطفولة فى المجتمع المصرى المرجع السابق •

أما المساواة بين الابناء من الذكور والاناث فتدفع الابناء الى التوحد مع قيم تؤكد المساواة بين الجنسين ٠ وأكثر المؤمنين بالمساواة بين الجنسين يسكنون المدن ، وأغلبهم من الآباء والامهات صغار السن ٠ ولقد أظهرت طريقة معاملة الامهات لاولادهن فى المنيا ٠أن معظم الامهات لا يملن الى تمييز الابن الاكبر عن اخوته ٠ أما القلة فتفضل الابن الاكبر عن بقية اخوته ٠ فأكثر الامهات يعدلن بين أولادهن ، ولا يميزن أخا عن أخيه، أو يتحيزن مع الصغير ضد الكبير أو ينصرن الولد على البنت أو يتعاطفن مع الكبير ضد الصغير ، ولقد أصبحت المساواة فى المعاملة بين الذكور والاناث والصغار والكبار هى القاعدة ، أما الاستثناء فمحاباه طرف على حساب الطرف الآخر ٠ ولهذا أثره على توحد الابناء مع قيم المساواة بين الجنسين وتقارب المكانات بينهما ٠ بيد أن الايمان بقيمة المساواة يختلف فى المدينة عن الريف ٠ فالآباء فى محافظة المنيا تتباين اتجاهاتهم بالنسبة لتلك القيمة فى مجال تعليم الابن والابنة ، أما الاباء فى الحضر فانهم يؤمنون بالمساواة بينهما فى هذا المجال وان ميز الفقراء تعليم الولد عن تعليم الابنة ٠ أما فى الريف فالمؤمنون بالمساواة بين البنت والولد أقل عددا ، ولكن الامهات القرويات أكثر ايمانا من الآباء القرويين وأكثر رغبة فى تحقيق المساواة بين الابناء من الجنسين ٠

بيد أن الاسرة المصرية فى محاولتها دمج القيم التى تؤكد المساواة فى شخصيات أولادها تقع فى التناقض من موقف لآخر ، فانها تلتزم بالمساواة داخل محيط الاسرة نفسها ، أما فى العالم الخارجى فانها تتنكر لتلك القيمة ، ففهم الاسرة لمبدأ المساواة بين أعضائها يختلف كل الاختلاف عن مبدأ المساواة بين الاخرين ٠ فهى أكثر التزامات وتأكيدا للاوضاع الطبقية أثناء المعاملة مع الغرباء ، وتحض أولادها على ذلك ٠ « فالمية لا تجرى فى العالى » ، « صوابعك مش زى بعض » ويتضح ذلك بالزام أكثر الاسر لاولادها من الذكور والاناث باختيار الاصدقاء من نفس الوسط الاجتماعى والاقتصادى الذى ينتمون اليه ٠ ويكاد يكون هذا التصرف هو الشائع فى كل من القرية والمدينة ٠

والام فى مجتمعنا ، وان كانت تتولى مسئولية تنشئة الصغار فى هذا الطور ، فهى تهددهم دائما بعقاب الاب ، باعتباره مصدر السلطة العليا فى المنزل وهى تحافظ دائما على مكانة الاب بين أبنائه ، ولا تعزله عن أمور البيت ، بل تتيح له فرصة التدخل فى الوقت المناسب لتوجيه الصغار (٣١) • ولكن هناك قلة قليلة من الامهات فى الريف تحمل الاب وحده مسئولية تقويم أخطاء الصغار • وتتنازل له عن مسئولية توجيه الابناء (٣٢) • والام فى توجيهها لاولادها الصغار تعتمد فى أحيان كثيرة على العقاب البدنى لعقاب أولادها ، وهى أكثر من الاب استخداما للعقاب البدنى (٣٣) • فالضرب هو الوسيلة الاكثر شيوعا لردع الصغار وتقويم سلوكهم الانحرافى ، ويليه فى الشيوع ، محاولة اقناع الطفل بعدم العودة الى ارتكاب هذا الخطأ مرة أخرى • بيد أن اللجوء الى الضرب لردع الصغار تصرف يختلف بين الريف والحضر • فأكثر الامهات فى مدينة المنيا يملن الى شرح أسباب الخطأ للابن • ويحاولن نصحه وارشاده الى الفعل السليم ، ولكن هناك قلة تلجأ الى ضرب صغارها ، كوسيلة للردع أو التقويم • أما فى الريف فالحال يختلف كل الاختلاف، اذ نجد أن الضرب والزجر هما أكثر وسائل التهذيب والتقويم التى تلجأ اليها الامهات اذا ما أخطأ الصغير • ولا تلجأ الا قلة من الامهات الى شرح الخطأ لصغيرها •

ولقد أوضحت المادة الاثنوجرافية التى جمعها محجوب من الريف أن أمهات كثيرات لازلن يخوفن أولادهن بالاشباح والعفاريت والشياطين

---

(٣١) محمد عبده محجوب : المرأة وأساليب التنشئة فى المجتمع الريفى ، المرجع السابق •

(٣٢) محمد سعيد فرح : دراسات المجتمع المصرى ، المرجع السابق ، ص ١٧٠ •

(٣٢) المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بحث احتياجات الطفولة فى ج•ع•م• المرجع السابق ، ص ٢٢٩ •

عند تدريبهم على أداء الكثير من التصرفات • فطريقـة النصح والتقويم تختلف فى المدينة عن القرية •• ولقد أكدت هذا الاختلاف أنعام عندما، أبانت أن التهديد بالكلام ثم التهديد بالضرب أو الحرمـان من الاشـياء المفضلة عند الصغـير ثم التخويف هى أسـاليب العقاب السائدة فـى القاهرة (٣٤) •

ولقد كشفت بعض الدراسات التى اهتمت بالطفل أن صورة الاب القاسى الصارم تكاد تختفى فى المدينة • فهناك آباء كثيرون يضفون مظاهر الحب المختلفة على الاولاد ويتسامحون مع الصغار فى بعض المواقف ، ويمزحون معهم ويدللونهم ، ولكن الحال يتغير اذا ما أخطأ الابن وارتكب خطـأ ، اذ ينزل عليه عقاب الوالدين فى الحال •

وهذا يعنى أن أساليب العقاب تختلف فى الريف عن المدينة ، وهذا الاختلاف فى أساليب التقويم والتوجيه المتبعة مع الاطفال فى كل من الريـف والحضر يرجـع الى تباين المستوى المـادى واختلاف القيم بين الآباء الريفيين والحضريين ، ولقد بين فريق بحث احتياجات الطفولة فى مصر أن التنشئة فـى الريف تبغـى الزام الابنـاء بالطاعة والانصياع والانقياد والخنوع للوالدين • ولا يقتصر الخلاف فى أساليب التقويم الى المتصل الحضرى والريفى بل ثمة اختلاف فى أساليب العقاب بين الامهات العاملات والمتفرغات فى بعض المواقف ، ولكن الام العاملة قد تعود الى استخدام الطريقة التى تتبعها الام المتفرغة عند عقاب الابنـاء فى مواقف أخرى •

فالنمط الثقافى فى مجتمعنا يعلم الطفل ابتداء من العام الثالث من عمره وجوب طاعة الكبار ، أما اذا تصرف الطفل تصرفا لا يقبله الكبار،

---

(٣٤) أنعام عبد الجواد : أساليب التنشئة عند المرأة العاملة وغير العاملة، المرجع السابق •

وحاول الاسترضاء بالبكاء وجد أن الكبار لا يأبهون لبكائه ، وكلما كبر الطفل زاد عدم مبالاة الكبار بأساليب التهديد الانفعاليـة ، كما يدرب الطفل على عدم التمرد على السلطة الوالدية وينهى عن ذلك دوما ، ويلقن بأن ذلك فعل محرم تأباه العقيدة الدينية • ولقد أوضح الآباء فى كل من الريف والحضر أن أكثر مايسيئهم فى تصرفات الابناء هو التجاء الابناء الى استخدام لغـة غير مهذبة فى الحديث ، وعدم تعاونهـم فى أمـور الاسرة واعتراضهم أحيانا على مستوى معيشة الاسرة (٣٥) •

واذا ما كان الطفل متمردا عنيدا ، ومهما بلغت نزعة العناد عنده ، فانه لن يرتاب فى أحقية الكبار بالسلطة ، ويبدأ الوالدان فى الرابعة فى تلقين الطفل احترام الكبار والطاعة لهما ، وهما لا يتساهلان فى هـذا أبدا ولا يجدان آية صعوبة من قبل الطفل ، وهما فى هذا يؤكدان المعايير الثقافية المحافظة والسائدة •

وتتميز تلك الفترة من عمر الصغير بانفراد الام والاخوات والاخوة الصغار باللعب مع الطفل ، وقلما يلعب مع اخوتـه وأخواتـه الكبار • ويرجع ذلك الى الاعتقاد بأن اللعب مع الصغار يفقدهم الاحترام ويقلل من هيبتهم داخل الاسرة • ويبدأ الطفل حينئـذ تعلم أساليب ارضـاء الوالدين • كما يتعلم كيف يحمى نفسه من اخوته بالتهديد بشكواهم الى الوالدين ، وفى محاولة الطفل فى هذا السن ارضاء الوالدين واستمالتهم يبدأ فى تعلم النميمة ، أى يبدأ فى نقل أفعال وتصرفات الاخوة الكبار الخارجة عن المألوف – والنتيجة الحتمية لهذا السلوك تدعيم اتجاهات السلطة فى شخصيات الصغار •

---

(٣٥) المركز القومـى للبحوث الاجتماعية والجنائية • بحث احتياجـات الطفولة فى ج٠ع٠م٠ المرجع السابق ، ص ٢٢٤ •

واذا كانت الامهات والآباء فى المدينة يخالفون الآباء والامهات فى الريف فى طريقة معاملة الاولاد ، واذا كانت العاملات يخالفن المتفرغات فى أساليب توجيه الصغار ، فهذا يعنى عدم وجود خط فكرى موحد واضح يجمع حوله كيفية توجيه الصغار وتنشئتهم ، مما يؤثر فى نوعية العناصر الاجتماعية التى تتوحد بها شخصيات الصغار ·

أساليب المعاملة الوالدية فى طور الطفولة المتاخرة :

يبدأ الاطفال فى هذا الطور فى تنمية الاحساس بالذات، وارضاء مطالب الثقافة السائدة ، والاهتمام باشباع الحاجات المتزايدة ، كما تنمو لديهم القدرة على كبح النزعات ويتعلم الاطفال فى هذا الطور أهمية تحديد مطالبهم · ويفكرون فى أنفسهم ويتساءلون عن الروابط التى تجمع بينهم وبين الام والاب والاخوة ، قد يكون الطفل قبل السادسة عنيدا مشاكسا ، ولكنه يدرك بعد السادسة أن التمرد والعصيان يلقيان عقابا صارما من الابوين والمدرسين كما يعى تمام الوعى أن المجتمع يعاقب المتمرد غير المطيع ·

ويبدأ الطفل فى هذا الطور الذهاب الى المدرسة ، ويتعلم التوافق مع رفاق السن ، كما يبدأ فى تكوين صداقات مع أترابه · وزمـلاء المدرسة ، والمدرسة نظام اجتماعى يؤثر فى تشكيل اتجاهات الصغـير وقيمه ، وتهتم المدرسة بتاكيد المظاهر الايجابية عند الصغير ودمج بعض العناصر الايجابية فى شخصيته ، ابتداء من التعاون والتنافس المشروع من أجل التفوق والمثابرة والايجابية · وتحاول المدرسة من خلال النشاط المدرسى أن تنزع مشاعر الانانية والحقد والسلبية وتؤكد الافصاح عن المشاعر الايجابية واخفاء المشاعر السلبية · كما تدعم المدرسة الاتجاهات الثقافية المقبولة على النطاق الرسمى ، مثلما تدعـم الاسرة الاتجاهات الثقافية غير الرسمية وتؤكد المدرسة العقاب الملموس على المتمرد · ولا ينتظر من الاولاد فى المرحلة الاولى من المدرسـة الابتدائية أن يكونوا

مبدعين وخياليين فى هذا الطور ، وألا يفكروا فى أنفسهم ، ولكنهم على العكس يرددون ويكررون ما يقوله المدرسون كما يحفظون ما يلقنه لهم المدرسون على ظهر قلب • ويمكن أن تقوم المدرسة بدور هام فى عملية التنشئة عندما تعود الطفل على النظام والطاعة من خلال النشاط المدرسى وعندما تؤدى وظيفتها التربوية على أكمل وجه وتلقن الصغير ثقافة المجتمع•

ولكن رغم الاتجاه العام نحو الاهتمام بالتعليم وارسال الاولاد من البنين والبنات الى المدرسة ، للحصول على وظيفة بأجر أو عمل يخالف عمل الاب ، فمن الواضح فى المجتمع المصرى أن مجموعة من الاطفال تحرم من الالتحاق من المدرسة ومجموعة أخرى لا تكمل المشوار ، وتتسرب من الفرق الدراسية • ولقد أصبح التعليم مطلبا عاما فى مجتمعنا لمواجهة المطالب الاجتماعية والاقتصادية المتزايدة بعدما أصبح مجانيا منذ ١٩٥٠ ويعكس الاهتمام بالتعليم التطلعات الوالدية لمستقبل أولادهم باعتبار التعليم هو الرافعة الاجتماعية للمكانات الاجتماعية وأداة الحراك الاجتماعى ويؤكد هذا الاهتمام بالتعليم تزايد أعداد المتعلمين عاما بعد عام،وما يهمنا ليس تزايد أعداد المتعلمين بل آثار المدرسة على تكوين وتشكيل معتقدات الصغير وطريقة مواجهته لمشكلاته وتعويده على نمط معين من التفكير • ولما كانت المدرسة المصرية تعانى من أوجه القصور التى تؤثر على أدائها لوظيفتها التعليمية وبالتالى فى التأثير على شخصية الصغير وتكاملها ، ابتداء من عدم أدائها لوظيفتها التعليمية على مستوى جيد ، وعدم نجاحها فى دمج القيم الروحية والاخلاقية والدينية دمجا كاملا ، وبالتالى فشلها فى تحبيب الصغار للقيم الدينية والوطنية ، فقد اقتصرت وظيفتها على تلقين الصغار بالمعلومات وتعويدهم على الحفظ دون الفهم وحشو أذهانهم بالمعارف وعدم تدريبهم على التفكير العلمى والتحليل وادراك العلاقات بين المتغيرات •

ولكن هل يخضع كل الصغار فى مجتمعنا لتأثير المنهج المدرسى • وهل يواظب الجميع على الاستمرار فى الدراسة الابتدائية ليمكن لنا ن نقول أن المدرسة تؤثر على تلاميذها تأثيرا مماثلا • وتدمج فى شخصياتهم قيما موجهة من خلال المنهج الدراسى تؤمن به القيادات الرسمية مما يقلل من التنافر والتشتت بين قيم المواطنين ويقرب المسافات بين الاتجاهات وأساليب التفكير ؟ الجواب على ذلك بالنفى ، فرغم أن الدستور كفل مبدأ تكافؤ الفرص فى التعليم ، فان تفاوت مستوى الخدمات التعليمية بين الريف والمدينة وازدحام الفصول بالتلاميذ • كلها عوامل تعوق المدرسة الابتدائية عن أداء وظيفتها التعليمية ، بجانب حرمان البعض من الالتحاق بالمدرسة أو الاستمرار فى الدراسة •

واذا كانت المادة الاثنوجرافية التى جمعها فريق بحث اعادة بناء الانسان المصرى بقسم للانثروبولوجيا يؤكد أن الاطفال فى المجتمعات الريفية والقبلية فى مصر ، يخضعون أكثر لتأثير الاسرة ، ربما بسبب حرمانهم من التعليم أو بسبب تسربهم من المدرسة ، فان بعض أطفال المدينة ليسوا بأفضل حظا من أبناء الريف ، رغم أن نسبة تشغيل الاطفال فى الريف تزيد عن نسبة تشغيل الاطفال فى المدينة • بسبب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى الريف التى تشجع على الامتناع عن الذهاب الى المدرسة • وهذا يعنى أن المدرسة لا تؤدى وظيفتها التربوية والاجتماعية على النحو المطلوب • فاذا كانت هناك فئة من الاطفال تمتص وتتمثل القيم الاجتماعية التى تدعو اليها المنهج الدراسى ، ويتأثرون بها ، فهناك فئة من الاطفال تجهل تماما ما يلقن فى المدرسة • يعايش هؤلاء فئة ثالثة تعارض أسرها ما يلقن فى المدرسة أو تقف منه موقفا سلبيا ، خلاف فئة رابعة ، تتسرب من المدرسة وترتد الى الامية •

فالمدرسة فى مجتمعنا لا تؤثر تأثيرا مماثلا على الصبية ، وبالمثل فالقيم التى يدعو اليها المنهج الدراسى لا تدمج دمجا مماثلا عند كل الصبية

مما يؤكد لنا أن دور المدرسة فى تكوين الشخصية ليس فعالا ولا يؤتى بثمرة واحدة ٠

ويدرب الطفل فى مجتمعنا فى بداية هذا الطور الاعتماد على نفسه ويبدأ فى التدريب على كيفية ارتـداء ملابسـه وخلعهـا ٠ كما تفضل الاسر تعامل أطفالها مع السوق بعد أن يتجاوز العام السابع من عمره ، كما تدرب بعض الاسر صغارها على الذهاب الى مدارسهم بمفردهم بعد العام السابع ٠ ولقد كشفت الدراسة الميدانية التى أجراها سعيد فرح للصبية فى مدينة الاسكندرية أن السن المناسب لاستقلال الصغير وبدأ اعتماده نسبيا على نفسه هو العام الثامن (٣٦) ٠ وهذا يعنى طول اعتماد الطفل على أسرته عامة وأمه خاصة ٠ ولقد كشفت دراسـة احتياجـات الطفولة فى المنيا أن الآباء والامهات فى المدينة أكثر قبولا من الوالدين فى الريف لمبـدأ تحمل الصبية للمسئولية (٣٧) ٠ فالقرويون يبدون رغبة ضعيفة فى تعويد الصغار الاعتماد على النفس ، وضرورة الارتباط بالاسرة والخضوع لسيطرتها ٠ وكذلك أبانت الاجابات أن أسر المدينة أكثر تطبيقا لمبدأ حق الطفل فى التعبير والاختيار من أسر الريف ، ويكاد هذا الحق يتلاشى فيما يتعلق بكل ما يرهق ميزانية الاسرة فبدلا من أن يكون العوز المـادى سببا فى التعبير أصبح دافعا لكبح حق الصبى فى التعبير والاختيار ٠

وقد يلجـأ الآباء فى هذا الطور الى استخدام الضرب لمعاقبة الصبى، مما يعنى تخويفه وترهيبه ، وبث القيم التى تؤكد أخلاق الخوف والرهبة والخشية من السلطة وهم يرون أن أسلوب أخذ الطفل بالشدة هو الاصلح فى التربية وقد يوصى الآباء بضرب الاطفال وعـدم معاملتهم باللـين ،

(٣٦) محمد سعيد فرح : البناء الاجتماعى والشخصية ٠ رسالة دكتوراه الفصل الثامن ، المرجع السابق ٠

(٣٧) محمد سعيد فرح : دراسات فى المجتمع المصرى ٠ المرجع السابق ٠

وهذا التصرف يخالف اتجاهات الامهات اللاتى يرفضن مبدأ الشدة مع الابناء (٣٧) ٠

واذا كانت الامهات يختلفن عن الآباء فى أساليب تقويم الصبية ٠ فقد وجد سعيد فرح أن أساليب التوجيه والتقويم تتباين فى القرية عن المدينة فى مدينة المنيا ، فالامهات فى المدينة أميل الى التحلى بالصبر عند التعامل مع الصغير ، وأميل الى شرح الخطأ للابن ويحاولن نصحه وارشاده ٠ أما فى الريف فالضرب هو الوسيلة الاولى المشروعة لتقويم أخطاء الصبية ٠ ولا تلجأ الا قلة ضئيلة من الامهات القرويات لشرح الخطأ ٠ ولكن هناك أمهات يتخلين عن مسئولية توجيه الصبى الى الاب ٠

كما بينت لنا الدراسات الميدانية أن النمط الثقافى فى مجتمعنا يعاقب دائما ويثيب نادرا ٠ فهناك عدد كبير من الاسر لا تكافىء أولادها على أفعالهم مهما أحسنوا ٠ وقلما تترجم المكافأة الى ثواب مادى أو كلمة طيبة ٠ وثمة فروق واضحة بين الريف والحضر ازاء تصرفات الوالدين عندما يحسن الطفل التصرف ويظهر الطاعة لوالديه ٠ فبعض الاسر فى الحضر تكافىء الطفل بالهدايا والبعض يعبر عن ارتياحه بالتعبير اللفظى ٠ أما فى الريف فالوسيلة الشائعة للتعبير عن الرضا الابوى « فهى الاستحسان اللفظى » ، وهناك أفعال فى الريف تعد أمورا عادية لا تنال جزاءا أو شكورا ، فقيمة الطاعة واحترام تعليمات الوالدين تكتسب أهمية خاصة فى الريف ٠ بحيث لا يرى أهل الريف فى اطاعة الوالدين أمرا غير مألوف يستحق الاثابة (٣٩) ٠ وهذا كله يعنى أن أساليب التوجيه والتنشئة فى الريف تؤكد على تدعيم وادماج قيم الطاعة والانصياع للوالدين ٠

---

(٣٨) أحمد أبو زيد : التنشئة الاجتماعية واحتياجات الطفولة ، المرجع السابق ٠

(٣٩) المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية : بحث احتياجات الطفولة فى ج٠ع٠م٠ المرجع السابق ، ص ٢٣٢ ٠

كذلك يتباين موقف الآباء فى المدينة عن موقف الآباء فى الريف من العناصر الاجتماعية المفضلة التى يرغبون فى ادماجها فى شخصيات الصبية من الابناء · فالصفات التى يرغب الآباء فى المدينة توحد أولادهم وتمثلهم لها هى طاعة الوالدين ثم احترام الكبار ثم التفوق الدراسى · ثم التدين ، واحترام الوقت · أما الآباء فى الريف فيعتقدون أن الايمان بالدين والاقتداء بالتعاليم الدينية ، هما أهم العناصر الاجتماعية التى يتعين دمجها فى شخصيات الصبية (٤٠) ، بل ويحاول الآباء دوما ربط أنماط السلوك وتفسيرها بالرجوع الى الدين · مما يساعد على تدعيم وتعميق الشعور الدينى · ولقد أوضحت المادة الاثنوجرافية التى جمعها فريق بحث اعادة الانسان المصرى « أن الاحترام قيمة عليا يؤكدها المصريون فى تحديد قواعد السلوك والعلاقات بين الناس ، وينشأ الناس أولادهم على احترام الاكبر سنا · والمحافظة على عرض الاسرة والشرف والعفة والحياء · وتربية الابناء الصغار على احترام الكبير وشرف الاسرة لا يزال حتى الان من أهم ما تؤكد عليه الاسرة فى مصر ويميز المجتمع المصرى (٤١) ·· كذلك بينت دراسة مجتمع المنيا أن الامهات والآباء أكثر تمسكا بغرس قيم طاعة الوالدين والايمان بالدين والامانة والصدق عند الابناء الصغار · كما بدأ اتجاه فى المدينة يؤكد أهمية تعويد الصغار على احترام الوقت وحب الوطن والادخار · بيد أن هذا الاتجاه المؤمن باحترام الوقت وتنظيمه أقوى فى المدينة منه فى الريف · أما قيمة الادخار فتنال قبولا أقل · وعلى العموم فالآباء فى المدينة أكثر وعيا من الابناء القرويين بالقيم الجديدة وأكثر تقبلا لاقتداء أبنائهم بها فى سلوكهم · كما ينبذ الآباء فى الريف والمدينة كل أشكال السلوك المرتبطة بالكذب والتمرد والفردية والانانية (٤٢) ·

---

(٤٠) المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية : بحث احتياجات الطفولة فى المجتمع المصرى ، المرجع السابق ·

(٤١) أحمد أبو زيد : التنشئة الاجتماعية واحتياجات الطفولة ، المرجع السابق ·

(٤٢) محمد سعيد فرح : دراسات فى المجتمع المصرى ، المرجع السابق·

ولقد بين محمود عبد القادر والهام عميفى أن الآباء والامهات فى مجتمعنا يرفضون رفضا جازما السلوك العدوانى فهم يقدرون القيم المرتبطة بالهدوء والدعة والامتثال عند الابناء أو يحبذون الايجابية ويستهجنون العدوان المخرب المدمر (٤٣) فالقرويون لا يتسامحون أبدا ويتزمتون كل التزمت ازاء السلوك العدوانى للابناء ٠٠ فالنمط الشائع فى ريفنا هو تدريب الطفل وحثه على طلب السلام والامن حتى لو ضحى فى سبيل ذلك ٠

ولقد بينت دراسة سعيد فرح لاطفال الاسكندرية (٤٤) أن المسائل القومية لا تنال القدر القدر الكافى من اهتمام الاسر ٠ وكل ما تهتم به الاسرة دمج العناصر الاخلاقية والدينية فى شخصيات الابناء ٠ فالايمان بالدين راسخ فى مجتمعنا أما اهتمام الامهات بالقيم المرتبطة بتنمية الوعى الادخارى أو احترام الممتلكات العامة فقليل ٠ اذ بينت الدراسة أن عدم الاهتمام بالمحافظة على الممتلكات العامة تصرف تشترك فيه الامهات العاملات والمتفرغات بل ان فهم الامهات لاهمية المحافظة على الممتلكات العامة ووظيفتها الاقتصادية فهم قاصر ٠ ولقد وضح أن أغلبية من الامهات كشفت عن اهتمامها بتعويد صغارها على الاهتمام بالمسائل الخاصة أكثر من المسائل العامة ٠ فالفردية تتغلب عندهن على الجماعية ٠

وتتفق نتائج سعيد فرح فى كل من المنيا والاسكندرية مع دراسات أنعام عبد الجواد فى مدينة القاهرة والدراسة المسحية لاحتياجات الطفولة ودراسات عايده عبد اللطيف عن أطفال مدينة المنيا على وجود ازدواجية فى أساليب تنشئة الاطفال ، وعدم اجماع الآباء والامهات وعدم اتفاقهم

---

(٤٣) محمود عبد القادر : الاساليب الشائعة للتنشئة الاجتماعية فى الريف المصرى ، المرجع السابق ٠

(٤٤) محمد سعيد فرح : البناء الاجتماعى والشخصية ، رسالة دكتوراه ، المرجع السابق ٠

على أساليب موحدة لتوجيه الصغار ، فهم لا يتفقون على أساليب محكمة لمعاملة الولد والبنت فالآباء فى المدينة أميل الى رفض الحرية الكاملة للابن وفى الوقت نفسه يرفضون تقييد حركاته ، ولكن الحال يختلف بالنسبة للابنة فهم أميل الى تقييد حريتها ٠ كذلك تتشتت مواقف الآباء والامهات بالنسبة لتعليم الابناء ، فبعض الاسر تؤمن بتكافؤ الفرص بين الابنة والابن فى مراحل التعليم ، وبعضها يأبى حق الابنة فى مساواة الابن ٠ كذلك فأساليب التنشئة ليست متماثلة بين الامهات العاملات والمتفرغات ٠ وتختلف باختلاف مستوى تعليم الام والاب ، وبطبيعة عمل الاب أو الام ، وأحيانا ما تكون أساليب التنشئة فى أقصى التسامح يقابلها أساليب للتوجيه فى أقصى مظاهر التزمت ٠ وتعايش أساليب التنشئة الاجتماعية الجديدة كل الجدة أساليب التنشئة الاجتماعية الجامدة المتوارثة عن الاجداد ٠ ويؤدى عدم التماثل فى أساليب التنشئة الى توحد الصغار مع قيم متباينة غير متجانسة وعدم ثبات توقعات الصغار من الآخرين وعدم اضطراد سلوكهم فى المواقف المتماثلة تبعا لتباين ردود الافعال الصادرة من الكبار سواء بالتأييد أو الرفض لنفس النمط من السلوك مما ينعكس على العناصر الاجتماعية والثقافية المكونة للشخصية ٠

أ.د/ محمد سعيد فرج
أستاذ علم الاجتماع

الفصــل السادس

الشخصية المتغــيرة

من الاستقرار الى البلبلة الاجتماعية

- آراء السلوكيين فى تغير الشخصية القوميــة ٠
- خصائــص وأفعــال الشــخصية المصرية فــى المرحلــة التقليدية ٠
- الشخصية المتغيرة ٠

الفصـــل السادس

الشخصية المتغــيرة
من الاستقرار الى البلبلة الاجتماعية

آراء العلماء في تغير الشخصية القومية

أكد فرويد أن تغير الشخصية يتبع مراحل تطور اللبيدو ، وقد افترض فرويد أن هذا التطور متأصل في البناء الفسيولوجي للانسان ، وافترض أيضا أن العناصر الاساسية المكونة للشخصية متكاملة تقريبـا في سنوات الطفولة الاولى قبل أن يبلغ الطفل العـام السادس من عمره ، أي قبل طور الكمون • وأوضح فرويد أن تجارب الطفل في محيط الاسرة مع والديه لها خطورتها في تكوين الشخصية وهذه العناصر التي تتكون قبل بلوغ الطفل العـام الخامس من عمره ثابتة جامـدة لا تتغـير ، ولا تتأثر بالتغيرات اللاحقة والتي قد تترتب على اتساع علاقات الشخص في البيئـة الاجتماعية •

هـذا التصـور للشخصية رفضـه الاجتماعيون والانثروبولوجيين ورفضه أيضا أنصار الفرويدية المحدثة • فالشخصية لا تقوم على عناصر سرمدية خالدة • ولا تتكون من سمات جامدة ثابتة ،بل تعبر عن أزمنة تاريخية معينة ، وتعكس أثر البناء الاجتماعي المتغير دوما على الشخصية ، وان كان من الصعب أن نقرر يقينا متى تبدأ هذه الفترة الزمانية ، ومدى دوام هذه الشخصية (١) اذ أن الشخصية القومية قد تبدأ في التغير قبل أن تظهر معالم التغير جلية في سلوك أشخاص مجتمع ما • واذا سلمنا بمبدأ أن الشخصية تتغير ، فهل تتكيف الشخصية الاجتماعية مع التغير وتواكبـه ، أم ترفضه • يرى فروم أن ثمـة تخلفا زمنيـا بين التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والتغيرات التي تطرأ على الشخصية التقليدية •

---

(1) Farber Maurice : The problem of National character. A Methodological analysis, op. cit. p. 82.

اذ أن تأثير التغيرات الاقتصادية ليس مباشرا وليس سريعا ، بل يحدث هذا الاثر على المدى الطويل ببطء وتدريجيا ، تصاحبه تغيرات غير ملحوظة فى سلوك الاشخاص فى البداية دون مساس أو تغيير مضمون الشخصية القومية الجامدة · بيد أن تلك الهوة سرعان ما تتلاشى اذا ما حدثت ثورة ثقافية ، أى حدث تغير ثورى فى نسق القيم(٢) وقد ساير ايريك فروم فى تفسيره لما يطرأ على نسق القيم المكون للشخصية من تغيرات الاتجاه الماركسى الذى يؤكد أن التغيرات الاقتصادية تؤثر تأثيرا غير ملحوظ على الشخصية · ونحن نرى أن تغير الشخصية ، وان كان يحاول التكيف مع التغيرات الاقتصادية التى تستند عادة على التخطيط ، فان هذه التغيرات التى تحدث فى الشخصية هى نتيجة لانعكاس التغيرات البنائية الاقتصادية والاجتماعية على سلوك الاشخاص ، وتمثل امتصاص هؤلاء الاشخاص لهذه التغيرات المادية واللامادية ، اذ يلزم أن تقوم تغيرات جذرية أخرى الى جانب التغيرات الاقتصادية مثل أحداث الثورة فى مجال التعليم والثقافة ، والانتشار الواسع لمظاهر الحياة الحضرية بجانب التوسع فى استخدام الآلة وانتشار العمالة غير الزراعية والتحول من العمل اليدوى الى العمل الآلى الفنى وتغير نمط الانتاج واعادة توزيع ملكية أدوات الانتاج · وهذه العوامل اللااقتصادية مثل التعليم والثقافة – وان كانت لا ترقى الى خطورة العامل الاقتصادى · اذ أنها تابعة له – فانها على جانب عظيم من الاهمية فى مسايرة التغيرات الاقتصادية ·

ولنا فى مصر أوضح دليل على أن التغيرات الاقتصادية وحدها لا تغير من سلوك الناس فعلى الرغم من القرارات الفوقية الهامة بتحويل الاقتصاد المصرى من اقتصاد زراعى تابع الى اقتصاد مستقل ، وتحديد الملكية الزراعية والقضاء على الاقطاع الريفى وانشاء صناعات وطنية وتأسيس قطاع عام قوى تدعمه الحكومة ، فثمة رواسب من التفكير الاقطاعى

(2) Fromm, E : Social character in a Mexican village. op. cit. p. 127.

والتفكير اللاعقلانى نتيجة لعدم حدوث ثورة شاملة فـى منـاهج التعليم تواكب التغـير فى الهيكل الاقتصادى أيضا تعمل على ترسيخ هذا التغير وتمثل المواطنين له ٠

فالشخصية الاجتماعية اذن تتخلف عن ملاحقة التطورات الاجتماعية والاقتصادية عادة ، لان جذورها راسخة فى التقاليد والمعتقدات ، مما يجعلها أكثر جمودا من النظم الاقتصادية والسياسية الاكثر تقبلا للتغير والاكثر ديناميكية وحركة ٠ وهذا التخلف عن مواكبة التغيرات الاقتصادية ضار بكل طبقة وكل شريحة اجتماعية بل وكل مجتمع لا يواكب نفسه مع مطالب الظروف الجديدة ، لان جمود الشخصية على نحو تقليدى ، يجعل من السلوك التوافقى أمرا صعب التحقيق ٠ لعجـز هذه الشخصية الجامدة عن التكيف مـع الظروف الجديدة ٠ هـذا ويرى جينزبرج أن تحديد الشخصية القومية ، مسألة معقدة (٣) ، اذا ما وضعنا فى اعتبارنا أن النظم لا تعكس شخصية كل الاعضاء ، بل ربما تعكس فقط شخصية القطاعات المسيطرة ، والتى تختار بعمليات لا شعورية نمط الشخصية الاكثر ملائمة لهـا ، وبهذه الكيفية قد تستبقى صفات كثيرة لجماهـير الشعب كامنـة أو مقهـورة ، تنتظر ظروفا أكثـر ملائمة لها لتظهر رد الفعل الاقوى ضد النمط الذى سـاد فى الماضى ٠ فالشخصية القوميـة ليست معبرة وليست جامعة لكل العناصر الاجتماعية السائدة بين جميع قطاعات المجتمع ، وتغيرها ليس فجائيا ، بل تمهد له مقدمات تؤدى الى هذا التغير ، وستحل معه الى حد ما طابع جديد للشخصية وبناء نسق جديد للشخصية لا يختلف اختلافا كليـا عن النسق القديـم ، وتوحد الافراد مع دوافع جديدة تعيش جنبا الى جنب مـع العناصر الاجتماعية الراسخة ، مما يدفع الافراد الى رفض الواقع لعجزه عن تحقيق بعض مطالبهم ٠ ولذا فالتغير لا يحدث فى كل المكونات الاجتماعية للشخصية ، ولا فى كل شرائح المجتمع بمعدل واحد ، بل تضمر أو تتـلاشى بعض

(3) Ginsberg, M : Reason and unreason in society. op. cit. p. 137.

الخصائص أو السمات القومية فى قطاعات معينـة ، وتضمر وتتوارى فى الظل فى قطاعات أخرى ، وتصير كامنة للاحداث الرافضة لهذه السمات • ويستمر هذا الكمون الى أن يحدث تغير فى الظروف يؤدى الى بعث هذه الخصائص من جديد فى صورة أكثـر جمودا وأشد أثرا مما كانت عليه ، أو ظهور خصائص وسـمات جديدة تخالف العناصر السائدة أو الكامنة وتناقضها ، الا أن هذه الخصائص والسمات الجديدة تحتاج الى فتـرة زمانية لتقوى وترسخ لتستطيع أن تصمد أمام انتقادات الرافضين •

فتغير مكونات الشخصية الاجتماعية ، أمر مألوف ومقبول وطبيعى ما دام هناك تغير فى البناء الاجتماعى ــ كما أوضحنـا ، الا أن التغـيرات الثورية العنيفة التى قد تغير نظم الدولة تغيرا جذريا لا يصاحبها عادة ــ كما يدعى جينزبرج ــ تغير ملازم فى خصائص الجماهير ، الا بعد رسوخ قيم الثورات الثقافية ومناهج التعليم الجديدة بين كل الشرائح الاجتماعية•

وبقدر ما يؤدى تغير النظم الاجتماعية الى تغير الشخصية القومية ، فان بعض الشخصيات فى مجتمعات كثيرة كثيرا ما تعمل على تغيير هـذه النظـم (٤) مثلما يحدث من الصفوة أو القادة • بيد أن التكيف التاريخى بين الشخصية القومية والنظم الاجتماعية المتغيرة قد يؤدى فى النهاية الى تغير شامل فى الشخصية القومية ، فمثلا يرى جينزبرج أن النظـم الديمقراطية فى بعض المجتمعات اتخذت صورة أخرى وشوهت صورتها وطبقت تطبيقا خاطئا بتأثير مكونات الشخصية القومية التقليدية فى هذه المجتمعات • فقد مسخت الديمقراطية وشوهت ، على أننا لا نستطيع أن نقول ان هذه المجتمعات ستظل عاجزة تماما عن تقبل الديمقراطية بمعناها الحقيقى ، فثمة أسباب للتكيف تدفع الى تغير الشخصية بما يتلائم مع التغير الجديد للنظم (٥) •

---

(4) Ginsberg : Ibid. p. 152.
(5) Ginsberg : Ibid. p. 152.

ولكن كما أن الشخصية القومية مرآة للتغير ، بـل وتدفع اليه ، فالشخصية الاجتماعية تعوق التغير ، ورغم انتشـار التعليم ووسـائل الاتصال والتصنيع فان تغير الشخصية القومية أمر مسلم به ومقبول أثناء انسياب الزمان ، ما دام السلوك الانساني يتغير بتأثير أحداث تاريخية هامة وعوامل اجتماعية واقتصادية ، تتفـاعل معـا وتغـير من مكونات الشخصية بقصد توافق الشخصية عادة مع ظروف الحيـاة الاجتماعية ونمط الانتاج • ولقد بين علماء الانثروبولوجيا كيف أن تغير الاقتصاد من نظام الزراعة البعلية (التى تروى بالمطر) الى نظام الزراعة المروية أدى الى تغير ملحوظ فى المكونات الاجتماعية والثقافية للشخصية ، ولكن الشخصية القومية ، قد تتشتت فى المجتمع اللامتجانس الذى ينقسم الى طبقات متباينة ، الى شخصيات اجتماعية تعبر كل شخصية عن مصالح طبقتها • فهناك الشخصية الاجتماعية الريفية وهناك الشخصية الاجتماعية الحضرية ، وهناك شخصية المزارع مقابل شخصية العامل الصناعى أو الموظف المكتبى • وهناك عوامل نفسية واجتماعية واقتصادية (٦) تتداخل وتتفاعل معا وتكون شخصية الفلاحـين ، كما أن هنـاك عوامل نفسية واجتماعية واقتصادية تتفـاعل معـا وتكون شـخصية ساكن المدينة أو العامل فى الصناعة ، مما يؤدى الى وجود فوارق واضحة تؤدى بالتالى الى تباين ملحوظ فى خصائص وسمات الشخصية الاجتماعية وسماتها عند كل من الفلاح أو العامل الصناعى • واختلاف هذه الشخصيات الاجتماعية هو العائق الاكبر نحو التغيير الشامل فى المجتمع لان كلا منها يدافع عن مصالحه التى قد تتعارض مع مصالح الاخرين •

وامكانية تغـير نسق الشخصية ترجـع الى أن عناصر الشخصية تتصف بالمرونة أى أن لها القـدرة على اعـادة التشكيل (٧) فالشخصية

---

(6) Fromm : Social character in a Mexican Village. op. cit. p. 6.

(7) Fromm : Ibid. p. 22.

Farber : The Problem of National character. op. cit. p. 82.

نسق يمتص التغيرات · ولا يقتصر التغير على سمة واحدة ، اذ أن هذا غير مجدى ، وغير ممكن ، اذن فالسمات والخصائص المكونة للشخصية يشد كل منها أزر الاخر ، ولذا يحدث التغير فى جميع العناصر المكونة للشخصية تدريجيا ، أى عنصرا فعنصرا ، فنسق الشخصية الاساسى لن يختفى ولكن يحل محل بعضه نسق جديد يمتزج بالقديم ، ولن يختلف البناء الجديد اختلافا جذريا عن البناء الاصلى ، ولكن قد يختلف عنه بما يكفى لخلق مجموعة جديدة من الخصائص والسمات مختلفة تماما عن سمات الشخصية التقليدية ، وتغير نسق الشخصية مثل التغير الذى يطرأ على باقى الانساق ، لن يحدث الا اذا تغيرت مجموعة كاملة من الظروف الاجتماعية والاقتصادية تغيرا كاملا كفيلا بان يحور من النسق كله ويعدله · فتغير نسق الشخصية مرتبط ارتباطا وثيقا بتغير البناء الاجتماعى ·

ولكن اذا ما سلمنا بأن تغير الشخصية القومية محصلة للتغيرات البنائية الشاملة· فليس معنى هذا أن كل الاحداث التاريخية الهامة قد تغير وتحور من نسق الشخصية (٨) · فمثلا لم تتغير الشخصية المصرية نتيجة للحروب الاسرائيلية الاربعة ، كما لا تتغير الشخصية القومية بتغير الحكومات أو بتغير العلاقات الدبلوماسية بين الدول · ان ما يصدق على الشخصية القومية يصدق بالتالى على الشخصية الاجتماعية المميزة لكل شريحة اجتماعية فى المجتمع · ويرى فروم أن أفراد كل طبقة فى المجتمعات المتقدمة ، لهم شخصيتهم الاجتماعية المميزة ، وتعكس شخصية كل طبقة مكانتها فى البناء الاجتماعى وعن دورها فى طريقة الانتاج · ويرجع ذلك الى أن طبيعة نظام الانتاج فى القرية يختلف عن طبيعة نظام الانتاج فى المدينة · كذلك فاذا كانت شخصية المتعلمين أكثر قدرة على التغير ، فان شخصيات الاميين أكثر جمودا ، دائما عاجزة عن تغيير سمات شخصياتها ولا تتلائم مع الظروف الجديدة · والسؤال هل تغير الشخصية

---

(8) Fromm : Social character in a Mexican Village. op. cit.

الاجتماعية يعنى اختفاء العناصر التقليدية كلها ٠٠ وظهور عناصر جديدة ، الجواب بالنفى ٠ فالماضى يضع بصماته على الحاضر فلن تستطيع الظروف الجديدة أن تصهر بنـاء الشخصية القديم كله الذى تكون أثناء عملية تاريخية طويلة ٠ ولكن كل ما يحدث هو أن الظروف الجديدة تقلل من ثقل البناء القديم وتأثيره على السلوك ، وتقوضـه لتستطيع المؤثرات الجديدة أن تمارس كامل تأثيرها على الجيل الجديد وتساعد على خلق وتكوين بواكير نمط جديد للشخصية الاجتماعيـة عند جيل الابنـاء ٠ فالتغير الحادث فى الشخصية الاجتماعيـة ليس عشوائيا ، بل يحدث اسـتجابة للظروف الجديدة التى يعانـى منهـا الوالـدان وتوقعاتهما المستقبلية ، مما يؤدى بهما الى تغـير أساليب التنشئة الاجتماعية (٩) لاعداد الابناء أفضل اعداد للحياة الجديدة ، التى يتوقعها الآباء فى ضوء التجارب التى يعايشونها ، وتأثير هذا التغير يلاحظ فى أوضح صورة فى الجيل الثالث ، جيل الاحفـاد ، اذ نلاحظ أن قيم ودوافع وسمات هذا الجيـل تختلف فى المجتمع المتغير عن نظائرها عند جيل الاجداد ، فالآباء ينقلون عادة تأثيرات التغير الى شخصيات الابناء ، والتى تكون عادة خليطا من العناصر البنائية الجديدة والقديمة المكونة للشخصية وبقدر ما يؤثر التغير على أساليب تربية الابناء تظهر أنماط جديدة للشخصية عند الابناء تكون أكثر وضوحا ٠

فعملية تغير الشخصية الاجتماعية عملية جدلية ٠ يتصارع فيهـا المـاضى مع الحاضر ، ويكونان مركبا جديدا توافقيا ، سرعان ما يتخذ هذا المركب صورة الماضى ويتصارع مع حاضر جديد ليؤلفا مركبا جديدا يوفق بينهما عند جيل الاحفاد ٠ يختلف عن بناء شخصية جيل الاجداد ،

---

(9) Inkles : Social change and social character. in Clyde Kluckhoon (ed) Personality in Nature, Society and culture edited B Clyde Kluckhoom and Henry Murry 2th edition N.Y. Alfred knone. 1956. p. 358.

ويحدث ذلك بصورة واضحة فى المجتمعات التى تمر بتحولات اجتماعية واقتصادية سريعة ٠

وكما أن سرعة تغير الشخصية تختلف من شريحة اجتماعية لاخرى ، ومن مجتمع لآخر فان القابلية للتغير تختلف باختلاف النوع ، ذكر كان أم أنثى ٠ فالتغير عند الرجال أسرع ظهورا منه عند النساء ٠ وقد بين فروم أن الشخصية الاجتماعية عند المرأة المكسيكية أكثر جمودا وأقل تقبلا للجديد ٠ ولكن الرجال يقبلون الجديد ورغم أن الرجال تقليديون عادة فهم يميلون الى مسايرة الجديد وتقبله واحترامه أما النساء فأكثر خضوعا للتقاليد من الرجال ، وان كان لديهن فى الوقت نفسه ميول نحو التمرد ورغبة فى تعويض ما شعرن به من حرمان فى المزايا الاجتماعية ٠ ولقد بين عماد سلطان أن الاناث فى مجتمعنا أكثر تحررا من الذكور فى المرحلة الجامعية وأن طلاب الجامعة أكثر تحررا من الآباء والامهات (١٠) ٠

ونخلص من ذلك أن الشخصية الاجتماعية متغيرة بتغير البناء الاجتماعى أو تغير مكانة الطبقة فى المجتمع ، ورغم ذلك فاننا نؤكد أن هناك سمات مشتركة تجمع بين كل الجماعات وكل الطبقات ٠ تلك السمات والقيم المشتركة هى التى تكون الشخصية القومية ٠ ولذا تتطلب دراسة الشخصية القومية منا البدء بدراسة أصغر الجماعات فى الدولة ، وتحليل آراء واتجاهات وقيم الجماعات المهنية ثم نرتقى منها الى دراسة المجتمع كله ، أما البدء بدراسة الشخصية القومية على مستوى الدولة ، فهذا هو الامر الصعب ٠

ولكن من هم أكثر فئات المجتمع تعبيرا عن الشخصية الاجتماعية المتغيرة ٠ يرى فروم أن القادة (١١) هم أكثر الاشخاص تعبيرا عن هذه

---

(١٠) عماد الدين سلطان : الصراع القيمى بين الآباء والابناء وعلاقته بتوافق الابناء النفسى ٠ القاهرة ٠ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ١٩٧٣ ص ٥٠ ٠

(11) Fromm : Social character in a Mexican village. op cit. p. 1.

الشخصية ، فهم وان كانوا لا يتكيفون ولا يعكسون الشخصية السائدة المعبرة عن المجتمع كله • فهـم على الاقل يعبرون عن شخصية الطبقـة الحاكمة المسيطرة •

وثمة عوامل أخرى تؤثر فى تغيير الشخصية القومية ، وقـد بين انكلز (١٢) أن أهم هذه العوامل هو التعليم بمعناه الواسع • اذ لا يقصد بالتعليم مجرد تعليم مبادىء القراءة والكتابة • وتلقين دروس الجغرافيا أو الحساب أو الحصول على شهادة دراسية ، بل يقصد به تعلم مجموعة من الاتجاهات والقيم التى تحدد علاقات الانسان واتجاهاته نحو الناس والطبيعة والوقت والقدر والسياسة والمـرأة والخالق • فالمدرسة حقل تجارب ومجال تعليم هام لبث قيم المجتمع • ويلعب التعليم النظامى وغير النظامى الدور الاول فى التكوين العقلى للانسان والتأثـير على اتجاهاته وقيمه وسلوكه • ويكاد يساويه فى أهمية التجارب المهنيـة فى المنشآت الصناعية الضخمة التى تلعب دورا هاما فى تلقـين الخبرة للانسان • وتشكل من جديد اتجاهاته وقيمه وسلوكه • ومن العوامل الاخرى التى تلعب دورا ثانويا فى تشكيل اتجاهات الفـرد وسلوكه :

١ ـ الانفتاح على تجارب جديدة •

٢ ـ التعرض لتأثير الهجرة الداخلية من القرية الى المدينة أو الهجرة الخارجيـة وانتشـار الخصائـص الحضرية وضمـور الخصائـص القـروية •

٣ ـ تأثـيرات المؤسسات الجماهـيرية الحديثـة من اذاعـة وصحافـة وتليفزيون وسينما •

= راجع بالتفصيل ما كتب عن الصلة بين الصفوة والشخصية فى الفصل الرابع من هذا الكتاب •

(12) Inkles Alex : Making Modern men. On the causes and consequences of individual change in six Developing Countries. Reprinted From A. J. of sociology vol 15 No. 2, 1926.

ونتيجة لهذه العوامل مجتمعة نرى أن بعض الاشخاص فى الدول النامية الذين نالوا قدرا عاليا من التعليم العصرى ، ويطلعون على روافد الفكر المتعددة أو يتأثرون بأدوات الاتصال الحديثة ، هم أكثر من غيرهم تقبلا لنتائج التجارب الجديدة فهم ينزعون الى التوحد بالقيم التى تؤكد الاستقلال فى المواقف ، وهم أكثر من غيرهم تمردا على القيم التى تؤكد التبعية وتقديس السلطة ، ابتداء من سلطة الوالدين حتى سلطة الحكام، كذلك فالمتعلمون أكثر من غيرهم ثورة على التقاليد المتوارثة ، وقد يحاول المتعلم أن يلعب دورا فعالا فى النشاط الاقتصادى والسياسى والمهنى للدولة ، كما أنه أكثر ايمانا وتقبلا للقيم العلمية التى ترفض التواكلية والسلبية • وهذا الشخص المتغير فى المجتمع النامى طموح يؤمن بالمستقبل ويفكر فى غده سواء لنفسه أو لاولاده • وهم أسرع تقبلا للجديد من الامى ، ولكن ليس كل المتعلمين مجددين متمردين فى المجتمات النامية ، فبعضهم أكثر توحدا بقيم الماضى وأكثر ارتباطا بالاسلاف وايمانا بالتراث •

يحاول انكلز فى تأكيده أهمية التعليم والنسق المهنى فى تغيير الشخصية التقليدية ، أن يقلل من أثر نظام الملكية فى تكوين بناء الشخصية أو اعادة تشكيلها ، وكون الاقتصاد منبعا هاما يؤثر على اتجاهات الناس وسلوكهم ويدعى انكلز أن عدم توفر الدقة العلمية لادوات القياس التى تحدد أهمية العامل الاقتصادى هو السبب الذى أدى به الى التقليل من شأن العامل الاقتصادى واعلاء شأن التعليم فى التأثير على نمط الشخصية القومية السائدة وتغيرها (١٣) •

وسواء تغيرت الابنية الاجتماعية بفعل الاقتصاد أو التعليم ، فان الابنية الاجتماعية الجديدة بدورها تعيد تشكيل الشخصيات التى تعيش فى ظل النظام الاجتماعى الجديد بما يتطلبه من حاجات وقيم •

---

(13) Ibid :

والان بعد أن عرضنا لآراء السلوكيين فى قضية تغيير الشخصية القومية نعرض لخصائص الشخصية المصرية فى مرحلة الاستقرار قبل مواجهة عوامل التغيير الوافدة والداخلية ثم نعرض لخصائص واتجاهات وأفعال هذه الشخصية المصرية فى مرحلة التغيير بعد أن أثرت فيها عوامل محلية وعالميـة ٠

خصائص وأفعال الشخصية المصرية فى المرحلة التقليدية :

لقد نتج عن محاولات تغيير اقتصاد البلاد من اقتصاد زراعى تسيطر عليه طبقة كبار الملاك الى اقتصاد يقوم على الزراعة والتجارة والصناعات الطفاية والمتوسطة والجهود التى بذلت للاهتمام بالتعليم ابتداء من فتح المدارس الاولية والابتدائية والثانوية للبنين والبنات ، وانشاء الجامعة فى القاهرة ثم الاسكندرية ، ورفع شعار التعليم كالمـاء والهواء والايمان بتحرير المـراة وفتـح فرص العمـل لهـا ، والسعى تقديم الخدمـات الاجتماعية التى تسهم فى التحول من القروية الى الحضرية وما تبع ذلك من تدفق الهجـرة من الريف الى المدينة ، وتوحد وتقبل الجماهير للآراء والافكار التى ينادى بها الصفوة بأشكالها المختلفة نتج عن ذلك كله تغير لاحق فى المكونات الاساسية للشخصية المصرية ٠

ولكى نفهم طبيعة هذه التغيرات التى طرأت على مكونات الشخصية فى مصر علينا أن نعرض لبعض الخصائص الاجتماعية والملامح والسمات الاساسية التى كانت تميز المصريين ٠

كان للاسرة مكانة عظيمة عند المصريين ،وكان حب الاسرة خاصية أساسية عندهـم ، فقد عرف عن المصريين واشـتهر عنهـم حب الاسرة والاستقرار وارتباط أعضائها وتأثير الاسرة القوى على سلوك أفرادها واتجاهاتهم ٠ وكان « للاسرة شأن عظيم » (١٤) عند أفرادها ، ولا يجوز

(١٤) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ٠ المرجع السابق ، ص ٢٠ ، ـ ٢١ ٠

يتجرد المصرى من عواطف الارحام بين أبيه وأمه وبنيه وأقاربه ولا ينسى علاقات الرحم وآداب الاسرة ، ولا يتمرد أبدا على العلاقات الاسرية · وكان يربط بين أعضائها وحدة العمل واحترام التقاليد وتجانس الافكار والعادات والقيم · وكان معظم أعضائها يعيشون فى قيود التقاليد والامية ، وينتشر بينهم الكثير من مظاهر التفكير الخرافى ·

والعائلة المصرية عائلة أبوية ، وكان من العار أن يستقل الابن عند زواجه عن بيت أبيه ويقيم بعيدا عن والديه (١٥) فى مسكن مستقل · ويصف الكردانى تلك الحالة فى مذكراته فيقول « كنا فى أول الامر نسكن مع جدى لوالدى فى منزل كبير يشغل كل فرع فيه من الاسر الساكنين فيه جزءا صغيرا (١٦) ·

وعاشت الاسرة حياة جماعية ، وكان سمة الطابع المهنى فى هذه العائلات أن يتوارث الابناء مهن الآباء عن الاجداد · وكان من النادر فى مثل هذا المجتمع الذى تغلب فيه القيم الجمعية أن يعمل الابن فى مهنة أو حرفة تختلف عن حرفة العائلة · وهو يلقن منذ الصغر على وراثة مهنة العائلة ، وحفظ أسرارها واتقانها · وكانت الزراعة أهم أعمال المصريين ، يمارسها أغلب السكان يليها فى الانتشار ــ ولكن بنسبة أقل كثيرا ــ الحرف اليدوية ·

وندر فى مثل هذا المجتمع الحراك الاجتماعى لافراده ، وانطبع المجتمع بطابع الجمود لتقارب أفراده مهنيا وماليا وتعليميا · وقوى التماسك بين أعضائه وتماثلت قيم وأفكار الناس · وان تباينت المكانة الاجتماعية والاقتصادية لكل عضو فى الاسرة وكل حسب سنه وجنسه ·

---

(١٥) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، جزء أول ، القاهرة · مطبعة مصر ١٩٢٤ ، ص ٥٠ ·

(١٦) أحمد عبد السلام الكردانى : حقبة من الزمان كتاب الهلال ، العدد ٣٥٩ دار الهلال ، القاهرة ١٩٨٠ ·

وكان رب العائلة هو الحاكم بأمـره وصاحب السلطة المطلقه على أعضاء أسرته يتصرف فى أمورهم وشئونهم حسب رغبته ومشيئته ٠ ويدير اقتصاديات الاسرة حسبما شاءوأراد٠ ولا يستطيع أحدأن يتدخل فى صنع القرار معـه ، وكانت سلطة كبير العائلة مطلقة ، وكل هؤلاء مطالبون باظهار الاحترام لـه والطاعـة لاوامـره ، واحاطتـه بألـوان الرعايـة والعناية (١٧) والاحترام ٠ ولا تتدخل الام عـادة فى سـلطة الاب على أبنائه ٠ ولذا كانت أكثر تقبلا من الابناء ونالت من الحب والعطف أكثر مما نال الاب ٠ وهم لا يرهبونها ولا يخشون بأسـها كما يخشون الاب ، وكان يطالب من الصغير احترام الكبير والخضوع لاوامره والطاعة له ، ويصف السحار هذه الصورة فى كتابه حياتـى « كان بيتنـا محكوما بالسلطة الابوية فالاب وحده مالك زمام الامور لا تخرج الام الا باذنه ولا يغيب الاولاد عن البيت بعد الغروب خوفا من ضربه ٠ ومالية الاسرة فى يديه ٠٠٠٠ ورغم أن الام كان تلقى عليه اللكمات والصفعات واللطمات ، فلم يكن هذا يعنى كراهية بل اخفاء حب جارف » (١٨) ، ومثلما صور السحار علاقته بأبيه صور أحمد أمـين علاقتـه بأولاده ، اذ كتب يقول « كنت شديد المراقبة على أولادى ، أعاتبهم على انحرافهم » (١٩) ويحرك الكبار الصغار كما يحركون الدمى أو قطع الشطرنج ، وكانت الخصائص التى تميز العلاقات الوالدية بالابناء هى التسلط والقهـر والاستبدادية ٠ فكان الابن والابنة يفنيان فى شخصية العائلة ، وتفنى ذاته فيها ، ويعتمد على أسرته اعتمادا كليا ، ويخضع الابن لابويه ويحترمهما فى الوقت

---

(١٧) لين ادوارد : المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم ٠ ترجمة عدلى طاهر نور ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار نشر الجامعات المصرية ١٩٧٥ ، ص ٥١ ٠

(١٨) عبد الحميد جوده السحار : هذه حياتى ٠ القاهرة مكتبة مصر ١٩٧٤ ، ١٩ ، ٥٥ ٠

(١٩) أحمد أمين : حياتى ، الطبعة الثالثة ٠ القاهرة ٠ النهضة المصرية ١٩٥٩ ، ص ١٩٦ ٠

نفسه • ونظر الابن لابيه كمثل أعلى ، واعتبرت الابنة أمها قدوة ولذا شاع فى الامثال « اقلب القدرة على فمها تطلع البنت لامها » ، ولذا ساد بين المصريين الاعتقاد بضرورة اقتداء الابناء بسلوك الوالدين والايمان بأفكارهما ولكى ينالوا رضاهما •

وكانت الامهات الموسرات يظهرن فى تربية أولادهن تسامحا زائدا وشفقة مطلقة ، ويندر أن يتشددن فى تربية أطفالهن ، أما الفقيرات فلا يبذلن نحو الاولاد الا أقل العناية ، وكان الاولاد يبدون لابويهم احتراما كبيرا • ويعود الطفل منذ نعومة أظافره على تقبيل يد والده فى الصباح وأن يقف أمامه باحترام وخشوع حتى يأذن له بالانصراف ، وكما يعود الطفل على احترام أبيه ، يعود على احترام أمه وأفراد عائلته كل حسب عمره ودرجة قرابته • فهو ينشأ على الطاعة والولاء لمن هم أكبر سنا ويزداد هذا الاحترام وتكثف هذه الطاعة اذا كان الامر يتعلق بالاب • فيحرم على الابن الجلوس فى حضرة أبيه الا بعد أن يأذن له ، ويمنع من الكلام فى حضرته الا جوابا على السؤال •

وقلما يبذل الابوان كثيرا من وقتهما أو اهتمامهما فى تربية الطفل تربية عقلية ، قانعين وراضين بما يثبت فى ذهن الصغير من مبادىء دينية يشوبها الكثير من الخرافات أما الموسرون فيعهدون بأولادهم الى الفقيه يحفظهم القرآن •

وكانت الزوجة فى ظل هذا المناخ خاضعة لزوجها ، بل كانت تحرم من تناول الطعام مع رب العائلة • وكان عليها أن تقوم على خدمته أثناء تناوله الطعام وكثيرا ما كان عمل الزوجة أشبه بعمل الخادمة النظيفة (٢٠) ، وكان الزوج منعزلا عنها ، وشاع عن الازواج القسوة فى معاملة الزوجات ، ولقد عاشت المرأة زوجة وابنة فى هذا المناخ لا تأتمر

(٢٠) لين : المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ •

الا بأمر الرجل ، الذى حرمها من التعليم ومنعت نساء الطبقة الوسطى والطبقة الموسرة من العمل خارج البيت ، وحرمت من كل نشاط اقتصادى وأصبح الرجل ولى نعمة نساء الاسرة ، يوفر لهن المال اللازم لنفقات المعيشة · وانحصر عالم نساء الطبقة الوسطى والطبقة العليا داخل البيت ، ووصف عبد الحميد جوده السحار حالة المرأة حينئذ « فى الحقيقة ما كان يسمح لفتاة من أسرتنا أن تخرج وحدها لاى سبب من الاسباب » (٢١) وصار دورها فى البيت أشبه بدور الشغالة فى خلية النحل والتى استبدل فيها الرجل بالملكة تشقى طول اليوم لخدمة أفراد أسرتها ترضى الزوج ليلا وتسعى الى تسليته واسعاده وتمتعه بجسدها اذا ما جمعهما فراش واحد · ولما كانت المرأة متعة الرجل فضل الزواج فى سن مبكر ، وقلما بقيت الفتاة دون زواج بعد السادسة عشر · وكان الرجل يؤخر زواجه بارادته الا أن هذا التصرف كان مرفوضا ويعد مخالفا للآداب ومضيا للسمعة (٢٢) ·

وكانت المرأة تعامل من الرجل معاملة قاسية ، وكان الشاب المقبل على الزواج يشارك الفتاة افتقاد ارادة اختيار الشريك الآخر ، اذ كان الزواج مسألة تخص العائلتين وحدهما · وكان لرجل يقبل الزواج بمن ترشحها له وتختارها أسرته معتمدا على السماع وحده دون أن يراها ، وهو لا يشاهدها ولا يجالسها الا ليلة الزفاف · وكانت الفتاة أسوأ حالا من الرجل اذا جرى العرف ألا تستشر فتاة فى أمر زواجها ، وكانت بعض العائلات تفاجىء ابنها باختيار عروس له ، وكتب أحمد شفيق مذكراته أن أمه خطبت له فاندهش « فأخبرت أمى برغبتى فى رؤية الخطيبة · فقالت أن ذلك لا يتأتى مع عائلة شريفة · اذ لم يكن مألوفا ذلك فرجونها أن أرى على الاقل صورتها · وعندما طلبت الام ذلكلم يتم الزواج لاستياء

---

(٢١) عبد الحميد جوده السحار : هذه حياتى ، المرجع السابق ، ص ٣٨٣ ·

(٢٢) لين : المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم ، المرجع السابق ص ١٠٤ ·

أسرة الفتاة من ذلك » (٢٣) ٠

وكان لرب العائلة عدد كبير من الابنـاء ، اذ اشتهرت الام المصرية بأنها ولود ٠ وأن درجة خصوبتها عالية ، فقد تلد كل ٩ شهور ، وكان المألوف والشائع أن تلد المرأة كل عامين أو ثلاثة أعوام وأن ترزق ٨ أولاد أو عشرة أولاد فى المتوسط لزواجها المبكر بعد بلوغها مباشرة ٠ ولقد شجع رخص تكاليف المعيشة وانخفاض تكاليف تربية الابناء وسـيادة القيم التى تعتبر الابن معينا اقتصاديا لاسرته على انجاب عدد كبير من الذرية ٠ ووصف أحمد أمين هذا الوضع فقال « أن أفقر الطبقات أكثرها عددا ، تلد المرأة عددا كبيرا من الاولاد ولكنها لا تعتنى بهم » (٢٤) اذ كانت أمور الانجاب تترك على طبيعتها ، وكانت الاسرة عـادة تتباهى بكثـرة الذرية وخاصة الذكور وتعتبر ذلك نعمة من الله تتمشى مع ارادته وكانت المرأة الولود تحظى بحب الزوج ورعايته واحترام أفراد أسرتها وتقديرهم، وخاصة النساء من أفراد أسرتها ٠ وكان انجاب الاطفال مطلبا اجتماعيا اقتصاديا فى الوقت نفسه ، يدل على رجولة الرجل وأنوثة الانثى وكانوا يعتبرون العقم لعنة وعارا والاطفال نعمة عظيمة يتمناها الجميع فهم خير مساعد للاسرة على مواجهة تقلبات الايام وعلى تصريفها لشئونها ٠

وكان من الشائع أن ترى الاطفـال يحملون الاحجبـة وقايـة من الحسد ٠ وكان المصريون يخشون الحسد ويتقونه بوسـائل عديـدة ويرهبون نتائجه ٠ وكان المصريون يعتقدون فى التمائم والاحجبة التى تستند على السحر٠ واشتهر عن بعض الافراد عمل أحجبة لشفاء المرضى أو لقضاء حاجة أو لترغيب الزوج أو لانجاب ولد وأصبحت الاحجبة جزءا من حياة الناس (٢٥) وشاع بين المصريين الايمان بالسحر لمعالجة المرضى

---

(٢٣) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، المرجع السابق ٠
(٢٤) أحمد أمين : حياتى المرجع السابق ٠
(٢٥) لـين : المصريون المحدثون عاداتهـم وشـمائلهم ، المرجع السابق ص ٢١٧ ٠

وطلب الشفاء، كما يقصدون الاضرحة لنفس الغرض وكانوا يقيمون حلقات الزار بقصد الشفاء ولذا شاع عنهم أنهم يؤمنون بالخرافات ويسيطر عليهم التفكير الخرافى وكان البعض يعتقد أن الجن يزورون الناس ليلا (٢٦) فى صور متعددة وكانوا يزعمون أن لهم أفعالا كثيرا ما تهلك وتدمر • ولقد أرجع قاسم أمين ايمان المصريين بالخرافات الى تفشى الجهل بين المصريين عامة والمرأة خاصة • فالمرأة كانت تؤمن بالخرافات وأعمال السحر والتنجيم وزيارة الاضرحة كوسائل للشفاء من الامراض أو علاج العقم أو تمنى زواج الابنة أو الخوف من فقد حب الزوج أو طلب لقضاء حاجة • وكانت النسوة ينفقن الكثير من دخولهن فى ايقاد الشموع على قبور الاولياء وذبح الذبائح والوفاء بوضع النذور اذا ما لبيت مقاصدهن •

وكانوا لا يؤمنون بالعلم والطب فى علاج المرضى وكان اسم الطبيب يقع منهم موقع الصاعقة • وقد صور سيد قطب فى « طفل من القرية » تلك الحالة فكتب يقول « وقع اسم الطبيب على تلاميذ المدرسة يوم نودى عليهم لاجراء مسح طبى • فعدهم بالحكيم ألا يزور القرية الا فى يوم أغبر • انهم لا يعرفون لماذا يطلبهم مطلقا ، ولكنهم واثقون فى قرارة نفوسهم أنه لن يكون خيرا وأنهم لن يخرجوا من الدوار اذا خرجوا وهم سالمون مثلما دخلوا بحال من الحال » (٢٧) •

هذا الايمان بالخرافات والشك فى جدوى الطبيب عكسه رشاد رشدى فى مقالاته عن « الشخصية المصرية والجذور » فوصف ما حل به عندما مرض ورقد الفراش « دخلت أمى حجرتى ، وأغلقت الباب خلفها ، وكانت بيدها عروس من الورق تحملها فى طبق ، فاقتربت من فراشى وأخذت تتمتم ببعض كلمات ، وهى تفقأ عين العروس بدبوس المرة

---

(٢٦) أحمد أمين : حياتى ، المرجع السابق •

(٢٧) سيد قطب : طفل من القرية • القاهرة • دار الشروق ١٩٧٣ ص ٥٤ •

بعد المرة ، ثم اشتعلت النار فيها ،وأخذت رمادها بين أناملها وراحت تلطخ به جبينى وما بين عينى ، وهى مـا زالت تتمتم بالكلام وقالت أن عينى عدو لابـد هـى السبب وراء فيمـا أصابنى وأنهـا أهلكت ذلك العدو (٢٨) ٠ تلك الصورة التى صورها رشاد رشدى تبين مدى الايمان بالعين الشريرة فى الاصابة بالمرض والقـوى العليا فـى الشفاء عنـد الجدات ٠ هذا التفكير الخرافى فى العلاج وصفه السحار عندما مرضت أخته أحسن وصف « فلم تعترض الام على علاج الابنة العزيزة بالبخور والتعاويذ ولكن غلب المرض كل شيء ٠٠٠٠ راحت الاسرة تسفك الدمع على الابنة التى ماتت بالدفتيريا وعولجت بالبخور (٢٩) ٠

ولقد شاع عن المصريين أنهم أتقياء الى حد الحماسة ، يؤمنون بقضاء اللـه المطلق فى الخير والشر ٠ ولقد أدى بهم تدينهم الى الايمان الكامل بالقدرية والقدر وانتظار الغيب وقلة استعجال اقادير (٣٠) حتى بدوا وكأنهم سلبيون مستسلمون ٠ هذا الايمان بالقدر جعل من المصريين شعبا صبورا طويل البـال (٣١) ، يظهـر هـذا الصبر أكثر ما يظهر فـى أوقات المحن والابتـلاء ، فهم يظهرون استسلاما وتجلدا عجيبين يكادان يقربان من البلادة ، « قد نقبل ما يأتى به الغيب فان جاء بما نكرهه فلا نجزع ، بل نصبر وننتظر فى أمل » (٣٢) ٠

وهذا الايمان بالقدر ، وضح فى أحسن صورة فى تأكيد المصريين التمسك بممارسة الشعائر الدينية ، فالشخصية السوية هى التى تصلى فى مواقيتها راضية بعيشها ،وتحمد اللـه على ما آتاها ٠ وكان المصرى

---

(٢٨) رشاد رشدى : البحث فى الزمان ٠ الشخصية المصرية والجذور ٠
(٢٩) عبد الحميد جودة السحار : هذه حياتى ، المرجع السابق ، ص ٩٢ ٠
(٣٠) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٢٩ ٠
(٣١) عباس محمود العقاد : نفس المرجع ، ص ٢٩ ٠
(٣٢) عبد الحميد جوده السحار : هذه حياتى ، المرجع السابق ص ٢٦٤ ٠

يعتقد بأن الله يراقبه فى تصرفاته ، ويستسلم لارادة الله (٣٣) فارادة الله هى القادرة على كل شىء ، هى التى تهب وتعطى وتمنح بلا حدود . وقد صور يحيى حقى حال موظف قـدرى تطحنـه الظروف التى حوله « فكرت فى المصير وأصبحت رب أسرة ، لا ينهض به ذاك المرتب الصغير وانقطع أملى الا من معجزة من معجزات تنقذنى » ، ولم يترك يحيى حقى تلك العبـارة تمـــر دون أن ينبـــه القـارىء الى دلالتهـا ومغزاهـا ومضمونها (٣٤) ، فهى عنده تعنى الاستسلام الكامل والايمـان المطلق بقضاء الله فى الخير والشر ، فهو الرازق وهو الوهاب . والحقيقة أن الرزق ما كان يؤرق فكر المصريين ولا يشغل بالهم ، هذا النمط من التفكير صوره السحار فى مذكراته (هذه حياتى) فكتب « ما كان الرزق يشغل تفكير أبى ، فهو يؤمن ايمانا راسخا بأن الرزق فى السماء وأن القـدر مكتوب (٢٥) . وهذا السلوك القدرى وهذا الايمان المطلق كان محصلة عملية التنشئة الاجتماعية فى طـور الطفولة . اذ كان الاطفال ينشئون على الايمان بأن مفاتيح الغيب لا يعلمهـا الا اللـه ، يتعلمون ذلك مـن تصرفات من حولهم وخاصة الآباء والامهات ، وكانوا يفتقدون بذلك النظرة المستقبلية ويستسلمون لواقعهم راضين قانعين ، هذا الاستسلام والرضا بالمكتوب ، امتد الى كل أمور الدنيا وقد كتب يحيى حقـى واصفا تلك الحالة « الفلاح يستسلم للقدر ... حتى أن دودة القطن فى نظرهم هى عقاب لهم على فساد أخلاقهم » (٣٦) .

وشاع عن المصرى أنه كان يخشى التحرك من مسقط رأسه ، وموطن أسرته ، وكان يصعب على الفتاة أن تتزوج بمن لا يقيم ببلدتها ، وعرف

---

(٣٣) عبد الحميد جوده السحار : نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

(٣٤) يحيى حقى . ناس فى الظـل . كتاب الجمهورية ، العـدد الثامن والعشرون . يوليه ١٩٧١ ص ٧٠ .

(٣٥) عبد الحميد جوده السحار : نفس المرجع ، ص ٣٦٣ .

(٣٦) يحيى حقى : فجر القصة المصرية . القاهـرة ـ الهيئـة العامـة للكتاب ١٩٧٥ ص ١١٠ .

عن المصرى أنه يألف أرضه ويسكن الى تربة وطنه ولا يخف الى هجرتها (٣٧) كما يخف الى الهجرة سكان البلاد التى لا صلة فيها بين المرء وبين تربة وطنه « وكانوا يشعرون بالخوف الشديد من سفرهم والبعد عن أهلهم ولو الى مسافات قصيرة (٣٨) • فهم يحبون الارض التى نشأوا فيها ، ويلتصقون بها ، ويكرهون السفر الى بلدان أخرى • فقلما يهجر الابن محل الميلاد وسكن أسرته الى بلد آخر سعيا وراء العمل أو الكسب أو تتحرك الاسرة بأكملها الى مدينة جديدة بعيدا عن الاقارب والاهل ، حتى لو اضطرت الظروف الشخص للعمل بعيدا عن أسرته وأهله • كانت مناجاته لنفسه « بلدى يا بلدى أنا بدى أروح بلدى » ، وهذا التصرف يعبر عن قوة التماسك العائلى • وشدة الارتباط بمكان اقامة الاهل والاقارب • ويرى جمال حمدان أن مصر لم تصدر أبدا الرجال خارج حدودها وان صدرت أعمالهم (٣٩) فمصر لم تكن أبدا منطقة طرد تطرد الرجال الى الخارج وان كانت تتميز بالهجرة داخل حدودها • وكانت حالات الهجرة خارج الحدود الى الشام وبرقة مؤقتة بفعل عوامل وقتية فى أوقات الازمات • وتسود هذه العوامل اما فى أوقات الفيضان أو اضطهاد الاقطاع • واما فى الاوقات العادية فقد قبع المصريون فى دارهم ، ولم ينتشروا الى الخارج ، فالزحف الى خارج الوطن والاقامة خارج الحدود كان ضعيفا ، نادر الحدوث • فالمصرى كان مخلوقا نهريا يعشق النهر ويرتبط به ، ومهما شقى فى الوادى يشق عليه أن يهجره ووصف المصرى بأنه نبات نهرى ضاربا جذوره بعمق فى طينة الوادى • وهذا التمسك بالارض وهو ظاهرة قديمة (بدأت تندثر) محصلة تفاعل عوامل طبيعية وعوامل اجتماعية فمصر كانت بيئة غنية فى ذاتها بل شديدة الثراء اذا ما قورنت بالبلدان المجاورة ، فلم يهجرها أولادها • كما ساعدت الصحراء الشرقية والغربية والشاطىء الساحلى على عدم

---

(٣٧) عباس العقاد : سعد زغلول • المرجع السابق ، ص ٢٨ •

(٣٨) أحمد أمين : حياتى • المرجع السابق ، ص ٣٩ •

(٣٩) جمال حمدان • شخصية مصر ، المرجع السابق ، ٣٣٤ •

تشجيع الهجـرة ، واستقرار المواطنين وتمسكهم بمصيرهم ، وان كانت هناك اتجاهات هجرة داخلية من المناطق الريفيـة الفقـيرة الى المناطق الغنيـة (٤٠) والمدن خاصة ٠

وكما اشتهر المصريون بأنهم « بيتيون» (٤١)، يميلون الى الاستقرار ويسعون الى التمسك بالارض ، عرف عنهم التماسـك والتسامح وقد أوضح قليني فهى هاتين السمتين عند المصريين فى موقف الملك فؤاد من محاولة الوقيعة بين المصريين فى عبارة له « بأننى غير راض عن التفرقة بين المسلمين والمسيحيين ، ولا يمكن قبول هذا الامر حفظا على وحـدة الامـة » (٤٢) ٠

وكان اعتماد المصريين على الزراعة فى معاشهم ، وتأثير الطبيعة على معاملاتهم وعلاقاتهم ، سببا فى عدم توظيفهم الزمان لتحقيق أغراضهم ومطالبهم وعدم اعتمادهم على ضبط الوقت فى معاملاتهم وانجاز أعمالهم ولذا أشيع عنهم عدم احترام الوقت ٠ وعدم انجاز المطلوب منهـم فى الوقت المحدد المتفق عليه ٠

كذلك أثرت البيئة الزراعية على مفهوم الملكية عندهـم وطريقـة استثمارهم لاموالهم ، فلم يعرفوا كيفية استثمار واستغلال ثرواتهـم ومدخراتهم الا فى شراء الارض والعقـار أو اكتنـاز الذهب أو اخفـاء مدخراتهم فى المنازل ٠

وانصرف أغلب أفراد الشعب عن التعليم النظامى ، وسعت قلة الى تحفيظ أولادها القرآن والاحاديث النبوية ، أو تعليمهم مبادىء القراءة

---

(٤٠) جمال حمدان : شخصية مصر ، المرجع السابق ، ٣٣٤ ٠

(٤١) عباس العقاد : سعد زغلول ٠ المرجع السابق ٠

(٤٢) قلينى فهمى : مذكرات قلينى فهمى عن بعض حوادث الماضى مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٣١ ص ٣٣ ٠

والكتابة ، وكان ينظر الى المدرس بالمدرسة النظامية على أنه من رسل الكفر والضلال أما المدرسة فكانت مدرسة الكفر والضلال التى تسرق الحكومة دينهم فيها وهم لا يشعرون (٤٣) • أما البنت فحرم عليها تعلم القراءة والكتابة حتى لا تستطيع أن تستخدمها طوع نزعات الشباب • وكان تعليم الابنــة قاصرا على الاشغال اليدوية وشئون المنــزل ، وحتى اذا ذهبت الى المدرسة عندما تقبلت الناس فكرة التعليم فانها لا تستمر فى الدراسة الا لفتــرة ، مثلما كان يحدث فى الريف ، وصور ذلك سيد قطب قائلا « قبل بعض الآباء أن يرسلوا بناتهم الى المدرسة ، لا سيما وهن صغيرات لا يتجاوزن العاشرة ، وكان عددهن فى المدرســة كلها سبع بنــات (٤٤) تتسرب الواحدة من المدرسة تلو الاخرى •

الشخصية المتغــيرة :

تتغير الشخصية القومية ، ما دامت القيم وأفعال الناس ودوافعها تتغير •• وهذا التغير ثمرة تغير التاريخ خــلال الزمــان • والشخصية الانسانية ليست جامدة بل فى صيرورة • ولكن معدل التغير فى مكونات الشخصية قد يكون بطيئا وقــد يكون سريعا • كما أن العناصر المكونــة للشخصية القومية لا تتغير بمعدل واحد • فبعضها يتغير استجابة لاسباب التغير الخارجية ، وبعضها يكمن ، وبعضها يستحدث ، فتغير الشخصية الانسانية حقيقة قائمة ما دامت الثقافة تتغير ، والبناء الاجتماعى يتغير •

ولقد طرأت تغيرات كثــيرة على الشخصية المصرية بتأثــير عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية وتعليمية أثرت فى البناء الاجتماعى كله ، ونتيجة الاحتكاك الثقافى بأوربا ، والدعوة الى التغريب فى مصر، وانتشار مظاهر الحضارة الغربية فى مصر واستخدامها فى أنشطة الحياة اليومية ، يضاف الى ذلك كله التعرض لازمة الحروب العالمية الثانية ومواصلة الحروب مع اسرائيل •

---

(٤٣) سيد قطب : طفل فى القرية • المرجع السابق ، ص ٣٢ ، ٣٥ •
(٤٤) نفس المرجع :

ونماذج التغير فى الشخصية القومية المصريـة التى نعرض لهـا مستوحاة من أعمال الادباء والمفكرين ، فالكاتب يمتص عـادة عـادات مجتمعة وينفعل بها ويعبر عنها بكل عمق وبسهولة ، كمـا أن دراسـة الخصائص القومية عند الشعب تعد ناقصة ما لم يدعمها دراسة لعقلية الشعب ، كما تظهر فى الاساطير والامثال والادب الشعبى والنكت (٤٥) هذه الرؤية التى نتبناها والتى تؤكد أن الادب الجيد يعكس انفعالات الجماهير ونماذج تفكيرهم وخصائصهم القومية ، أكدها « سمير نعيم » عندما أشار الى أن الانتاج الادبى الذى يروج وينتشر انتشارا واسعا لا يعكس شخصيات مؤلفيه ، ولكنـه يعكس أيضـا شيئا عن الشخصيات المتوالية للجماعة التى ينتشر فيها (٤٦) هذا العمل الادبى ٠

وقد حاولت التقاط بعض الصور والنماذج التى تعطينا وتصور لنا الطابع الاجتماعى للشخصية المصرية ٠ ولقد كانت هذه التغـيرات فى البداية بطيئة وتدريجية ثم أصبحت سريعة ومتلاحقة ٠ وقد صور أحمد أمين حالة التغير فى بدايته فكتب يقول « لو بعث جدى من قبره ورأى ما كان عليه أهل زمنه وما نحن فيه لجن جنونه » (٤٧) ٠

والهدف من عرض هذه الخصائص والسمات التى تميز الشخصية المتغيرة هو كشف الحقيقة وعرض بعض الملامح السلبية لتقويمها وابراز الملامح الايجابية لتوكيدها ٠

وهناك دلائل كثيرة تبين أن العناصر الاجتماعية المكونة للشخصية المصرية تمـر بتحولات أسـاسية أولهـا أن التأكيد القديم على المكانة المتوارثة للشخص قد تتغير تغيرا تدريجيا ٠ كما فقدت الاسرة الممتدة

(45) Ginsberg, M. : Reason and unreason in society op. cit. p. 138.

(٤٦) سمير نعيم : محاضرة فى معهـد التخطيط القومـى فى الشخصية المصرية ٠

(٤٧) أحمد أمين : حياتى ٠ المرجع السابق ٠

أهميتها ومكانتها في المجتمع الحضري ٠ كما أدى التغير من القروية الى الحضرية كطريقة حياة الى آثار واضحة على حجم الاسرة والتى أصبحت تتكون دائما من الابوين وأولادهما وأصبحت تضم ٥ر٢ شخصا فى المتوسط وتقوم على جهد الابوين وحدهما وقدرتهما على تحقيق التقارب النفسى ٠ كما أصبحت علاقات القرابة شكلية فى مظهرها ، وأعليت مكانة المرأة داخل البيت وخارجه ٠ وتغيرت الصفات التى يقوم عليها الزواج ٠ واعتبر الزواج مسألة شخصية بحتة تهم الزوجين وحدهما ٠ مما أدى الى تكوين أسر دون رضاء الاهل ، وأصبح الاهتمام واضحا بفترة الخطوبة كعملية اجتماعية تهدف الى التعارف والتقارب ٠ وتزايدت أعداد النساء اللاتى فى سن الزواج ولم يتزوجن ٠ وتزايدت أعداد الرجال الشبان الذين لم يتزوجوا والقادرين على الكسب ٠ ولم تعد العزوبية « عورة أو رذيلة » ٠ وتغيرت مراسيم الزواج ، وأصبحت المهور اسمية ٠ وتحمل الزوجان عبء تأثيث بيت الزوجية ٠

وكانت الازمات الاقتصادية المتلاحقة ٠وعجز دخول أرباب الاسر عن الوفاء بالتزامات السوق هى السبب وراء تفريغ الاسرة من القيم الجمعية ٠ مثال ذلك حالة الضابط فى قصة أهل القمة (٤٨) فهو ضابط ناجح فى عمله ومثال كامل للتفانى والاخلاص ٠ ينتصر دائما على اللصوص ولكن « الغلاء وهو « نار » يهزمه فى بيته ويثير عنده التوتر والمعاناة « ولا يجعل منه ضابطا فى بيته » فأصبح يعيش مع زوجة لا ترحب باقامة أخته الارمل وابنتها بسبب معاناة الزوجة من نقص الدخل وعدم قدرة رجلها على الوفاء بالتزامات أسرته وواجبه نحو أخته ، وضيق المسكن ٠ هذا من جهة وشعور الاخت بقسوة الحرج أكثر من قسوة الترمل ٠ ولكن الزوجة رغبة فى اكتفاء أولادها وحدهم بدخل الاب ، أصبحت ترغب فى التخلص من ابنة أخت الزوج فترغبها فى الزواج

---

(٤٨) نجيب محفوظ : الحب فوق هضبة الاهرام ، مجموعة قصص قصيرة القصة الثانية أهل القمة ٠ القاهرة ، مكتبة مصر ١٩٧٩ ، ص ٥٤ ٠

وتضغط عليها بالارتباط بمن هو قادر ! ! مهما كان ماضيه وحاضره لا بمن تحب ، فوفرة المال • وهى قيمة نامية فى المجتمع أصبحت تغشى الناس عن الجوهر الاصيل ولكن تحت ضغوط الاسرة تهرب الفتاة الراغبة فى التعليم والتى لن يتاح لها ذلك ليتمها والراغبة فى الشاب الذى لن يكون نصيبها لأياديه البيضاء _ « فليس بالحب وحده يقترن الشاب بالشابة » _ تهرب الفتاة _ لتعمل بأجر خلاصا بحريتها وطلبا لحياة معقولة ! !

ولكن رغم تغيير بعض مكونات الشخصية وظهور أنماط سلوك جديدة ، فلا زالت هناك قيم راسخة وعناصر اجتماعية ثابتة ترتبط بالعلاقات الاسرية • فالاسرة ما برحت تحتل مكانة هامة عند بعض الناس ، ولا زالت العلاقات الاجتماعية وعمليات التفاعل بين الكبير والصغير تأخذ أشكالها التقليدية عند الكثيرين • فالابناء مطالبون بطاعة والديهم والآباء مسئولون عن أولادهم ، يضحون من أجلهم • مثل الاب الذى جمع كل ما استطاع جمعه من المال وباعت الام حليها فى سبيل تعليم الابن (٤٩) • كما يتوقع من الزوجة الطاعة واحترام الزوج وعدم تدخل الاسرة فى أمور العمل (٥٠) • بيد أن هناك من شذ عن هذا السلوك وانحرف عن المعايير السائدة والمقبولة فى المجتمع • فهناك من تنكر لاسرته بعد أن تحرك اجتماعيا • وصعد السلم الاجتماعى • بيد أن مثل هذا الشخص لا يترك دون سخرية • فالقيم الاجتماعية التى تؤكد الحياة الجمعية فى بلادنا ترفضه ، فهم لا يقبلون فرديته ويسخرون منه ويعايرونه « فهو يلهو بأكل البفتيك وأبوه يأكل طعمية » (٥١) •

---

(٤٩) يحيى حقى : قنديل أم هاشم مع سيرة ذاتية للمؤلف • القاهرة • الهيئة العامة للكتاب ٧٥ •

(٥٠) زكى نجيب محمود : الاهرام _ ١٠ أكتوبر ١٩٧٥ •

(٥١) يحيى حقى : عنتر وجولييت ، القاهرة • دار العروبة • دون تاريخ•

كذلك كان من أهم وأكبر مظاهر التغير فى المكونات الاساسية للشخصية المصرية ظهور اتجاه عقلانى يؤكد أهمية الايمان بالعقل النقدى ورفض العقل المسالم الذى يفكر فى اطار أصنام الفكر الشائعة، والاقتداء بمعايير العلم ، ويحاول هذا الاتجاه تحرير العقل من قيود التقليد ، ويكفل له حرية الانطلاق (٥٢) ويحاول هذا الاتجاه أن يجد له مكانا ويقف على أرض صلبة بجانب الاتجاهات الانفعالية والسلفية التى تعارض انطلاق الفكر واعمال الذهن . وقد حرك هذا الاتجاه العقلانى البحيرة الراكدة (٥٣) التى كانت سائدة فى أوائل هذه القرن وأصبحت آراء وأفكار المجددين تجادل وتناطح آراء المحافظين .

فرغم مظاهر التقدم العلمى فى البلاد ، وازدياد استخدام الآلة ، والادوات التكنولوجية فى أنشطة الحياة اليومية سواء فى البيت أو فى أماكن العمل ، فهناك بعض مظاهر للسلوك التقليدى تميز سلوك المصريين توجد جنبا الى جنب مع أنماط التفكير العلمى ، وأشكال السلوك الجديدة ، ويتعايشان سويا . ومن أهم مظاهر هذا السلوك التقليدى الخوف من المجهول وتلك سمة من سمات المجتمع التقليدى الذى يعتمد على الطبيعة فى معاشه . ويعبر عن الاستكانة والخضوع للقوى المبهمة والتسليم الكامل بقوى عليا تحرك سلوك الناس . كذلك سادت فى هذا المجتمع القيم التى تؤكد الرضا بالواقع والقناعة . ولذا يشيع بين فئات كثيرة من الناس وخاصة فى المجتمع القروى الامثال التى تؤكد الرضا بالمقسوم « واللى يشوف بلاوى الناس تهون عليه بلوته » ، وبعد اقتدى بطل لوحة « أطماع النفس »ليحيى حقى بمثل هذه الامثال فى حياته اليومية عندما لجأ الى صديق له ينقذ من ورطته « كل مطمعى أن أبقى فى عملى أننى قانع به وقانع بمرتبى ، فهو يكفينى وعيالى . أقبل

---

(٥٢) توفيق الطويل : دور العقل . مقال . جريدة الاهرام . القاهرة ٨٠/٤/٣ .

(٥٣) أحمد أمين : حياتى . المرجع السابق .

يدى ظهرا وبطنا فلا أسأل الا الستر ·· اننى متوكل على الله دائما (٥٤)·

ويسود بين بعض المصريين أمثال شعبية تردد وتؤكد هذا السلوك· مثل « ان جريت زى الوحوش غير رزقك لن تحوش » ، « اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب» ، « قيراط حظ ولا فدان شطارة » ، « السعد وعـد » ، « تبقى فى بقـك وتقسم لغيرك » ، ولقد عبر بطل قصة حضرة المحترم عن هذا السلوك القدرى وهذا النمط من التفكير فى عبارة «كل شىء قسمه ونصيب » (٥٥) ·

وهذه القدرية والتواكلية ، جعلت من بعض المصريين أناسا يتجنبون المخاطر « ابعد عن الشر وغنى له » ، « أن عدل السلطان جارت الرعية » ، « اسجد للقرد فى زمانه » ، « اذا الناس بتعبد عجل حش له وارمى له»·

وبجانب هذه القيم توجد أفكار وفلسفات ترفض الواقع وتتمرد عليه · وعبر يحيى حقى عن هؤلاء المتمردين فى حوار بطل قنديل أم هاشم مع نفسه « الرضا بالواقع عجز ، والطيبة بلاهة والصبر جبن والمرح انحلال » (٥٦) · فاذا كان المجتمع التقليدى يؤكد الطيبة عند الناس ، ويرى فيها رفاهية أخلاقية تدل على سهولة المعاملة وحسن الخلق وطيبة القلب وتقف موقف التضـاد من الخبث والايذاء ، وتعنى التخـلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل ، فان بعض أفراد المجتمع نفسه والذين أخذوا بالاتجاهات الحديثة أصبحـوا يصفـون الناس الطيبـين حسنى المعشر بالبلاهة والعجز والفارق المعنيين ــ المعنى التقليدى للطيبة والمعنى الحديث

---

(٥٤) يحيى حقى : عنتر وجوليت قصص ولوحات ، القاهرة ، دار العروبة ص ١٣٧ ·

(٥٥) نجيب محفوظ : حضرة المحترم ، القاهرة ، مكتبة مصر ١٩٧٥ ، ص ١٨٥ ·

(٥٦) يحيى حقى : قنديل أم هاشم · المرجع السابق ، ص ١٠٣ ·

هو الفارق بين طبيعة العناصر الاجتماعية التى تدمج فى شخصيات المجتمع التقليدى والعناصر الاجتماعية التى تدمج فى الشخصية المتغيرة .

ورغم تعدد مظاهر التجديد والتحديث فى المجتمع الجديد الذى رفع شعار العلم والايمان ، اشتهر عن بعض المصريين « حب الطلاسقة » و « عدم الدقة فى العمل وخاصة فى الخطوات النهائية » وصعوبة التعامل مع الزمن . ولكن ليس كل المصريين كسالى ، اذ عرف عن الاكثرية حب العمل وكراهية الكسل ، وحتى أن القرويين يعرضون بمن ينام حتى الضحى بأنه من شيم الجثث النتنة (٥٧) . كما شاع فى الامثال « الايدى البطالة نجسة » ، « واللى يأكل من ريش غيره جعان » . كما عبر يحيى حقى فى لوحته « مولد بلا حمص » عن التغير فى مفهوم العمل والفصل بين الخصوصية والعمومية والتعارض بين قيم الاسرة والصداقة من جانب وقيم العمل من جانب آخر ، عندما كتب « ليس فى العمل صداقات » وهذه العبارة الصغيرة فى تركيبها كبيرة فى مدلولها . اذ تدل على التعارض بين الالتزام للمجموعة التى ينتمى اليها الشخص والتى يرتبط بها بعلاقات وجدانية كالاسرة والاصدقاء والالتزام بالمجتمع وقضاياه(٥٨).

وقد صور نجيب محفوظ هذا الاتجاه الجديد الرافض للمجتمع التقليدى تصويرا واضحا فى رواية المرايا ، اذ نجد سالم جبر ينادى « متى يحكم العلم ، متى يحكم العلماء » (٥٩) ولكن الدعوة الى تحكيم العلم فى حياتنا وسيطرة العلماء على مقاديرنا لم يتقبلها كل الناس تقبلا كاملا بل تشابهت عند الناس أنماط التفكير . وتصارعت القيم سواء بين الاجيال أو بين أفراد الجيل الواحد . ولقد عبرت قصة الكرنك عن

---

(٥٧) أحمد رشدى صالح : الادب الشعبى . الطبقة الثالثة ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٧١ ، ص ٦٤ .

(٥٨) يحيى حقى : عنتر وجولييت ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٥٩) نجيب محفوظ : المرايا ، القاهرة ، مكتبة مصر ١٩٧٢ ، ص ١٥١ .

هذا التعارض فى القيم والافكار على لسان أحد أبطالها « عند أكثرهم يبدأ تاريخ الثورة مخلفا وراءه جاهلية مرذولة غامضة ··· قد تند عنهم أصوات معارضة توحى بيسارية متطرفة أو اخوانية حذرة ولكنها لا تلبث أن تضيع فى الهدير الشامل » (٦٠) ·

ولقد امتـد هذا الصراع الى المبادىء الاقتصادية ، فهناك من يؤمن بأن الاشتراكية تعبير عن الحقد على المتفوقين · وان مشكلة الفقر فى مصر حتمية وتنطلق من مقوله « ان كل يتقرر موضعه على قدر طاقته ··· وتلك حكمة الله سبحانه » · ولكن هناك من يعارض هؤلاء ويرى فى الاشتراكية حلا لمشكلات المجتمع اذ أخذت الاشتراكية من فائض الذين يملكون كل شىء لتضمد جراح الملايين الجائعة (٦١) ·



ولم يعد سهلا فى فترة التغير أن تحدد هوية المواطن تحديدا قاطعا أو أن نميز نمط تفكيره تميزا دقيقا · فقد توحدت الكثرة بالضدين مثل « اسماعيل » أحد أبطال قصة الكرنك الذى آمن بالاشتراكية والدين ، حتى صعب الحكم عليه من أحد أصدقائه فقال « ظننتك شيوعيا أو من الاخوان»(٦٢) ـ كأنه من الصعب التمييز بينهما ـ فيرد «لا هذا ولا ذاك» بل انتمائى الى الثورة · ومثل اسماعيل فى قصة الكرنك كان رمزى فى « المرايـا » ، فهو العالم ذو العقلية الدينية والذى يصوم شهر رمضان رغم ايمانه بالمادية الجدلية · فهو ابن عامل متدين ربى تربية دينيـة ونشأ فى أحضان الاخلاق الاسلامية « ولم يستطع بعد ذلك التخلى عنها الا فيما يناقض عقيدتى الجديدة » (٦٣) ·

---

(٦٠) نجيب محفوظ : الكرنك ، القاهرة ، مكتبة مصر ١٩٧٤ ، ص ١٠ ·
(٦١) نجيب محفوظ : المرايا · القاهرة · مكتبة مصر ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ·
(٦٢) نجيب محفوظ : الكرنك ، مكتبة مصر ، ص ٤٦ ·
(٦٣) نجيب محفوظ : المرايا ، القاهرة ، مكتبة مصر ، المرجع السابق ، ص ٣٤٧ ·

ولكن صبرى جاد يخالفهما تماما ، فهو يرى أن الدين يتضمن أشياء تخالف ما يدرسه من العلم. فهو ابن لابوين مؤمنين ، ولكنهما لا يصليان ولا يصومان ولا يتحدثان فى الدين (٦٤) . وهذا التكافؤ بين الضدين عكسه ثابت عجلان فى المرايا ضاحكا « يا بلد الاحتفال بالاسراء والمعراج فى عصر الهبوط على القمر » (٦٥) . ولقد كرر توفيق الحكيم فى مسرحيته بنك القلق صورة ثابت عجلان عند أحد أبطال مسرحيته الذى يعانى من القلق بسبب ما يذاع ويبث فى الاذاعة والتليفزيون من برامج تؤكد تسلط الرجعية والرجعيين . بيد أن حالة ثابت عجلان وأنصاره تقلق أصحاب الفكر المضاد أيضا : الذى يرون فى تصرفاته وتصرفات رفاقه مثالا لانهيار القيم وانحلال البناء الاجتماعى وكابوسا يجثم على الصدور . فأنصار الدين يتهمون ما يذاع ويبث فى التليفزيون والاذاعة بأنه الحاد تفشى فى البلد وأن المجتمع تحول الى مجتمع الضلال والفجر والاثم (٦٦) مثلما صارت برامج الاذاعة والتليفزيون تقلق وتثير غضب أصحاب الاتجاهات الفكرية الحديثة فى المجتمع .

وفى فترة التحول الاجتماعى كان هناك من تحول من النزوات الى العمل السياسى أو تحول من العمل السياسى الى التقوقع فى حياته الخاصة مثال قدرى رزق فى المرايا الذى اشتهر بغزواته مع الفنانات . ثم تحول الى ثائر من الثوار اعتبر نفسه صديق الوطنية والعروبة والثورة ، وعدوا للفساد والتعصب والالحاد . ولكن هذا الثائر كشف عن أصالته ونقائه الثورى ! ! عندما صاهر أسرة اقطاعية طبق عليها قانون الاصلاح الزراعى . وهذه المصاهرة تكشف أنه كان برجوازيا فى أخلاقه

---

(٦٤) نجيب محفوظ : المرايا ، القاهرة ، مكتبة مصر ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

(٦٥) نجيب محفوظ : المرايا ، المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(٦٦) توفيق الحكيم : بنك القلق ، سلسلة اقرأ ، القاهرة ، دار المعارف ، العدد ٣٤٧ ـ ١٩٧١ ص ١٠٥ .

وسلوكه وتقاليده واشتراكيا بلسانه (٦٧) فالعمل والفعل والسلوك عنده يخالف القول والرأى ٠

وفى مثل هذا المجتمع ظهر اتجاهان ناميان يصطرعان سويا الاول يتهم الثانى بالانحلالية والفوضوية والعبث بأركان الدين ، والاتجاه الآخر يتهم الاول بأنه متخلف يعوق التقدم والانطلاق والتحديث ٠ والحقيقة أن المجتمع قد حفل بأنصار الاشتراكية ، وأنصار الرأسمالية والباحثين عن نظام جديد ، كما أصبح المجتمع يضم بين جوانبه الشيوعيين وأنصار الدين ، ومن وقف حائرا بين الاتجاهين ٠ ويعكس الحوار الاتى صورة البلبلة التى يعانى منها البعض :

- مذا تفضلون الاشتراكية أم الرأسمالية
- لا تهمنا الاسماء
- يهمنا أن يحقق كل فرد حريته ونجاحه وسعادته
- هذا يعنى أنك تفضل الاشتراكية
- لا أدرى
- أتفضل الرأسمالية
- لا أعتقد (٦٨) ٠

ويكشف لنا هذا الحوار ، عن الحيرة ، والتردد وتشابه الامور واختلاطها أمام الكثرة، بحثا عن نظام يسعى اليه الناس ليحقق الرخاء والطمأنينة ، فهناك حيرة بين الاشتراكية والرأسمالية ، وهناك مسافة وعدم فهم بين الدعوة الى التحديث والاخذ بأساليب الحضارة الغربية وبين المطالبين بالعودة الى تطبيق الشريعة الاسلامية والعودة الى أتباع السلف

---

(٦٧) نجيب محفوظ : المرايا ، المرجع السابق ، ص ٣٤٣ ٠
(٦٨) نفس المرجع ، ص ٢٠٦ ٠

الصالح . ولم يترك نجيب محفوظ الدعوة الى تطبيق الشريعة الاسلامية تمر دون أن يلمح الى أن البدأ فى تطبيق الحدود سيكشف عن متناقضات ومفارقات فى حياتنا » فنحن نصنع الخمور ونبيعها للناس ونحن دولة اسلامية ونقيم للقمار مراكز فى الاماكن السياحية » ثم يستدرك ويقول « أخشى ما أخشاه أن نستعين بالحدود الاسلامية على حماية أوضاع لا تستحق الحماية الاسلامية » (٦٩) .

وهذا الصراع بين القيم الاقتصادية وهذه المسافة بين العلم والدين، وعدم التوفيق بينهما ، لا يعبر عن ظاهرة صراع الاجيال ، بل يصور الصراع بين أعضاء الجيل الواحد . فكما صور نجيب محفوظ فى قصة السكرية قصة الاخوين : الشيوعى والاخوانى اللذين قبضت عليهما الشرطة فى ليلة واحدة ، صور توفيق الحكيم فى بنك القلق قصة أخوين آخرين يتصارعان سويا ويحولان بيتهما الى جحيم ،الاول يتهم الثانى بأنه يسارى والثانى يتهم الاول بأنه يمينى . والاب والام تائهان لا يدركان ماذا يفعلان ، ولا كيف يتصرفان بين الاخوين وبين أخيهما الثالث الذى يعيش مرحلة الضياع (٧٠) .

وتبين هذه الصور الاجتماعية التى عكستها الاعمال الادبية أن المجتمع يعيش حالة من ازدواج القيم ،وأن الشخصية تتوحد مع عناصر متباينة متعارضة ، فهناك نصير العلم ونصير الدين ، وهناك المؤمن بالاشتراكية والمؤمن بالرأسمالية. وهناك من يقتدى فى سلوكه بالمظهرية أو الواقعية . هذه الانماط المتباينة من السلوك عانى منها بطل قصة « نور القمر » فقال « فالوطن يموج بتيارات جديدة أيضا تيار دينى عنيف وتيار سياسى متطرف وتيار فاشستى حاد ، تحيرت طويلا بين

---

(٦٩) نجيب محفوظ : التشريع الجنائى الاسلامى ، الاهرام ٧٦/٥/١٧ .
(٧٠) توفيق الحكيم : بنك القلق ، المرجع السابق ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

المبادىء . كل واحد على حده وجدت عنصر جذب وعنصر رفض (٧١) .

ولقد امتد هذا الصراع الى داخل محيط الاسرة بين الجيلين ، جيل الابناء وجيل الآباء . فلم يعد الشباب يخلد من ثقافة الابوين ، ولا يخلد من التجارب الماضية ولا يحمل الميرث الثقافى للوالدين . ولقد أكدت دراسة عبد الباسط عبد المعطى ظاهرة صراع القيم بين الابناء الذكور الذين نالوا حظا من التعليم وبين آبائهم الذين يعملون فى الزراعة . وأبرز مجال يتجسم فيه هذا الصراع هو اهتمام الابناء بالقرية بمظهرية السلوك والسلوك الترفى ، وتأكيد الآباء لاهمية الادخار لشراء الارض وتأمين مستقبل الاسرة كما يبدو الصراع واضحا في مواقف الصراع على السلطة الوالدية .ويظهر هذا الصراع فى المواقف التى تتعارض فيها القيم الدينية والقيم المادية ،وصار الابناء أكثر توحدا بالقيم المادية ، بينما الآباء أكثر تمسكا بالقيم الدينية (٧٢) .

ولقد صور نجيب محفوظ هذا الصراع بين جيل الابناء وجيل الآباء باعتباره مثالا لتباين المكونات الاجتماعية لشخصيات الجيلين ، فى أكثر من عمل أدبى ، ففى « حب تحت المطر » ، كتب « منى تحب أباها ولكنها لا تكاد تتفق معه فى الرأى » (٧٣) . وتدل هذه العبارة على مدى التباين والتضاد بين العناصر الاجتماعية التى تكون شخصيات الآباء والابناء . كما صور توفيق الحكيم فى بنك القلق . حالة الصراع بين الاجيال بين موقف ميرفت وخالتها التى كانت تسعى دائما أن تثبت ميرفت على أرض صلبه وتقربها أحيانا بالتشبه بأمها . وتشير لها الى صورة الام فى اطارها المذهب الجديد «كان لامك مثل أعلى» (٧٤) وهذه الكلمة تبدو

---

(٧١) نجيب محفوظ : الحب فوق هضبة الاهرام ، مجموعة قصص قصيرة . القاهرة ، مكتبة مصر ١٩٧٩ ، ص ٥٠ .

(٧٢) عبد الباسط عبد المعطى : بعض مظاهر صراع القيم فى أسرة قروية مصرية ، دراسة سوسيولوجية . المجلة الاجتماعية . المركز القومى للبحوث الاجتماعية . القاهرة . المجلد ٨ . العدد ٨ ص ٧١ ــ ٨٨ .

(٧٣) نجيب محفوظ : حب تحت المطر ، القاهرة ، مكتبة مصر ١٩٧٨ ، ص ٥٠ .

(٧٤) توفيق الحكيم : بنك القلق ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

غريبة في مجتمع هش ليس بداخله ايمان حقيقي بشيء أكثر من اقتناص المغانم وكرر نجيب محفوظ حالة الصراع بين الاجيال بين الفتى وأمه في قصة عصر الحب عندما عرض فكرة الزواج بمن أحبهـا فرفضت الام معللة رفضها بتصرفات الام ٠

ـ انني أتحدث عن البنت لا عن أمها

ـ البنت لامهـا

ـ حكم غير مقبول (٧٥) ٠

وتدل هذه النماذج الثلاثة عن المسافة الاجتماعية بين تفكير الابناء وتفكير الآباء وسعة هذه المسافة بينهم ٠

ولقد كشفت لنـا دراسـات عمـاد سلطان عن اتجاهـات طلاب الجامعة في مجالات التعليم والسياسة والعمـل ، عن تباين اتجاهـات الوالدين ، وأظهرت البيانات التي جمعها فريق البحث أن جيل الشباب أكثر تقدمية من جيل الآباء ، وأن الشباب أكثر تقبلا للاتجاهات الجديدة التي تتعلق بمكانة الفرد في أسرته ، وان البنات أكثر تحررا من الامهات فيما يتعلق بالاتجاهات نحـو المساواة فـي العمل والتعليم ٠ وأظهرت البيانات المتاحة أن الشبان أكثر ميـلا الى العمل الحر فلم يعد المثـل الشعبي « ان فاتك الميري اتمرغ في ترابه » مقبولا عند الشبان كما كان مقبولا عند جيل الآباء ٠ بيْد أن الفتيات والامهـات أكثر ميـلا للعمل بالحكومة وهذا يعني أن قيم المخاطرة والاستقلال بدأت تتبلور عند جيل الشبان ، وأنها أصبحت أكثر قبولا عندهم ٠

ولقد بينت دراسة عمـاد سـلطان عن الصراع القيمي بين الآباء والابناء أن شبابنا يقف في المرحلة الحاليـة موقف المتمـرد من الحرية

---

(٧٥) نجيب محفوظ : عصر الحب ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٨٠ ، ص ٥٠ ٠

والقيود ويتجـه الى الجديد مره ويخشاه ويبتعد عنه مره (٧٦) · ويتمسك مرة بقيم الوالدين · ويثور يتمرد عليها مرة أخرى · كما أن الصورة النقدية للاوضاع القائمة أو حالة الرفض لما هو قائم ليست هى الصورة الغالبة فهناك رواسب وبقايا لازالت مستقرة وراسخة وخاصة فيما يتعلق بعلاقة الذكر بالانثى · وبينت الدراسة نفسها أن هناك من الشبان من يرى أنه ينبغى أن يقتصر عمل المرأة على مهنـة التدريس والتمريض ، ولكن هناك اتجاها يرفض قصر عمل المرأة على مهنة معينة ·

صورة ثالثة لتغير مكونات الشخصية هى تغـير الاتجاهات نحـو الانجاب · ولقد تغيرت مفهومات الناس عن الزواج وأهداف تكوين الاسرة فبتأثير ارتفاع الاسعار وارتفاع تكاليف المعيشة ، وضعف الارتبـاط بالارض ، وانتشار التعليم تزايدت التطلعـات الوالدية نحـو مستقبل أفضل لاولادهم · فاهتموا بتوفير احتياجاتهم الحضرية والتعليمية، مما أدى بالضرورة الى تغير القيم المرتبطة بالانجاب · ولقد أكدت دراسات المواليد انخفاض معدلات المواليد سنويا ، مما يعنى تغير القيم المرتبطـة بالخصوبة ·

ولقد بينت الدراسات الميدانية ، أن هناك اتجاها يتزايد باستمرار يؤكد أهمية تنظيم عملية الانجاب · بيد أن هذا الاتجاه ليس عاما ، بل تتباين درجة تقبل تنظيم الاسرة بين العاملات وغير العاملات · فالمرأة العاملة أكثر استخداما لوسائل منع الحمل من المرأة المتفرغة · كما أن عملية اتخاذ قرار تنظيم النسل بين أسر النساء العاملات عملية مشتركة · وغالبا ما تكتفى المرأة العاملة بطفلين أو ثلاثة أطفال ، على خلاف الامهات المتفرغات اللاتى يبدأن تنظيم الانجـاب بعد الطفـل الثالث أو الرابع ·

---

(٧٦) عماد سلطان : الصراع القيمى بين الاباء والابناء وعلاقته بتوافق الابناء النفسى ، القاهـرة ، المركـز القومـى للبحوث الاجتماعيـة والجنائية ١٩٧٣ ، ص ٦٠ ، ٦٩ ·

ولقد أثبتت كل الدراسات الميدانية أن المتعلمين والمتعلمات أكثر تقبلا لفكرة تنظيم النسل من غيرهم • وكان التعليم من أهم العوامل التى تشجع الناس على تقبل فكرة تنظيم النسل •

كذلك تتباين معدلات الانجاب بين الريف والحضر ، فمعدلات المواليد فى الحضر أقل منها فى الريف كما بينت دراسة السلوك الانجابى أن الامهات فى القاهرة أكثر تقبلا لفكرة تنظيم الاسرة من الامهات فى دمياط• كما أن الامهات فى دمياط أكثر تقبلا لفكرة تنظيم النسل من الامهات فى قنا ، مما يعنى أن الانجاب كقيمة بدأت تتغير وتتفاوت درجة تقبلها بين المراكز الحضرية المختلفة •

وهذا يعنى تغير القيم المرتبطة بالانجاب ، وتغير القيم المرتبطة بالزواج واذا كانت القيم التى تؤكد أهمية زواج الابنة لا زالت سائدة ، فان البيانات الاحصائية تؤكد ارتفاع متوسط سن الذين يتزوجون لاول مرة وان هذا الارتفاع أكثر وضوحا فى المدينة عن القرية • ويزداد أعداد الذين لم يتزوجوا ممن هم فى سن الزواج أو اللاتى لم يتزوجن ممن فى سن الزواج الا أن زيادة العزاب تبدو أكثر فى المناطق الحضرية عن المناطق الريفية ، وان الشبان أكثر عزوفا عن الزواج من الاناث •

ولقد أشارت دراسات عديدة الى أن القيم المرتبطة بالزواج تختلف فى المدينة عن الريف فالريفيون يفضلون الزواج المبكر نظرا للظروف الاقتصادية ، كما أن ارتفاع المستوى الاجتماعى والاقتصادى غير من مكانة وقيمة الابناء فى الاسرة ، فبعدما كانوا مصدر دخل للاسرة ، أصبحوا عبئا على الوالدين يتحتم اعالتهم ، كما تغيرت مكانة الزوجة من مصدر للانجاب الى معين ومساعد اقتصادى لزوجها ، بعدما زادت التطلعات الى تحسين مستوى المعيشة •

ولقد أثرت الحضرية كطريقةحياة على تغير السلوك الانجابى،والصفات المرتبطة بالزواج فتقبل قيم تنظيم الاسرة والقيم الفردية المرتبطة بالزواج

أكثر بين أهل الحضر من أهل الريف • ولا يعنى هذا أن الريف بمعزل عن تنظيم النسل ، فهناك كثرة من القرويين سمعوا بتنظيم الاسرة ولكن درجة استجابتهم له متباينة ، ما بين القبول والرفض ولكن الشبان أكثر تقبلا للقيم الجديدة من كبار السن •

كما يؤثر التحاق بعض الفتيات بمراحل التعليم المختلفة لمدة تقترب ما بين اثنتى عشر عاما وخمسة عشر عاما على خفض الخصوبة بسبب ما يترتب على الاستمرار فى التعليم من تأجيل الزواج حتى انتهاء مرحلة التعليم التى يبغونها • كما أثبتت الدراسات أن خصوبة المرأة المتعلمة تعلميا متوسطا أقل من خصوبة المرأة الامية ، وأن خصوبة الجامعيات أقل من خصوبة المتعلمات تعليما متوسطا ، مما يؤكد أهمية التعليم فى تقبل الافكار الجديدة التى غيرت من مفهوم الانجاب والغرض من الزواج•

بيد أن الدعوة لتنظيم النسل ليست سهلة وليست ممهـدة رغم ما يبـذل من جهود لتدعيمها سواء على المستوى القومى أو على المستوى التطوعى ، وبصرف النظر عن طبيعة تفكير الداعين الى الفكرة وبعضهم من رجال الدين (٧٧) ، فهناك المعارضون للفكـرة الذين يقفـون فوق المنبر وينادون بأعلى صوت برفض تنظيم النسل وتحريمه ويصفون وسيلة العزل وغيرها من وسائل تنظيم الانجاب بأنها وأد خفى، ويتواعدون من يحدد النسل بالعقاب الالهى • وهم يبررون دعوة الرفض بالآيات القرآنيـة والاحاديث النبوية • ويؤكدون افتقاد الاسباب التى تدعو الى تنظيـم النسل فى ظل سياسة الانفتاح الاقتصادى • بل يربطون بين الدعوة الى النسل والحركات السياسية التى تعادى العرب (٧٨) • لان الدعوة الى

---

(٧٧) راجع : الاسلام وتنظيم الاسرة • ثبت كامل لابحاث ومناقشـات المؤتمر الاسلامى ، الرباط ١٩٧١ ، وعلى الاقل رجال الدين من المصريين •

(٧٨) حسين محمد يوسف : أهداف الاسرة فى الاسلام ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار الاعتصام ص ٧٦ •

تنظيم النسل فى مصر وسوريا تخدم التوسع الصهيونى (٧٩) ٠

ولم يقتصر الخلاف على تقبل فكرة تنظيم النسل أو رفضها ، بل امتد الى نظام الادخار فى البنوك وشراء شهادات الاستثمار ، والتعامل مع أموال البنوك ٠

وتعكس اتجاهات الهجرة الجديدة ، عن عملية تغير فى مكونات الشخصية ، وكانت حركة الهجرة فى مصر ، داخلية من الريف الى المدينة ، وهذه الهجرة الداخلية لم تثمر أبدا عن قطع العلاقات بين المهاجر وأهله ٠ أما الهجرة الى الخارج فاتجاه جديد يعكس القيم المتغيرة فى الشخصية المصرية « اذ عرف عن المصريين دوما حب الارض والالتصاق بها وكراهية السفر » (٨٠) ولا يعنى كراهية المصريين للهجرة أن مصر كانت منعزلة بقدر ما يعنى أن مصر كانت منطقة جذب ولم تكن أبدا منطقة طرد ولكن الحال تغير ، فبعدما كان المصريون بيتيون أصبح دور مصرفى تدبير العمالة فى الوطن العربى واقعى (٨١) لا يمكن تجاهله وظاهرة اجتماعية معاصرة ، اذ بلغ عدد المصريين العاملين فى الخارج مليونا ونصف مليون كلهم فى سن العمل من أصحاب العقول الشابة يكونون قطاعامقبولا من اقتصاد بلدان العالم العربى ٠ ولسنا فى مجال بحث الاسباب الحقيقية للهجرة ٠ وهل ترجع الى عدم الرضا على الواقع أم الشعور بعدم الجدوى فى المجتمع أو تبديد الوقت والجهد أو المناخ السياسى (٨٢) أو انفتاح سوق العمل فى العالم العربى ، وارتفاع أسعار

---

(٧٩) المرجع السابق ٠

(٨٠) أحمد أمين : حياتى ، المرجع السابق ٠

(18) Birkes. J. S. : International Migration and developement in the Arab World. By J. S. Birkes and C. A. Sinclair. Geneva. Internatinal Labour office. 1976. pp. 43 - 46.

(٨٢) سنيه عبد الوهاب صالح : دراسة ميدانية لظاهرة هجرة العقول ، المجلة الاجتماعية ، المركز القومى للبحوث المجلد ١٣ ، العدد ٢ ، مايو ١٩٧٦ ص ٤٣ ــ ٥٤ ٠

البترول والتى أدت الى الازدهار العمرانى فى تلك البلدان ، وما صاحب ذلك من ارتفاع أسعار الحاجات المعيشية بالنسبة للاجور فى مصر . ولقد تزايدت الهجرة للخارج الى البلاد الغنية بعد حرب ١٩٦٧ ، ! ! وسواء أكان تزايد حركة الهجرة بعد حرب يونية جاء صدفة أو عملية مخططة ، فان هجرة العمالة أصبحت ظاهرة حقيقية . تكون نمطا من أنماط تفكير الشباب المصرى ، ولم تعد الهجرة قاصرة على الذكور وحدهم، بل بدأت أعداد المهاجرات تتزايد سواء من الريف الى المدينة أو من الداخل الى الخارج .

وصور الادب المصرى اتجاه المصريين الى الهجرة بأنه أصبح مهربا كالفن (٨٣) وموضة هذه الايام ، وتعنى الهجرة تغير « مفهوم الوطن ومضمونه » ، ولم يعد أرضا ذات حدود معينة ولكنه بيئة روحية تحدها الآراء والمعتقدات » (٨٤) .

والحقيقة أن الهجرة الخارجية تعد متغيرا جديدا فى الشخصية المصرية استجاب لها المصريون نتيجة ظروف العمل والتعنت البيروقراطى « وأسباب أخرى عديدة ، يؤكد ذلك أن ٣٪ من قوى العمل فى بلد يضع خطط تنمية اقتصادية واجتماعية هاجرت لتنمى بلدانا أخرى ! !

ولقد وقف المصريون موقفين متباينين من ظاهرة الهجرة الى الخارج كلاهما ينطلق من قيم معينة يؤمن بها ، الموقف الاول يرى فى الهجرة وسيلة لتحسين دخول الافراد وزيادة موارد البلاد من العملة الاجنبية !! وهناك الرافض لهذا الاتجاه باعتبار أن هجرة العمالة الى الخارج من أسباب التضخم فى الاسعار وأسباب المضاربة فى أسعار الارض ، وتغير أنماط الاستهلاك وزيادة الاستهلاك الترفى وغير الترفى . وهذا كله يعكس التغير فى صفات وخصائص وسلوك المصريين .

---

(٨٣) نجيب محفوظ : حب تحت المطر ، المرجع السابق .
(٨٤) نجيب محفوظ : المرايا . المرجع السابق .

وموضوع الهجرة موضوع يثار فى كل بيت ويشغل أفراد الاسرة ما بين مؤيد ورافض ، ولقد كتب د٠ حسين خلاف فى جريدة الاهـرام يقول أن الشباب عندنا يتطلع الى اليوم الذى يستطيع أن يغادر فيه مصر فترة يحقق بعض مدخرات تمكنه من تحسين مستوى معيشته (٨٥) ، ولكن ليست قلة المـال وحدها هى سبب دفـع المصريين الى الخارج ٠ وصور نجيب محفوظ فى قصة حب تحت المطر موقف أسرة مصرية من تلك الظاهرة ، من خلال حوار بين الاخ وأخته ٠

ـ أننى أفكر فى الهجـرة ٠

فدهشت منى وتمتمت ٠

ـ الهجـرة

الحق أننى جاوزت مرحلة التفكير فاستقر رأيى على الهجرة ٠

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ولكن كيف تم ذلك يا أخى ٠

أننى على وشك الانتهاء من بحث عن الطفيليات وسوف أرسله الى زميل مهاجر بالولايات المتحدة ليعرضـه على الجامعـات وبعض المراكز الطبية ومن ثم انتظر أن أدعى للعمل فى احداها ٠

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

فشهقت بقوة من شدة الانفعال وقالت ٠

ـ أهاجـر معـك ٠

ـ لئن نهاجر اثنين خير فى أن أهاجر وحدى

---

(٨٥) حسن خلاف : المصريون والهجرة الى الخارج ، جريدة الاهـرام ، العدد ١٩٨٠/١١/٨ ٠

وعارض الوالدان الفكرة ، ولم يدركا لها حكمة ما دام للشقيقين مستقبل مرموق فى مصر ، فقال الدكتور لوالديه :

- هكذا حـال البلد
- وقالت منى
- وهو ما لا يطاق ٠

وأراد الاب أن يستثير عاطفتهما الوطنية ولكن الدكتور على قال بجرأة عدها الاب قاسية ٠

- لم يعـد الوطن أرضـا وحـدودا جغرافيـة ولكـن وطن الفكـر والروح (٨٦) ٠

وكان مؤتمر العمل اليدوى الذى نظمه قسم الاجتماع بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى ابريل ١٩٨١ (٨٧) أوضـح مثـال على تشتت اتجاهات المصريين عامـة وأساتذة الجامعات خاصـة بالنسبة للظواهـر الاجتماعية فى بلدنا، فقد انقسم أساتذة الجامعات الى فريقين، الفريق الاول مؤيد لحركة الهجرة يرى أنها ضرورة حضارية ويعبر هذا الاتجاه عن قيم وأفكار يتوحد بها أصحابه ، والفريق الاخر يرى أنها نزيف دم بطىء ، لا تنفصل عن المشكلات الاجتماعية التـى يئن منهـا المجتمع ، وترتبط بعوامل عالمية تحاول اجهاض عمليات التنمية فى مصر وجعل مصر بلدا تابعا ٠ وأعضاء هذا الفريق مثلهم مثل الفريق الاول يؤمنـون بعناصر اجتماعية توحدوا بها وان كانت تتناقض فى مضمونها ٠

ويدل تغير مكانة المرأة فى مجتمعنا على صورة أخرى من الصور التى تؤكد التغير فى العناصر المكونة للشخصية المصرية فلم تعد المرأة لعبة

---

(٨٦) نجيب محفوظ : حب تحت المطر ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ، ٥٠ ٠
(٨٧) جامعة الاسكندرية : مؤتمر تقويم مراكز التدريب المهنى فى مصر ، كلية الآداب ، قسم الاجتماع ، ابريل ١٩٨١ ٠

يتسلى بها الرجل ولكنها أصبحت تشـارك الرجل فى مجـالات التعليم والعمل ، ولقد التحقت الفتاة بالمدرسة الابتدائية وواصلت التعليم حتى الجامعة ، ولم تعد الفتاة تمنع من الطريق وتحرم من المدرسة عندما تبلغ الثانية عشر من عمرها (٨٨) ٠ ولم يعد عمل المرأة يثير جدلا وأصبح حقيقة مسلما بها وتتساوى مع الرجل فى الاجر ونالت نفس الحقوق السياسية التى يتمتع بها الرجل ٠

وتكشف لنا البيانات الاحصائية المتاحة ، انخفاض نسبة الامية بين الاعمار الصغيرة من الاناث وتدل هذه البيانات على تغير القيم المرتبطة بمكانة المرأة وتغير دورها فى المجتمع ٠ وفى البداية منذ نصف قرن ، كانت أعداد المتعلمات ١٦ طالبة فى الجامعة المصرية كلها، وكانت نسبتهن الى أعداد الطلبة ٤٠ر٪ وبمضى الزمن ارتفع عدد الطالبات الجامعيات الى ما يزيد عن ٦٠ ألف طالبـة ، يبلغن نسبتهن ٢٠٪ مـن عـدد الطلبـة الجامعيين ، كذلك ارتفع عدد تلميذات المدارس الابتدائية الى ما يزيد عن ٢ مليون تلميذ وتلميذه ، أى ما يقرب من ٣٨٪ من عدد المقيدين بالتعليم الابتدائى بعدما كان عددهن لا يتجاوز الآلاف ٠

ولقد تزايد اقبال النساء على سوق العمل عاما بعد عام ، وهناك تحول جوهرى فى عمالة المرأة ، فتحولن من الاشتغال فى الزراعة الى الاشتغال فى أنشطة اقتصادية أخرى تعتبر أكثر دخلا ، فبعد أن كان العمل فى الزراعة يحتل المرتبة الاولى عند المرأة ، أصبح يحتل المرتبة الثانية ، ويرجع ذلك الى تطور التعليم ، وما استتبع ذلك من زيادة عدد الفتيات المتعلمات وتأهيلهن للعمل فى أعمال أخرى غير الزراعة التى تتطلب مهارات معينة وقدرات واضحة ومستوى تعليمى خاص ٠ ولقد كان التعليم هو وسيلة احتلال المرأة للوظيفة فى مجال الخدمات والانتاج ٠ ولكن ماذا يعنى التحول من العمل فى الزراعة الى العمل فى نطاق الخدمات

---

(٨٨) نجيب محفوظ : المرايا ٠ المرجع السابق ، ص ٨٨ ٠

بالنسبة للمـرأة · لا ريب أن هناك آثارا اجتماعية هامة ترتبت على عمل المرأة خارج الاسرة ، أهمها التحرر من نفوذ وسيطرة أسرتها ، وتحررها الاقتصادى بعدما تساوت أجورها مع الرجل ، وتقلص سيطرته عليها ، وزيادة أنماط الاستهلاك ·

ولكن نزول المرأة الى ميدان العمل لم يكن سهلا ، اذ بدأت النساء العاملات يعانين من صراع الادوار ، أى الصراع بين مكونات دور العمل ومكونات دور الزوجة أو الام ، لقد أشـارت ناهـد الى أن حبكة أغلب القصص تعكس الصراع بين دور المرأة ودور العمل(٨٩) كما بينت نتائج دراسة سـيد فرح عن مظاهر الصراع عند الامهات · ان العاملات أكثر احساسا من المتفرغات بالتنافر بين مكونات دور الزوجة وأكثر توحدا مع عناصر اجتماعية متشابهات تحكم علاقاتهن مع الازواج · كما بينت هذه الدراسة أن الزوجة لم تعد تؤدى كل ما يطلبه منها الدور من التزامات تقليدية فهى قد توحدت فى طفولتها مع بعض العناصر والقيم التى تؤكد الطاعة والتسليم لسلطة الرجل ، ولكنها فى سن الشباب توحدت مع بعض القيم التى تؤكد المساواة والديمقراطية فتوحدت بهـا · وهـذه العناصر الجديدة هى التى تولد الصراع ، كما كشفت نتائج هذه الدراسة توحد العاملات مع عناصر اجتماعية متشابهات تولد المعانـاة بالصراع دائما ، كما أن المرأة العاملة أصبحت تعانى من صعوبة تحديد التوقعات المطلوبة من العاملة فى مواقف العمل · وقد خلصت هذه الدراسة الى نتيجة هامة مؤداها أن أهم ما يميز أداء المرأة لدورها فى البناء المتغير هو صعوبة تحقيق التوقعات التى ترتبط بالدور فى الموقف ، وتباين سلوك الام من موقف لموقف نتيجة الصراع بين مكونات الدور وعدم وجود عنصر

---

(٨٩) ناهد رمزى : صورة المرأة كما تقدمها وسائل الاعلام ، دراسة فى تحليل المضمون للصحافة النسائية ، القاهرة ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٧٧ ، ص ٩٣ ·

رئيسى يحكم الاداء فى البناء المتغير . ويرجع هذا التباين فى الاداء الى تفاوت تأثير الاختلافات البيئية واختلاط القيم التى تحكم السلوك فى الموقف الواحد (٩٠) ويرجع زيادة الشعور بالصراع بين العاملات كما أشارت ناهد صالح الى توحد العاملات بالقيم الجديدة أكثر من غيرهن (٩١) .

ولقد بينت هذه الدراسة الى أن أكثر من نصف العاملات يعانين من الصراع نتيجة عدم القدرة على التوفيق بين التزامات دور الام كما أوضحت لنا الدراسة وجود مواقف أساسية يبدو فيها الصراع واضحا بين مطالب الامومة ومطالب العمل هى :

١ ـ مواقف المفاضلة بين الترويح عن الابن والتزامات العمل .

٢ ـ مواقف تتنازع فيها مطالب الابن يوم العطلة ومطالب العمل المتأخرة .

٣ ـ أما فى حالة مرض الابن أو فى حالة انفجار مشكلة فى المدرسة فتترك جانبا مطالب العمل .

كذلك يؤدى عدم تقدير زوج المرأة العاملة لمشكلات عمل زوجته ، ورغبته فى تحقيق مطالبه ولو على حساب راحتها الى زيادة حدة المعاناة والصراع بين مطالب العمل ومطالب دور الزوجة .

واذا كانت أغلب حبكات القصص تعبر عن الصراع بين مطالب دور العمل ومطالب الاسرة كما ترى ناهد (٩٢) ، فهذا يرجع الى طبيعة

---

(٩٠) محمد سعيد فرح : البناء الاجتماعى والشخصية ، رسالة دكتوراه ، جامعة الاسكندرية كلية الآداب ١٩٧١ . الفصل الخامس .

(٩١) ناهد رمزى : صورة المرأة كما تقدمها وسائل الاعلام ، المرجع السابق .

(٩٢) ناهد رمزى : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

فترة التغير البنائى التى نعايشها التى تبدو فيها تعذر تحقيق التكامل بين العناصر البنائية وعجز الامهات العاملات عن تحقيق التوقعات المطلوبة منهـن ٠

واذا كانت الامهات العاملات يتحملن هذه المعاناة وهذا الصراع فذلك يرجع الى النفع الاقتصادى الذى يعود على الاسرة من عمل المرأة فى المجتمعات النامية فالدخل الذى تتحصل عليه المرأة العاملة ، يرفع من المستوى الاجتماعى والاقتصادى للاسرة ، فلم يعد دور المرأة سلبيا داخل أسرتها ، كما انتهى عهد « خذى راجل بالليل غفير وبالنهار أجير » ، أو « ظل راجل ولاظل حيطـة » ، فالدافع الى الكسب والمـال ـ وهذا اتجاه جديد يعكس التغير فى مكونات شخصية الرجل والمرأة فى مصر ، ـ هو سبب نزولها الى ميدان العمل وتحمل مشاقه (٩٣) ٠

بيد أن تزايد أعداد العاملات باستمرار لا يعنى اجماع المصريين على هذا الاتجاه الجديد ، فهناك المعارضون لعمل المرأة ، وقد عكس نجيب محفوظ فى قصة حب تحت المطر هذين الاتجاهين ٠

ـ لا تعجبنى المرأة الموظفة
فقال له عم عبده بدران

ـ جميع بنات درب الحلة تلميذات والكبار منهن موظفات
فقال العجوز بسخرية

ـ ولـو
ـ لو كانت لك بنت لتغير رأيك (٩٤) ٠

---

(٩٣) محمد سعيد فرج : البناء الاجتماعى والشخصية ، رسالة دكتوراه ٠ جامعة الاسكندرية ، كلية الآداب جامعة الاسـكندرية ، ١٩٧١ ، الفصل الخامس ٠
(٩٤) نجيب محفوظ : حب تحت المطر ، المرجع السابق ، ص ٣٢ ٠

يعكس هذا الحوار فى العمل الادبى ، مدى المسافة الاجتماعية بين الشخصيات المؤيدة لعمل المرأة وأنصار البقاء فى البيت ، وان السبب البعيد لنزول المرأة ، ليس حب العمل فى ذاته ، بل الكسب المادى الذى يمى قيمته آباء البنات وأزواجهن . ولقد صورت سهير القلماوى فى قصة أحاديث جدتى مدى التغير الاجتماعى الذى حدث فى عالم المرأة، ذلك التغير الذى يعكس التغير فى مكونات شخصيات الجيلين فكتبت « فتاة اليوم تعرف عن الحياة ما لم تعرفه فتاة الامس ولذلك كانت أراؤهما تختلف ، ونظراتهما تختلف ، وأعمالهما تختلف والسعادة التى كانت تقنع بها فتاة الامس تراها فتاة اليوم الحقة سعاده زائفة لا تستحق تقديرا (٩٥) . وأصبحت الفتاة تقرأ وتفكر وتعرف ما لم تعرفه الامهات والجدات .

بيد أن المرأة رغم تغير قيمتها وتغير البيئة الاجتماعية التى حولها، قلما تجرؤ على اتخاذ القرار ، بل هى لا تتخذ الا قرارا واحدا يتعلق فى موضوع زواجها (٩٦) . بيد أن هذا القرار المصيرى قلما يتقبله الابوان برضا سواء فى الريف أو الحضر ، وسواء أكانوا متعلمين أو أميين مثل حالة سيدة فى قصة حكايات حارتنا ، تقدم ابن الحلال لطلب يد سيدة ولكن سيده ترفضه . وليس الرفض بالامر الهين ولا المالوف ، انه فى الواقع ثورة غير متوقعة ، أذهلت الشيخ والجيران وزلزلت الاسرة بالغضب والعنف (٩٧) .

ولقد أعطى أكبر اهتمام للتعليم وأصبح التعليم يعكس التطلعات الوالدية فى أوضح صورة للارتقاء بمستوى الابناء « فالتعليم ضرورى

---

(٩٥) سهير القلماوى : أحاديث جدتى ، سلسلة كتب ثقافية ، الكتاب الثانى، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٩ .

(٩٦) ناهد رمزى : صورة المرأة كما تتناولها وسائل الاعلام ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(٩٧) نجيب محفوظ : حكايات حارتنا ، المرجع السابق .

والوظيفة ضرورية » (٩٨) ، كما اهتمت الدولة بتدبير مكان بمراحل التعليم المختلفة لابناء الشعب تحقيقا لمبدأ تكافؤ الفرص ، بعدما أصبح التعليم العام مجانيا بفضل طه حسين لما كان وزيرا للمعارف كما التعليم الجامعى بالمجان فى عهد الثورة • لقد أدى الاهتمام بالتعليم تحول الناس من العمل بالزراعة وما يرتبط بها من قيم الى العمل فى الوظائف الادارية والفنية مما أدى الى تغيرات واضحة على توزيع المهن فى فترة زمانية محدودة • وهذا التغير فى النسق المهنى نتج عنه تغير فى نسق القيم والانكار والسلوك •

واذا كان التعليم فى مجتمعنا قد أدى الى انخفاض معدلات الامية ورفض الجهل • فان أهم الآثار المترتبة على التعليم فى مجتمعنا هى الحراك الاجتماعى فالامى أصبح يطمح فى تعليم أولاده وييسره لهم ولو على حساب قوت يومه ، وصور نجيب محفوظ فى قصة الكرنك صورة من صور هذا الحراك • كما وضح عند اسماعيل الشيخ الحاصل على ليسانس الحقوق « فهو من بيئة فقيرة ، وأبوه عامل فى مطعم كبده وأمه بائعة متجولة وإخوته يعملون فى مهن حقيرة ويعيش فى سكن من حجرة واحدة ولكن عندما فتحت المدارس وتلك نعمة لا يمكن انكارها ، دخلت مع الداخلين •••• وواصلت النجاح حتى نلت الثانوية العامة ، وأمكننى الالتحاق بكلية الحقوق وعند ذاك غير الرجل رأيه وداخله زهو عجيب ••• وصممت أمى على أن أستمر فى التعليم قائلة « ولو بعت نور عينى »(٩٩) صورة أخرى للحراك الاجتماعى الذى أدى اليه تعليم اسماعيل الاستاذ الجامعى ابن العامل (١٠٠) •

---

(٩٨) نجيب محفوظ : المرايا ، المرجع السابق ، ص ٩٠ •
(٩٩) نجيب محفوظ : الكرنك ، المرجع السابق ، ٤٤ ، ٤٥ •
(١٠٠) نجيب محفوظ : المرايا ، المرجع السابق ، ٣٤٨ •

ولم يكن اسماعيل الشيخ حالة فريدة بل امتلأت الحارات والبيوت بالتلاميذ والتلميذات الذين ضحى الآباء فى سبيل تعليمهم حتى أن البعض باع الارض فى الريف ليصرف على تعليم ابنه ، وبات الناس فى الريف يؤمنون أن تعليم الابن أهم من اقتناء الارض .

غير أن الاثار الاجتماعية للتعليم قد أثرت على معتقدات البعض وهزتها هزا عنيفا ، وأصبح يتعذر عليه التوافق مع حاضره وماضيه ويضيق بالجهل والخرافات بيد أن فتح المدارس للجنسين لا يعنى اطلاقا ضمور وتلاشى القيم التقليدية ، فلا زالت الافكار التى تؤكد عدم المساواه بين الجنسين سائدة حتى بين المتعلمين ويؤكد ذلك تزايد نسبة المتسربات من المدرسة عن نسبة المتسربين ، اذ يبلغ حجم المتسربات أكثر من ضعف حجم المتسربين (١٠١) .

كذلك فانتشار التعليم لم يمنع بعض الناس من اللجوء الى المندل بدل الشرطة للتعرف على السارق ، وهذه الظاهرة تكثر فى الريف عن المدينـة .

والعائد من التعليم ليس كاملا ، فلم يحدث التعليم انقلابا كوبرنيكيا فى عقول الناس وأنماط تفكيرهم ، فلا زالت رواسب التفكير الخرافى سائدة ، وغالبة فى الريف .

فرغم انتشار التعليم نسبيا ، وتدريس المواد العلمية ضمن المناهج الدراسية فهناك أشكال سائدة من التفكير الخرافى . بل أصبحت أنماط التفكير الخرافى تعايش أنماط التفكير العلمى بل وتتغلب عليها أحيانا . ولقد صور أكثر من أديب أكثر من صورة من صور التفكير الخرافى فى مجتمعنا ، وكأننا لم نخطو الى المرحلة العلمية ونتخلص تماما من تأثير المرحلة

---

(١٠١) سمير لويس : التسرب من التعليم الابتدائى منذ ٥٦/٥٧ الى ٧٨ دراسة احصائية . القاهرة ، وزارة التربية والتعليم ١٩٨٠ .

الخرافية ، فهاهو ذا يحيى حقى فى قنديل أم هاشم يصف مدى تسلط التفكير الخرافى على سلوك الناس « تأتى اليه نسوة ورجال يسألونه شيئا من زيت قنديل أم هاشم · لعلاج عيونهـم أو عيون أعزائهـم ، يشفى بالزيت المبارك من كانت بصيرته وضاءه بالايمان ··· ومن لم يشف فليس لهوان الزيت بـل لان أم هاشـم لـم يسعها بعـد أن تشملـه برضاها » (١٠٢) ·

كما صور نجيب محفوظ فى قصة « حضرة المحترم » حالة البطل عندما أعيته الحيل ومع نفاذ الصبر مضى الى قارئة فنجان فى التوفيقية وتناولت فنجانه وراحت تقرأ ··· وهو يتابعها باهتمـام لا يخلو من خجـل (١٠٣) · مثال ثالث : ما نشرته جريدة الاهرام من أن هنـاك من يزعم أنه من الواصلين يستطيع أن يكشف للناس أسرارهم ، ويعثر على المفقود من الاشياء وبالاحجبة والتمائم يعـالج كل الامراض وهو متزوج من جنيه تؤهله لاجراء عملية جراحية (١٠٤) مثله مثل ساكن مقام شهرته جاوزت القرية باعتباره متخصصا فى علاج أمراض الحمى ·

مثال رابع لتسلط التفكـير الخرافى على عقول المصريين نستشهد به من عند توفيق الحكيم كتب فى رحلة بين عصرين أن ولع المصريين بالقوانين الخفية لشىء يبلغ حد المرض (١٠٥) بيد أن هـذا الولع عند الشباب أقل حدة مما هو عند الشيوخ · اذ نجد أن حوالى ٥/٤ عينة

---

(١٠٢) يحيى حقى : قنديل أم هاشم ، ص ٧٢ ·

(١٠٣) نجيب محفوظ : حضرة المحترم · القاهرة مكتبة مصر ، ١٩٧٥ ، ص ٩٠ ·

(١٠٤) جريدة الاهرام : أعداد ٧٥/١١/٧ ، ٢٤ ــ ٧٥/١٠ · مع سيرة ذاتية للمؤلف ، القاهرة الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ·

(١٠٥) توفيق الحكيم : رحلة بين عصرين ، بيروت ، الشركة الشرقية للنشر والتوزيع دون تاريخ ص ٧٣٣ ·

بحث الصراع القيمى بين الآباء والابناء توافق على منع الالتجاء الى الزار وزيارة الاضرحة بقصد الشفاء (١٠٦) ٠

صورة أخيرة لمظاهر التغير فى مكونات الشخصية المصرية هى ظهور بعض الاتجاهات الانحرافية بشكل وبائى ٠

واذا كان اهتمام الباحث الاجتماعى بالظواهر الاجتماعية السوية يعادل اهتمامه بدراسة الظواهر المرضية ، فانه يتعين علينا أن نؤكد أن المصريين فى فترة التحول من المجتمع التقليدى ، واجهوا عوائق عديدة أمام الطرق المألوفة والمقبولة والمرغوبة للوصول الى الاشـياء أو الاهـداف الاجتماعية، تدل على تفسخ الانماط الاجتماعية التى يتقبلها المجتمع ويسلم بها ، وتعبر عن أوضاع ومواقف تزعج المجتمع وتؤدى الى بعض النتائج الضارة التى تسبب المعاناة لافراد هذا المجتمع وتؤرق صفوته وقادته ٠

ولن نعرض لكل مظاهر السلوك الانحرافى الجديدة، وهى عديدة بل سنعرض صوره أو أكثر لامراض اجتماعية جديدة ، فقد بدأت القيم التى تؤكد الحياة الجمعية تدك دكا عنيفا وظهرت القيم التى تؤكد الفرديـة وأصبح هم المـرء أن يعيش فى سلام وسعادة (١٠٧) دون مراعاة كيفية تحقيق هذا المعيشة ٠ وكما بدأ اتجـاه يؤكد الانتهازية ويعترف بهـا كأخلاق جديدة ومهارات جديدة (١٠٨) مثل التكنولوجيا وهذا السلوك الجديدة أكده يحيى حقى فى مقالـه فضائل فى الثلاجـة عندمـا كتب ان الطيبة ضعف ، وان الذى لا تدوسه يدوسك ، واتق شر من أحسنت عليه ، فى الوعود الكاذبة راحة وبراعة ، وسياسة حكيمة ، الغاية تبرر الواسطة ، الطعن فى الظهر مباح ودليل ذكاء وحنكه ، امشى مع الريح ،

---

(١٠٦) عماد الدين سلطان : الصراع القيمى بين الآباء والابناء وعلاقة التوافق النفسى ، المرجع السابق ، ص ١١٧ ٠

(١٠٧) نجيب محفوظ : حب تحت المطر : المرجع السابق ، ص ٩٤ ٠

(١٠٨) نجيب محفوظ : المرايا ، المرجع السابق ، ص ٣٥٨ ٠

سوء الظن من حسن الفطن ، احذر صديقك ألف مره ، لا شيء ينفعك غير قرشك ، كل واحد يقول يالا نفسى (١٠٩) . ولقد استبدل بعض أفراد المجتمع بهذه الفضائل أساليب جديدة للوصول الى أهدافهم ، وهذه الاساليب تعكس أفكارا جديدة وقيما جديدة توحد بها أصحابها ، واتحدوا بها فى سلوكهم .

ولقد جعل هذا التغير من بعض المصريين مغتربين فى ديارهم يعانون من اغتراب الفكر ، وحذرين ممن حولهم لان المرء « يعيش بين أناس أوغاد لا خلاق لهم ، فى مجتمع انهارت فيه الاخلاق والقيم » (١١٠) .

وقد تختلف الوسيلة للوصول الى تحقيق الهدف ، وكان المال أحد وسائل الوصول فى مجتمعنا (١١١) ، واذا كانت الرشوة مرفوضة أخلاقيا ودينيا فالبعض قد يبررها كعموله ، والحقيقة أن الرشوة لا تعد مشكلة اجتماعية فى بلدنا ، بل أصبحت ظاهرة اجتماعية نسمع عنها ونقرأ ، ولكنها ليست ظاهرة اجتماعية سوية بل ظاهرة مرضية . ولقد كتب زكى نجيب محمود فى مقاله « الاجسام الطافيــة » عن ازدياد حالات الرشوة والاختلاس ، باعتبارها وسيلة الوصول السريع الى أهداف ما كان يصل اليها الا بالجهد الشاق أعواما تمضى بعد أعوام » (١١٢) ، وهكذا أصبح المال عند بعض المصريين « بلا رائحة حتى تعرف هل هى زكية أم منتنة » (١١٣) .

---

(١٠٩) يحيى حقى : فكرة فابتسامة ، المرجع السابق ، ص ٣٩ ١.
(١١٠) نجيب محفوظ : المرايا ، المرجع السابق ، ص ٩٩ ، ١١٦ .
(١١١) نجيب محفوظ : المرايا ، المرجع السابق ، ص ٤٠ .
(١١٢) زكى نجيب محمود : الاجسام الطافية : الاجسام الطافية ، جريدة ١٩٨١/٢/١ .
(١١٣) يحيى حقى : فكرة فابتسامة ، المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

وهذه الامراض الاجتماعية ، تعبر عن حالة يعانى منها مجموعة من الناس ، تؤثر على درجة تكيفهم وتوافقهم فى البناء الاجتماعى وتعكس مجموعة من العناصر الاجتماعية التى توحدت بها كثرة من الشخصيات المصرية ، ولكنها قد تؤدى الى تعطيل العلاقات التنظيمية بين عناصر البناء والتى قد تحبط حاجات الافراد ، وتعطل البناء الاجتماعى عن الاستمرار فى أداء وظائفه وتعوق الافراد عن اشباع رغباتهم ، أى أن بعض الشخصيات الاجتماعية فى مصر قد توحدت بعناصر تؤدى الى احباطات وظيفية للبناء الاجتماعى فى مصر .

ما معنى ذلك كله ؟ تكشف لنا تلك الصور الاجتماعية التى عرضنا لها أن الشخصية المصرية تعيش مرحلة تغير تتباين فيها اتجاهات وأفعال وأفكار الجماعات المختلفة وهذا التناقض أصيل فى مكونات الشخصية ونشأ نتيجة الاحتكاك الثقافى بالشعوب الاخرى ، والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى هزت المجتمع التقليدى المصرى هزا عنيفا ، وتباين قدرات واتجاهات الاشخاص فى مصر على التوافق مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة .

ونحن عندما نعرض لانماط السلوك وأشكال التفكير المتناقضة والسائدة فى مجتمعنا ، فاننا نؤكد أن الشخصية المصرية تعانى من حالة الازدواج الاجتماعى (١١٤) .

---

(١١٤) يبدو هذا الازدواج الاجتماعى واضحا فى المواقف التى يتحكم فيها الشعور المرتبط بالحب والكراهية والقبول والرفض . أو وجود مجموعة من القيم والمعتقدات والمعايير المتشابهات، وانتشار أنماط التفكير وأشكال السلوك المتنافرة . وتنشأ هذه الظاهرة عندما يسود فى المجتمع القيم المتشابهات غير المحكمات والخلط بين المعايير وتعجز الشخصيات عن الرؤية الواضحة للتوجيه المحكم للقيم فى المواقف المختلفة والاحساس بالابهام والغموض ازاء التوقعات =

وبسبب هذا الازدواج الاجتماعى حالة من البلبلة الاجتماعية، وهى الخطر الذى يصيب مجتمعا تقوم فيه العلاقات على أسباب خاصة (١١٥) ، ولقد أكد كل من عزت حجازى وحسن حنفى هذه الازدواجية فى الشخصية المصرية ، فبينما يشير الاول بأنها تجمع بين السلبية والايجابية وأن أهم خصائصها الاغراق فى الغيبيات والقدرية وعدم الحيلة وافتقاد المبادرة ، يؤكد حسن حنفى هذه الازدواجية فى الشخصية المصرية تأكيدا صريحا ·

كذلك وصف فؤاد مرسى الشعب المصرى بضيق الافق والهروب من الواقع · كما وصف فؤاد زكريا الشعب المصرى بأنه يتميز بالاتكالية والحزن (١١٦) · ولقد بين فرج أحمد فرج بأن دراسة التاريخ المصرى

= الاجتماعية وتعد ظاهرة الازدواج الاجتماعى طبيعية فى المجتمعات المتغيرة والكبيرة التى تتميز بسرعة الحراك ويعجز فيها الافراد عن التمييز بين التوقعات الاجتماعية فى المجتمع المتغير ويرجع الازدواج وتضارب التوقعات الى الخلط بين المعايير الاجتماعية وتنافر العناصر البنائية · مما يؤدى الى عجز المرء عن التمييز بينها رغم ايمانه بها · وينكشف هذا العجز عن التمييز بين الشىء ونقيضه وغموض المعايير والقيم وتعارضها مع معايير وقيم الاخرين المخالفين فى الفكر والسلوك فى مواقف التفاعل · لمزيد من التفصيل عن فكرة الازدواج الاجتماعى ·
راجع محمد سعيد فرح : البناء الاجتماعى والشخصية ، رسالة دكتوراه · جامعة الاسكندرية ، كلية الاداب سنة ١٩٧١ ·

(١١٥) ماكيلاند دافيد : مجتمع الانجاز ، تأليف دافيد ماكيلاند ، ترجمة محمد سعيد فرح وعبد الهادى الجوهرى ، القاهرة مكتبة الانجلو ، ١٩٧٥ ، ص ١٢٦ ·

(١١٦) راجع : آراء عزت حجازى وحسن حنفى وفؤاد زكريا عن الشخصية المصرية فى مجلة الفكر المعاصر – القاهرة – الهيئة العامة للتأليف والنشر العدد ٥٠ سنة ١٩٦٩ ·

تكشف ما تتميز به الشخصية المصرية فى الجمع بين النقيضين ٠ فالمصريون عرف عنهم الميل الشديد الى الحزن والاكتئاب ونقيضه الميل الى المرح والى حد الهوس والذى يتمثل فى النكتة المصرية كما يتميز الشعب المصرى بالقدرة على الصبر على المكاره والاحتمال وتهيب السلطة والشك (١١٧) ويشير توفيق الحكيم الى أن أهم ملامح هذه الشخصية التسامح والتساهل والايمان بالغيبيات والصبر والتشاؤم من التغيير والتواكلية ورفض المستقبلية وعدم الاقدام والتقليد (١١٨)، ويبين تحليل الشخصيات فى أعمال نجيب محفوظ أنها تجمع بين المثالية والمادية ، والقديم والجديد، والطموح والرضى، والسلبية والايجابية، والتغير والجمود، والعلم والدين٠ وصراع الاجيال وصراع القيم عندالشباب، وكذلك وصف عبد الفتاح جلال الشخصية المصرية بالكرم وحب السلام وحب التدين (١١٩) ٠

ولا يقتصر التناقض والتعارض بين آراء وأفكار المفكرين والادباء وأساتذة الجامعات والذى يعكس التناقض فى مكونات شخصية المصريين، بل اختلف رجال القضاء فى موقفهم من الجان ، وهذا الخلاف مثال واضح لحالة الازدواج الاجتماعى التى يمر بها المجتمع المصرى ٠ فقد أصدر أحد القضاء حكما وصف فيه الاتصال بالجان بأنه دجل وشعوذة (١٢٠)، ولكن هناك حكما آخر يضاد هذا الحكم العقلانى يحكم ببراءة متهم من الاتصال بالجان مبررا حكم البراءة بقدرة المتهم على الاتصال بقوى خفية

---

(١١٧) فرج أحمد فرج : تحليل المجتمع المصرى من الناحية السيكولوجية، القاهرة معهد التخطيط القومى ، فبراير ١٩٧٣ ٠

(١١٨) توفيق الحكيم : رحلة بين عصرين ، مقال رحلة حول الشخصية المصرية ٠ بيروت ، الشركة الشرقية للنشر والتوزيع ، دون تاريخ، ص ٦٥ ــ ٨٩ ٠

(١١٩) عبد الفتاح جلال : الشخصية المصرية ، المرجع السابق ٠

(١٢٠) جريدة الاهرام : القاهرة ١٩٨٠/٤/٢٨ ٠

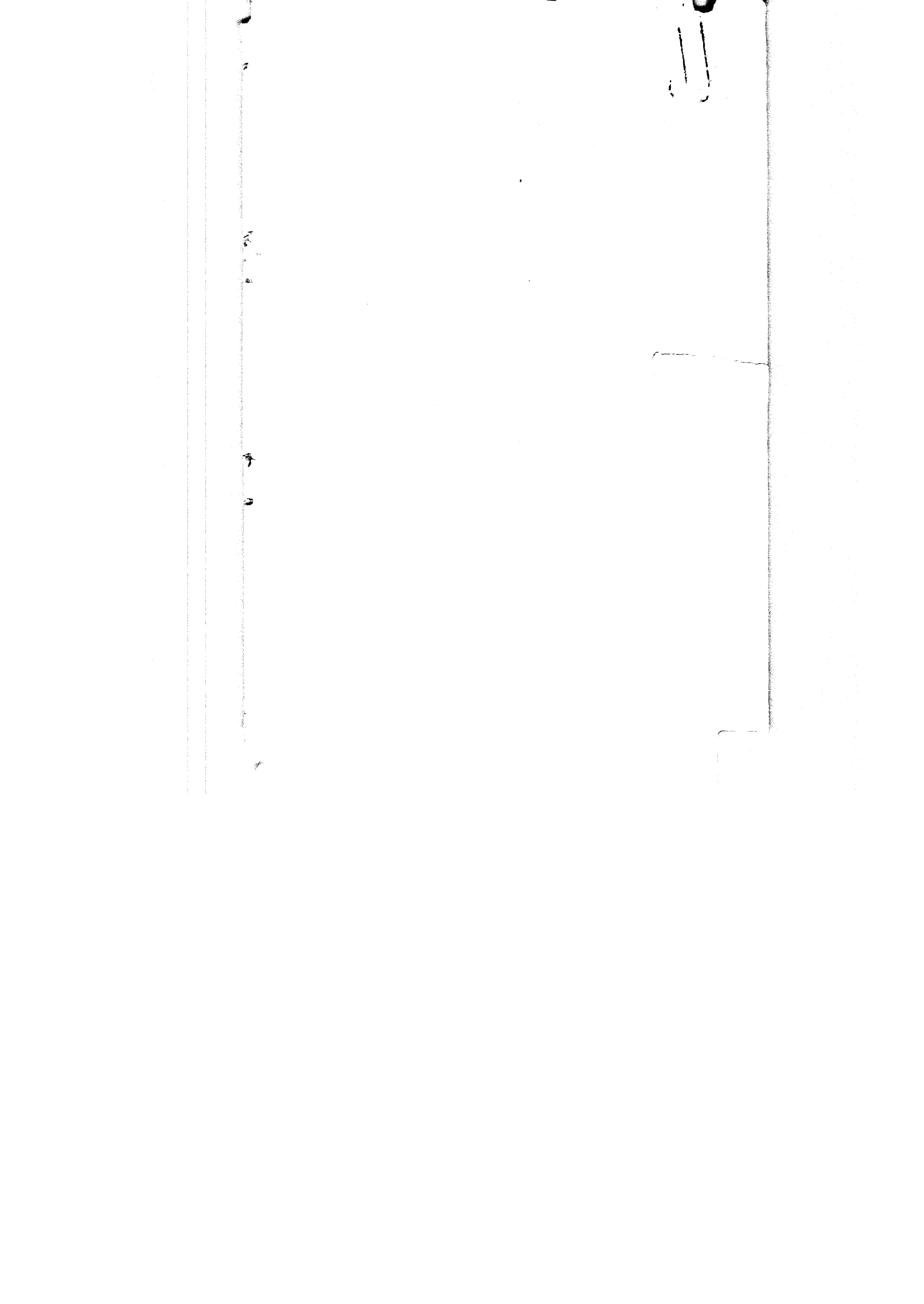
تحركه وتجعله يأتى أفعالا غير مفهومة هو نفسه غير مسئول عنها (١٢١) ٠

ويبدو هذا التناقض جليا لا يمكن تجاهله أو انكاره فى مواقف التفاعل المختلفة مثال ذلك ما عرف عن الشعب المصرى حب الضحك وحب المرح والنكتة ولكن المصرى حتى ولو ضحك من قلبه فانه سرعان ما يتوقف ويتمتم « اللهم اجعله خيرا » فكأنه لا يصدق لحظة الفرح ويتوقع الغم والحزن الذى أصبح خاصية من خصائصه التى اشتهر بها ٠

هذا التباين والتناقض فى مكونات الشخصية المصرية الذى عكسته أعمال الادباء وآراء المفكرين يؤكد لنا أن الشخصية المصرية لا تتكون من عناصر مرنة كل المرونة مثل الشخصية الامريكية ، بل تضم الشخصية المصرية عناصر متنافرة ٠ بعضها تقليدى وبعضها عصرى ، بعضها أصيل متوارث وبعضها طارىء ، بعضها جديد كل الجدة يعكس الايمان بالاتجاهات العقلانية وبعضها قديم كل القدم يعكس الايمان بالفكر اللاعقلانى ، ويعوق التقدم رد فعل لظروف سياسية واقتصادية جثمت فوق صدور هذا الشعب ٠ وعانت منها مكونات الشخصية أكبر معاناة ٠ وهناك عوامل عديدة ساعدت على استمرار وبقاء هذه العناصر التقليدية أهمها استمرار استخدام طريقة الانتاج التقليدية ، وطبيعة النظام السياسى والفهم الساذج والسطحى للعقيدة الدينية ، فلو عرفنا من يعلم الدين لعرفنا أسباب هذا الفهم السطحى ٠ وعندما نؤكد ظاهرة الازدواج الاجتماعى التى تعانى منها الشخصية ، والتى تعكس اللاتجانس بين العناصر الاجتماعية المكونة للشخصية المصرية لا يمكن لنا أن نتجاهل أثر البعد التاريخى فى تكوين العناصر الاجتماعية للشخصية المصرية٠ فهذه الشخصية ليست نبتة شيطانية ، وليست جامدة بل تعكس مراحل التطور التاريخى والاجتماعى ، عانى الشعب خلال سنوات منها من الاستغلال السياسى واستبداد الحكام والفاقة كما نعم فى فترات أخرى بالرخاء والوفرة وعدالة الحكام ، وكلها عوامل أثرت على اتجاهاته وسلوكه وتفكيره ولكن رغم تبدل الحكام والحضارات ، استمرت الشخصية المصرية واستوعبت كل المتناقضات ٠

---

(١٢١) جريدة الاهرام : القاهرة ٢٣/٤/١٩٨٠ ٠



أولا : المراجع العربيـة

أحمد أبو زيد : التنشئة الاجتماعية واحتياجـات الطفولـة • دراسـة أثنوجرافية • جامعة الاسكندرية كلية الآداب ، مجموعة أبحاث اعادة بناء الانسان المصرى ١٩٧٩ •

أحمـد أمـين : حياتى • الطبعة الثالثـة • القاهرة ، النهضة المصريـة ١٩٥٩ •

أحمـد تيمور : الامثال العاميـة • الطبعة الثالثـة ، القاهرة • مطابع الاهرام التجارية ، ١٩٧٠ •

أحمد رشدى صالح : الادب الشعبى • الطبعة الثالثة • القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٧١ •

أحمـد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن • جزء أول • القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٢٤ •

أحمد عبد السلام الكردانى : حقبة من الزمان • كتاب الهلال • العـدد ٣٥٩ • القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٨٠ •

أفجوست ميشين : الديمقراطية البرجوازية فى النظرية والتطبيق ترجمة فؤاد عبد الحليم • القاهرة ، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٨٠ •

السيد عبد العاطى : احتياجات الطفولة فى المجتمعات الريفية البدائية ، القاهرة ، وزارة الزراعة ، الادارة العامة لتكوين تنمية المجتمع ١٩٧٧ •

أنعام عبد الجواد : تنشئة الاطفال لدى المرأة العاملة وغير العاملة • رسالة ماجستير • القاهرة ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ١٩٧٤ •

بوتومـور : الصفوة والمجتمع • ترجمـة محمد الجوهـرى وآخرين ، الاسكندرية • دار الكتب الجامعية ١٩٧٢ •

توفيق الحكيم : رحلة بين عصرين · بيروت · الشركة الشرقية للنشر والتوزيع ، بدون تاريخ ·

توفيق الحكيم : بنك القلق · سلسلة اقرأ · القاهرة · دار المعارف ١٩٧١

توفيق الطويل : دور العقل · القاهرة جريدة الاهرام ٢٠/٤/٨٠ ·

جمال حمدان : شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٧٠ ·

حامد عمار : فى بناء البشر دراسة فى التغير الحضارى والفكر التربوى· الطبعة الثانية · القاهرة ، دار المعرفة ١٩٦٨ ·

حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية · القاهرة ، دار الشهاب ·

حسن البنا : من رسائل الاخوان المسلمين ، القاهرة ، دار الطباعة والنشر الاسلامية ·

حسن محمد يوسف : أهداف الاسرة فى الاسلام · الطبعة الثانية القاهرة · دار الاعتصام ١٩٧٨ ·

حسين خلاف : المصريون والهجرة الى الدول المنتجة للبترول · القاهرة ، جريدة الاهرام ٨ ـ ١١ ـ ١٩٨٠ ·

حمدى السكوت : طه حسين · تاليف حمدى السكوت ومارسدن جونز · القاهرة · قسم النشر الجامعية الامريكية ١٩٧٥ ·

خالد محمد خالد : من هنا نبدأ · الطبعة التاسعة · القاهرة ، مؤسسة الخانجى ١٩٥٨ ·

رشاد رشدى : القاهرة ، جريدة الاهرام · البحث عن الزمن · سلسلة مقالات · ٢٦ ـ ٢ ١٩٨١ ·

رفعت السعيد : تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٢٥ الطبعة الثانية · القاهرة ، دار الثقافة الجديدة ١٩٧٥ ·

رفعت السعيد : حسن البنا ٠٠٠ متى ؟ كيف ؟ لماذا ؟ ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ١٩٧٧ ٠

زكى فهمى : صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر ٠ القاهرة مكتبة الاعتماد ١٩٢٦ ٠

زكى نجيب محمود : أجساد طافية ٠ القاهرة ٠ جريدة الاهرام ١ ـ ٢ ـ ٨١ ٠

سمير لويس : التسرب من التعليم الابتدائى ٠ من ٥٦/٥٧ الى ٧٧/٧٨ ٠ دراسة احصائية ٠ القاهرة ٠ وزارة التربية والتعليم ١٩٨٠ ٠

سنية عبد الوهاب صالح : دراسة ميدانية لظاهرة هجرة العقول ٠ المجلة الاجتماعية ٠ القاهرة المركز القومى للبحوث الاجتماعية ٠ المجلد ١٣ ٠ العدد ٢ ، مايو ٧٦ ٠

سيد قطب : طفل من القرية ٠ القاهرة ، دار الشروق ١٩٧٣ ٠

صبحى وحيدة : فى أصول المسألة المصرية ٠ طبعة جديدة ٠ القاهرة ، مكتبة مدبولى ٠

عباس العقاد : رجال عرفتهم ٠ القاهرة ، دار الهلال ٠ كتاب الهلال ١٩٦٣ ٠

عباس العقاد : سعد زغلول ٠ القاهرة ، مكتبة حجازى ١٩٣٦ ٠

عباس العقاد : محمد عبده ٠ القاهرة ٠ مجموعة أعلام العرب ٠ العدد الاول ٠ مكتبة مصر ١٩٦٢ ٠

عبد الباسط عبد المعطى : بعض مظاهر صراع القيم فى أسرة قروية مصرية ٠ دراسة سوسيولوجية ٠ القاهرة ، المجلة الاجتماعية ٠ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ٠ القاهرة ٠ المجلد الثامن العدد ٨ ٠

عبد الحميد جوده السحار : هذه حياتى ٠ القاهرة ٠ مكتبة مصر ١٩٧٤ ٠

عبد العزيز شرف : طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ٠ القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧ ٠

عبد اللطيف حمزه : أدب المقالة الصحفية فى مصر ٠ الجزء السادس ٠ القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥٤ ٠

عبد الله العروى : أزمة المثقفين العرب تقليدية أم تاريخانية ٠ ترجمة ذوقان قرقوط ٠ بيروت ٠ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٨ ٠

عماد سلطان : الصراع القيمى بين الابناء والآباء وعلاقته بتوافق الابناء النفسى ٠ القاهرة ٠ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ١٩٧٣ ٠

عيروط الاب : الفلاحون ٠ ترجمة محمد غلاب ٠ القاهرة ٠ مطبعة كوثر ١٩٤٣ ٠

فرج أحمد فرج : تحليل المجتمع من الناحية السيكولوجية ٠ القاهرة ، معهد التخطيط القومى ٠ فبراير ١٩٧٣ ٠

قلينى فهمى : على هامش حوادث الماضى ٠ مجهول الناشر وسنة الطبع٠

لطفى السيد : المنتخبات ٠ الجزء الاول ٠ القاهرة ٠ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٣٧ ٠

لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ٠ الطبعة الثالثة ، القاهرة ، دار الهلال ٠ كتاب الهلال ١٩٦٩ ٠

لين أدوارد : المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم ٠ ترجمة عدلى طاهر نور ٠ الطبعة الثانية ٠ القاهرة ٠ دار النشر للجامعات المصرية ١٩٧٥ ٠

ماكيلاند دافيد : مجتمع الانجـاز، ترجمة محمد سعيد فرح وعبد الهادى الجوهرى ، القاهرة ، الانجلو المصرية ١٩٧٥ ٠

محمد سعيد فرح : البناء الاجتماعى والشخصية ٠ الاسكندرية ٠ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ٠

محمد سعيد فرح : الشخصية القومية بين الوهم والحقيقة ٠ المنيـا ٠ جامعة المنيا ٠ كليـة الآداب ٠ مجلة كليـة الآداب والعلـوم الانسانية ٠ العدد الثانى ٠ بدون تاريخ

محمد سعيد فرح : دراسات فى المجتمع المصرى ٠ الاسكندرية ٠ الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ٠

محمد طلعت حرب : مجموعة خطب محمد طلعت حرب ٠ جمعتها والتزمت بطبعها مطبعة مصر ١٩٢٧ ٠

محمد طلعت حرب : تربية المرأة والحجاب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مطبعة المنـار ١٣٣٠ هـ ٠

محمد عاطف غيث : التغير الاجتماعى فى المجتمع القروى ٠ القاهرة ٠ الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ ٠

محمد عبده محجوب : المرأة وأساليب التنشئة الاجتماعية فى المجتمع الريفى ٠ جامعة الاسكندرية ٠ كلية الآداب ٠ مجموعة أبحاث اعادة بناء الانسان المصرى ١٩٧٩ ٠

محمد على محمد : دراسات فى علم الاجتماع السياسى ٠ الاسكندرية ٠ دار الجامعات المصرية ٠

محمد عمـاره : الاعمال الكاملة لقاسم أمين ٠ بيروت ٠ المؤسسة العربية ١٩٧٦ ٠

محمد عماره : الاعمال الكاملة لمحمد عبده · بيروت · المؤسسة العربية

محمد محمود الصياد : نفسية الشعب المصرى من أغانيه · مجلة علم النفس · العدد الاول ، جـ ٢ · يونية ١٩٤٥ ·

محمود عبد القادر : الاساليب الشائعة للتنشئة الاجتماعية فى الريف المصرى · دراسة مقارنة بين الريف والحضر · القاهرة · المركز القومى للبحوث الاجتماعية · المجلة الاجتماعية ، المجلد ١٣ ·

محمود فهمى حجازى : أصول الفكر العربى الحديث عند رفاعة الطهطاوى، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤ ·

المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية : بحث احتياجات الطفولة فى جمهورية مصر العربية · دراسة مسحية على مستوى العينة · التقرير النهائى ، ١٩٧٤ ·

مصطفى سويف (مشرف) : صورة المرأة كما تقدمها وسائل الاعلام · دراسة فى تحليل المضمون للصحافة النسائية · القاهرة · المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ١٩٧٧ ·

ميتشل ريتشارد : أيديولوجية جماعة الاخوان المسلمين · الجزء الثانى، تأليف ريتشارد ميتشل وترجمة منى أنيس وعبد السلام رضوان، القاهرة ، مكتبة مدبولى ·

نجيب اسكندر : الاتجاهات الوالدية فى تنشئة الاطفال · تأليف نجيب اسكندر وعماد اسماعيل · القاهرة ، دار المعرفة ١٩٥٩ ·

نجيب محفوظ : الحب فوق هضبة الاهـرام · القاهـرة · مكتبة مصر ١٩٧٩ ·

نجيب محفوظ : حب تحت المطر · القاهرة · مكتبة مصر ١٩٧٨ ·

نجيب محفوظ : حضرة المحترم · القاهرة مكتبة مصر ١٩٧٥ ·

نجيب محفوظ : عصر الحب · القاهرة ، مكتبة مصر ١٩٨٠ ·
نجيب محفوظ : المرايا · القاهرة · مكتبة مصر ١٩٧٢ ·
نجيب محفوظ : الكرنك · القاهرة · مكتبة مصر ١٩٧٤ ·
نجيب محفوظ : التشريع الجنائى الاسلامى · القاهرة · جريدة الاهرام · ١٧ ـ ٥ ـ ٧٦ ·

يحيى حقى : قنديل أم هاشم مع سيرة ذاتية للمؤلف ، القاهرة · الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ·

يحيى حقى : فجر القصة المصرية · الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ·
يحيى حقى : عنتر وجوليت قصص ولوحات · القاهرة ، دار العروبة ·
يحيى حقى : فكرة ·· فابتسامة · القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٦·

ثانيا : المراجع الاجنبيـة

Abou Loughed, I : Transformation of the Egyptian Elite prelude to the arabi Revolt. Middle East Journal . Vol. 21, No. 3. 1967.

Afaf Loutfi : The Role of Ulama in Egypt during the early Nineteenth Century. In, P.M. Holt (ed). Political and Social Chang in Egypt. London, Oxford. 1968.

Akhavi Shahrough : Egypt, Neo-patrimonial Elite. In, Frank chateau (ed). Political Elites and Political Develipment in th middele east.

Ammar Hammed : Growing up in an Egyptian Village Silwa provience of Aswan. London, Routledge & Kegan Paul 1954.

Baer Gabriel : Studies in the Social History of Modern Egypt. Chicago. The Uni of Chicago press. 1969.

Barker Earmert : National character. London. Nethuen. 1927.

Barnouw Victor : Culture and Personality. 7th printing. Hemewood, Illinois. The Dorsey press. 1963.

Birks, J.S. : International Migration and Development in the Arab Region. By J. S. Birks and C. A. Sinclair. Geneva. International Labour Office 1976.

Boyed, David : Elite and their Education. Windsor Borks. Near Puplication, Com Ltd., 1973.

Broke, Jan. : National Character in the perspective of Cultural Geography. The Annals of the Amercan Academy of Political and Social Science. Philadelphia, vol. 370. March 1967.

Charlesworth, James : National character in the perspective of political science. The Annals of the American Academy of political and Social Science. Op. cit.

Claire, Selltiz : Research in Methods and Social Relations. N.Y. Holt Rinehart Winston 1959.

Dahrendorf, Ralf : Homo Sociologicus. London. Routledge & Kegan paul 1973.

Duijnker, H. C. : National Character and National Stereotypes. By H. C. Duijnker and N. H. Frijda. Amesterdam. North Holand, pub. 1960.

Farber. Maurice : The problem of National Character : A methodological Analysis. In personality and Social systems. edited by Neil Smelser and William Smelser N. Y. John Willey. 1963.

Feur Lewis : The conflict of Generation. N. Y. Bosic Book 1969.

Fromm Erick : The fear of Freedon. 4th printing. London, Kegan Paul 1946.

Fromm Erick : Sosial Character in a Mexican Willage, New Jersey Prentic Hall. 1970.

Ginsberg, M. : Reason and Unreason in Society London. Longman. 1948.

Goldthorde, J. E. : The Sociology of third World. Cambridge, Cambridge Uni. Press. 1975.

Gorer, Geoffrey : The Concept of National Character, in, Personality in Nature, Society, and Culture, edited by Cluckhoon and Henry Murray. 2th (ed). N.Y. Alfred, A. Knope 1956.

Hamedy, Sania : Temperament and the character of the Arabs. Desseration from the Department of Social studies. The Uni. of Chicago.

Haris, Marvin : The Rise of Arthropological theory, 2th printing. N. Y. Thomas. Y. Crowell Company. 1969.

Heine, Patrick, John : The problem of Personality in sociological theory. In Concepts of Personality. edited by M. Weapon and R. Heine. Chicago. Aldine Puple. 1963.

Heobel. E. Adamson : Anthropological perspectives on National Character. In the Annaals of the American Academy of Political and Social Science. Op, cit.

'Hrair, Dekme Jian : Egypt under Nasser. N. Y. State of Uni. of N. Y. 1971.

Hsu, Francais, (ed) : Psychological Anthropology Cambridge, Schenkman 1972.

Inkles, Alex : Social Change and Social Caracter. Kluckhoon (ed), Personality in Nature, Society and Culture, Op, cit.

Inkles, Alex : Making Modern Men. On the causes and consequences of individual change in six developing countries. Reprinted . From A. J. of Sociology. Vol. 75. No 2, 1969.

Inkles, Alex : National character and Modern Political systems. In Francais Hsu (ed). Psychological Anthropology. Op, cit.

Kardiner, : The concept of Basic Personality structure as an operational tool in social sciences. Ralph London (ed). The science of Man in the World Crisis. 4th printing. N.Y. Colombia Uni. 1960.

Kluckhoon, Clyde : Culture and Behavior. N. Y. The Free Press of Glenco. 19e62.

Lazar, Joseph : Juridical perspectives on National Character. The Annaals of the American Academy of Political and social science. Op, cit.

Leonard, Binder : Egypt, the integrative Revolution. In Lucian. W. Pye & sindney Verba. (ed). Political Cultural and Development. Princton N. Y. Princton Uni. 1965.

Lynn. R. : Personality and social character. Oxford. Pergamon press, 1971.

Martindale, Done : The sociology of National Character. The Annals of th American Academy of Political and social science Op, cit.

Maus Heinz : A short History of sociology London. Routledge. & Kegan paul, 1971.

Mead, M. : National character. In Anthropology To Day. Edited by K.A.L. Krober Chicago. The Uni. of Chigaco Press. 1952.

Merton, Robert : Social Theory and social structure. Revised edition. Glencoe. Free Press. 1963.

Nett Emily : An Evaluantion of Naitonal character concept in sociological theory. Social Forces. Vol. 36. No. 4. 1959.

Putterman, Robert : The comparative study of political Elites. England Gliffs. Prentic Hall. 1976.

Reisman, David : Some Questions about the study of American National character in the twentith century. The Annals of the American Academy of political andsocial science. op. cit.

Smith, Done : Modal Attitude clusters : A supplement for the study of National character. Social forces. Vol. 36.

Virtanen, Reino : French National Character in the Twentieth century. The Annals of the American Academy of Political and social science. Op, cit.

Weber, Max : Essays in sociology. Trans by H. Gerth and Wright Mills. London. Routledge and Kegan Paul. 1970.

الفهـــرس

الموضـــوع	رقم الصفحة
الاهـــداء	٥
المقـــدمة	٧ ـ ٩

الفصـل الاول

القضيـة والمفهـومات

المشـكلة	١١ ـ ٦٢
ارهاصات عن الخصائص القومية العربية والمصرية .	١٣ ـ ١٧
المفهـــومات	١٧ ـ ٣٢
الشـصية القوميـــة	٣٢ ـ ٣٣
الشـخصية المنواليـــة	٣٣ ـ ٤١
بنـاء الشـخصية الاسـاسية	٤١ ـ ٤٧
الشـخصية الاجتماعيـة	٤٧ ـ ٥٤
الشخصية القومية هى العقلية القومية	٥٤ ـ ٥٨
الشخصية القومية حقيقة أم وهم	٥٨ ـ ٦٢

الفصـل الثـانى

مـدى مساهمة العلـوم الاجتماعية فى دراسة الشخصية القومية ٦٣ ـ ١١٦

الشـخصية القوميـة من منظـور العلـوم القانونيـة والسياسـية والجغرافيـا	٦٥ ـ ٧١
علم النفس والشخصية القومية	٧١ ـ ٨٢
علم الاجتماع والشخصية القومية	٨٢ ـ ١٠٢
الانثروبولوجيا والشخصية القومية	١٠٢ ـ ١١٦

الموضـــوع | رقم الصفحة

الفصــل الثــالث

طــرق البحـث الملائمــة لدراسة الشخصية القومية . ١١٧ ــ ١٥٩

أهمية الدراسة العلمية للشخصية القومية . . ١١٩ ــ ١٣٣
الملاحظـــــة . . . . ١٣٣ ــ ١٣٦
المقـــابلة . . . . ١٣٧ ــ ١٣٨
اســتمارة الاستبيان . . . . ١٣٨ ــ ١٤٠
الاختبارات الاســقاطية . . . . . . ١٤٠ ــ ١٤٨
تحليــل الاحـــلام . . . . ١٤٨ ــ ١٥٠
دراسة ســير الاشخاص وذكرياتهم . . . . ١٥٠ ــ ١٥٢
تحليـــل المضمـــون . . . . ١٥٢ ــ ١٥٩

الفصــل الرابــع

الصفـوة المصريــة والشــخصية . ١٦١ ــ ٢١٤

تعريفــات الصفــوة . . . . ١٦٤ ــ ١٧٠
الواقع المصرى الذى ثارت عليه الصفوة . . . . ١٧٠ ــ ١٧٥
دور الصفــوة فــى مصـــر . . . . . . ١٧٥ ــ ١٧٧
دور العلماء كصفوة فى المجتمع التقليدى . . . ١٧٧ ــ ١٨٢
النشأة الاجتماعية للصفــوة الحديثــة . . . . ١٨٢ ــ ١٨٨
العناصر الاجتماعية التى دعت الصفوة اليها . . ١٨٨ ــ ٢١٤

الفصل الخامس

تكوين الشخصية القوميــة . ٢١٥ ــ ٢٥٠

التفسيرات المختلفة لعملية تكوين الشخصية القومية ٢١٧ ــ ٢٢٧
مدى تقبل التجديد فى أســاليب التنشئة الاجتماعية ٢٢٧ ــ ٢٣١

الموضـــوع رقم الصفحة

أساليب المعاملة الوالدية فى طور الرضاعة . . ٢٣١ ـ ٢٣٥
أساليب المعاملة الوالدية فى طور الطفولـة الاول . ٢٣٥ ـ ٢٤٣
أساليب المعاملة الوالدية فى طـور الطفولة المتأخـر ٢٤٣ ـ ٢٥٠

الفصــل الســادس

الشـخصية المتغـيرة
من الاستقرار الى البلبلة الاجتماعية . ٢١٥ ـ ٣٠٧

آراء السلوكيين فى تغير الشخصية القومية . . ٢٥٣ ـ ٢٦٣
خصائـص وأفعـال الشخصية المصريـة فـى المرحلـة
التقليديـة . . . . ٢٦٣ ـ ٢٧٤
الشـخصية المتغـيرة . . . . . . ٢٧٤ ـ ٣٠٧
المراجـع الربيـة . . . . ٣٠٩ ـ ٣١٥
المراجـع الاجنبيـة . . . . ٣١٦ ـ ٣٢٠

تم بحمـد اللـه

طبع بمطبعة التقدم
عبد القـــادر التـــونى
٢١ ش سيزوستريس ـ اسكندرية ت : ٨٠٦٠٥٤